رواية

جوكا رينيرس تيرون

مكتبة

حزنُ نمرِ الثلوجِ الهائلُ

ترجمة:

د. محسن الرملي

د. نهاد بيبرس

Joca Reiners Terron

A tristeza extraordinária do leopardo-das-neves

The Tremendous Sadness of the Snow Leopard

حزنُ نمرِ الثلوجِ الهائلُ

جوكا رينيرس تيرون

Author: Joca Reiners Terron.
A tristeza extraordinária do leopardo-das-neves
Copyright © 2013 by Companhia das Letras. Brazil

ISBN: 9788535922349

Translated from Portuguese by:
Dr. Muhsin Al-Ramli
Dr. Nihad Bebars

حزنُ نمرِ الثلوجِ الهائلُ / رواية
جوكا رينيرس تيرون

ترجمها من البرتغالية
د. محسن الرملي
د. نهاد بيبرس

لوحة الغلاف: دار Caravan Edizioni الإيطالية
الإخراج الفني: ستوديو سيماء

الطبعة الأولى- أكتوبر 2018
ISBN : 978 - 99921 - 850 - 08 - 6

مكتبة
t.me/soramnqraa

حقوق هذه الترجمة ونشرها والاقتباس باللغة العربية محفوظة للناشر

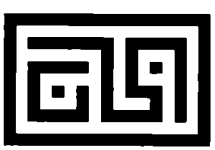

هاتف: 51088000 965+ / 99462219 965+
البريد الإلكتروني: info@daralkhan.com
تويتر: @DarAlKhan_kw
انستغرام: daralkhan_kw

© Alkhan Publishing & Distribution
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مدمجة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.
إن الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

حزنُ نمرِ الثلوجِ الهائلُ

جوكا رينيرس تيرون

رواية

ترجمها من البرتغالية
د. محسن الرملي
د. نهاد بيبرس

مكتبة
t.me/soramnqraa

2018

... إلى أجيبثيا دو كراتو
التي سمعَت هذا وهي نائمة
وإلى فرقة فيرتيجم المسرحية.

«عشرة آلاف هندي أحمر

شاحبون ولكنهم أصلاب

تَركوا عوائلهم كي يموتوا بعيدين»

ماكس ايرنست

1

الطَبّاع:
عادات ليلية

لا أنام منذ أسبوعين. وإن كنت قبلها لا أنام جيدًا. حتى ذلك الحين، حتى تلك الليلة التي هجرت فيها النوم، كنت أُحضِّر الإفطار بمجرد أن يفتح أبي عينيه، وبعدها نذهب إلى العمل. كل الأيام كانت متشابهة. بين نهاية الدوام الليلي في مركز الشرطة وبداية الصباح، تتبقى لدي ساعتين أو ثلاث، أُخصصها للسباحة بين شراشف سريري، أغرق دون التمكن من الوصول إلى الضفة الأخرى. بعد ذلك، في محل البقالة، وبينما يعدل أبي جلسته على المقعد خلف صندوق الحساب، مكانه المعتاد طوال الخمسة وستين سنة الأخيرة، وأنا أشبه بالسائر في نومه، كنت أعطي التعليمات لموظفنا الوحيد، حول ترتيب واستبدال البضائع، إعادة وضع الأسعار وما إلى ذلك من واجباته. هذا البوليفي (تُرى هل هو الشاب ذاته أم أحد غيره؟) ينزع بتمهل بطاقات الأسعار عن علب معجنات بايغل، بارانيكي وخبز الحَلّة، ببطء شديد؛ تُرى هل أن بطاريات ساعة الجدار توشك على النفاد؟ تبدو العقارب متوقفة، صامتة أكثر مما هو معتاد، أحس بثقل في جفوني، في الرفوف مساحات فارغة أكثر من اللازم، وبين العقارب تفيض الدقائق. لم تكن تجارتنا تسير على ما يرام. من خلال الفتحة المعتمة بين علب السمسم، هناك في العمق، عينان تراقبانني. لم أعتد التكلم مع أحد بعد ذلك، باستثناء الاستجابة لمناداة قبض الحِساب المتكررة، وكنت أرى أبي يتبادل بعض العبارات باللغة اليديشية[1] طوال المساء مع زبون عجوز كبير مثله، صديقه غلاس،

(1) اللغة اليديشية (أو البيدية) هي لغة يهود أوروبا وقد تشكلت خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين من امتزاج لغات عدة منها الآرامية والألمانية والإيطالية والفرنسية والعبرية. يتحدثها ما يقارب 3 ملايين شخص حول العالم، أغلبهم اليهود الأشكناز.

أحد الناجين من اجتماعات نادي يوجينت في مبنى زوكونفت. كنت أتخيل طبيعة تلك الأحاديث، والمواضيع المتوقعة بين متلعثم ثقيل اللسان وفاقد للذاكرة، وكم من الجديد الذي يصعب التكهن به في تعليقاتهم تلك. انقطعت الزيارات حين انتحر الدكتور غلاس منذ أسبوعين، في اليوم الذي بلغ فيه عمره المائة عام. ومنذ ذلك الحين تحوّل كل شيء إلى فوضى، بما في ذلك نومي. وبعدها بوقت قليل، حاول أبي قتل نفسه أيضًا. ذات يوم، عند عودتي من نوبة عملي في مركز الشرطة رقم 77، وجدته في الحمام وماكنة الحلاقة البلاستيكية الرخيصة في يده. مشوّش الذهن ولا يفهم جيدًا لماذا فشل، كان يحك الأداة بقوة على رسغه. في البداية ظننتُ بأنه يمزح. شفرة ماكنة الحلاقة لم تفعل سوى أنها خدشت قليلًا جلده الشائخ، تاركة بعض الكدمات شبه الزرقاء. خدَشته لكنها لم تجرحه فعلًا. كنت واقفًا في فتحة الباب، كررت اسمه مرتين أو ثلاث، بحرص على عدم إفزاعه. عندها تركَ ماكنة الحلاقة تسقط في البركة الصفراء، وكانت أطراف بيجامته مبللة بالبول. نظر إليّ دون أن يعرفني: كانت عيناه منطفئتان. وجسده يبدو مثل شُوال من الخيش شبه فارغ، كتلة مهجورة، اقترب إليه القط الذي خرج من بين الرفوف، وتشممه بما يكفي كي يستدير ويغادره. كان المشهد عبثيا وكوميديا إلى حد كبير. وإن كان كل ذلك قد حدث في ليلة أمس، إلا أنه قد أصبح جزءًا من الماضي. إنني الآن في مركز الشرطة، لا أسمع أية ضجة في الزنزانات، وأرى ضلالًا هناك في الخارج، مدمنين على مخدرات الكراك، مشتتين في الشوارع. ولكنني لم أستطع النوم، لذا أمس لازال هو اليوم، وأول أمس أصبح هو أمس. الماضي على وشك الحدوث. هو الآن، وسيكون غدًا. إن

الأبدية تركّزت في يوم لا يمضي أبدًا. لا أدري إذا كنت سأعود للنوم. وخلال ذلك، لازلت هنا. آمل أن يعيد ضوء النهار لليوم أجزائه، دقائقه وثوانيه. حين تصطدم الشمس بالجدار الخلفي لمركز الشرطة كسيارة إسعاف بلا مكابح. عندما تجيء ليلة أخرى كي تعيد ترتيب النظام.

قهوة مركز الشرطة لها طعم الجورب. أسكبُ المتبقي من القهوة في الوعاء في حوض الغسيل، وأضع الماء على النار لغليه. ربما أن هذه أكثر الخفارات هدوءًا في السنوات الأخيرة، فكل أفراد شرطة المركز في الخارج، يصطادون المدمنين، «نُنظف المدينة» كما يقول الآمر الأعلى. يريدون أن يُخلوا الشوارع كي تبدو جميلة. فلينتهزوا الفرصة إذًا في إحدى طلعاتهم هذه، وليضعوا زهور الأقحوان في شرفات المباني التي يجتاحونها. اليوم، لن يكون هناك أي حادث طارئ، لن يتم القبض على أي متحوّل جنسي، وبائعي المخدرات استغلوا المناسبة للنزول إلى برايا غرانده (الشاطيء الكبير)، فهذا هو اليوم الذي يتنزه فيه اللصوص مع عائلاتهم في شارع المنهو كاو (طريق سريع مرتفع، يقطع جزءًا من مركز مدينة ساو باولو، يُمنع فيه مرور السيارات في أيام الآحاد ويُخصص للمارة)، يتنزهون دون أن يطاردهم أحد، أحرارًا كأوراق الشَجر التي تسقط من الأغصان العالية. أنا الآن وحدي مع المشتبه بهم. السيدة (إكس X) في زنزانتها تحاول السيطرة على ارتعاشات يديها. سائق التاكسي ميّت. موزّع بضائع المحل التجاري الصغير قد تم إخلاء سبيله. لا بد وأن عمته لم تُعد له طعامًا ساخنًا عندما وصل إلى البيت الجديد، بينما المَخلوقَة مازالت معزولة في الغرفة المعتمة في آخر المَمر، محميّة بزجاج النوافذ المطلية

بالأسود، هناك في ظلام تام. لا أستطيع رؤيتها، ولكنني من هنا أستطيع شم رائحتها التي تشبه رائحة بقايا القهوة التي رميتها قبل قليل. كان الصمت كثيفًا، بحيث أنني أتمكن من سماع صخب القنابل المسيلة للدموع، التي تلقيها الشرطة العسكرية في شارع جوليو بريستس، انفجارات خفيفة تتماهى في البُعد. أملأ الكوب بالقهوة وأخرج من المبنى. فوق فسحة ركن العربات، كانت السماء مرصعة بالنجوم، وكأنني لست في مركز المدينة. أضواء ناطحات السحاب ومباني المكاتب القريبة كانت مُطفأة. لا أحد يبقى في هذه المنطقة تقريبًا عندما تشن الشرطة إحدى حملاتها، باستثناء أولئك الذين ليس لديهم مكان يذهبون إليه. خادمة متكئة على إطار إحدى النوافذ مالئة الفراغ بظلها. لا أثر لتلوث في الغيوم، باستثناء بخار قهوتي الذي يتصاعد ببطء من الكوب الذي بين يدي راسمًا دوائرًا تتلاشى في العتمة. إذا ما أغلقتُ عينيّ وضغطتُ جفنيّ بقوة ثم فتحتهما... تختفي النجوم، ولكن ذلك لا يدوم سوى بضع ثوانٍ. وبعدها بقليل تعود النجوم للظهور وللدوران والدوران... كما لو كنت محبوسًا في قفص، وعندما أدور حول نفسي، أستطيع الهرب من بين القضبان الخيالية والنفاذ بجسدي من بينها. أختفي. أجرب فعل ذلك عدة مرات. أغلق عينيّ. وعندما أفتحهما، ثمة مدمن مخدرات جامد أمامي. مثلي، عيناه مفتوحتان جدًا. يحمل على كتفيه لحافه. عَلَم قراصنة احترق مركبهم. كان شديد الاضطراب والذهول، بحيث أنه عند هروبه من ملاحقة رجال الشرطة، قفز السور الخلفي لمبنى مركز الشرطة دون أن ينتبه إلى أين قد أدخَل نفسه. وبعد أن رأى العلامة الكبيرة للشرطة المدنية مُلصَقة على الحائط الذي خلفي، صقع جبهته، دلالة على أنه قد

أدرك فجأة مأزقه، فانطلق هاربًا، قفز سورًا آخر، وتملص من اشتباكه بالأسلاك الشائكة... ثم اختفى، مخلفًا لحافه ورائحته العفنة قرب أقدامي. أعاود إغلاق عينيّ، فيما رائحة الرجل الغائطية الممزوجة برائحة مخدر الكراك مازالت في الهواء. أفتح عينيّ. تدور النجوم وتدور. هَرب المدمن، وأنا مازلت هنا. لقهوتي طعم هذا اللحاف. أُبصر جثث كلاب سائق التاكسي الثلاثة، التي من سلاسلة روت وايلر، ملقاة وملفوفة في أكياس بلاستيكية سوداء. هؤلاء لم يهربوا. لا علم لهم بطريقتي في فتح وإغلاق العينين للنفاذ من بين القضبان، ولا طريقة القفز على الأسوار كالمدمِن. كان من المفروض حرق هذه الكلاب بعد قتلها. يبدو أن الحمقى المسؤولين عن ذلك قد نسيوا هذا الأمر، ولم يتصلوا بمركز الوقاية من الأمراض المُعدية. تُرى لو رُمي عظمًا إلى كلاب الروت وايلر هذه، هل ستنهض هازّة ذيولها حتى وإن كانت ذيولها مقطوعة؟ هل ستذهب لتتشمم جثة سيدها في الزنزانة الفارغة، أم ستفضل مطاردة المدمن الذي هرب توًا؟ إن وفاء هذه الحيوانات يصعب فهمه، تصر على هز بقايا ذيولها المبتورة للشخص ذاته الذي جدَعها. عندما سأنتهي أنا من لعبة فتح وإغلاق العينين، سوف أتصل بمركز الوقاية من الأمراض المُعدية، فهذه الكلاب تفوح منها رائحة الجيفة. نعم، كان باستطاعتها الهرب، لكن ذلك قد أصبح الآن مُستبعدًا جدًا.

قبل محاولته الانتحار، كنا أنا وأبي ننسحب إلى الشقة التي فوق محل البقالة، عندما يحل المساء. أَحمله إلى الحمّام وأُنظفه، ثم أُعِد وجبة من نقانق الفورست مع بطاطا أو شوربة عدس، وبعدها أُهيء

له الفراش. كان يرفض النوم، ويطلب مني أن أحكي له قصصًا عن الحيوانات. «احْكِ لي حكاية»، يقولها لي كل ليلة، إحدى حكايات إيسوب، يقولها عندما يكون في أفضل لحظاته، ولكن ذلك قد كان في أول بدايات مرضه، وبعدها لم يعد يتذكر شيئًا، ولم يكن عليّ إلا أن أقص له بعض الحكايات خلال بضعة دقائق. ليس ثمة حاجة للكثير منها. عندي قِصَر في الخيال، ولذلك كنت أحكي له عما يحدث معي أثناء عملي الثاني، ككاتب على الآلة الطابعة، أُحدثه عن الإفادات التي كنت أدونها في مركز الشرطة رقم 77، القضايا التي أُحقق فيها، حادث غريب في نوكتوراما، النزهة الليلية في حديقة الحيوانات. كان ذلك أسهل من التأليف، هذا عدا أن إيسوب قد أُعدِم بتهمة الاحتيال. خلال وقت قصير، يغط أبي في النوم. في الليالي التي تلَت محاولته الأولى للانتحار، بعد حادثة شفرة ماكنة الحلاقة، لم يكن أمامي من خيار سوى أن أعطيه مُسكّنات قبل خروجي. كنت أخشى أن أجده ميتًا عند عودتي من خفارتي. تُقلقني فكرة أن يقتل نفسه أثناء انشغالي بالعمل في مركز الشرطة. ليس لأن ذلك يهمني، بل أنه سيكون تخفيفًا عن كاهلي، ولكنني أفضل ألا أجد نفسي في وضع معقّد كهذا. لم أستطع التفكير بشكل جيد بفعل تأثير الأرق والتعب، واستمر الحال على هذا النحو... وربما أسوأ. قبل خروجي، كنت أقدم له قدحًا من الماء وقرص دواء، قائلًا له بأنه فيتامين سي. فيقاوم الأب قليلًا ولكنه ينتهي بتناوله. لم يخطر في بالي أبدًا أن قرصًا واحدًا يمكن أن يقتله، لأن أكثر ما كان يهمني هو أن ينام طوال الليل عندما أكون أنا في الخارج. يطلب المزيد من قصص الحيوانات، كل ليلة، قصص يستمع إليها وعيناه متجهتان صوب النافذة، وكأنه يتأمل في الستارة

المشاهد التي أحكيها له، وبعدها بقليل، يغط بالنوم. في الليلة التالية يطلبها مني مجددًا. أتساءل عما يحلم به، وإذا ما كانت الحالة الطبيعية المفقودة أثناء الصحو، يمكن استعادتها في أحلامه، وحتى إذا كان ذلك ممكنًا، بعد أن يتناول قرص اتيفان المنوم. هذا هراء، أُدرك ذلك، ولكن ربما يكون الأمر معاكسًا، حيث تتحول فوضاه الحلمية إلى الواقع اليومي المعاش، والعكس صحيح، ربما أن أحلامه مُرَتَّبة كما يفترض أن تكون حياته. ربما ثمة منطق معين فيها، على العكس مما يجري أمام أعيننا المفتوحة، على غير ما يجري في الحياة أو أثناء الأرق، في عالم الأسماك هذا، أسماك بلا أجفان وتُطلِق الفقاعات.

بدأت أعراض خَرَف الأب العجوز منذ أن كانت أمي حيّة. مر على ذلك وقت طويل، بحيث لم أعد أتذكر وجهها، إلا إذا نظرت بتمعن إلى صورتها الوحيدة المعلّقة في الممر. في هذه الصورة، متآكلة الأطراف بسبب الرطوبة، تبدو أمي مثل شبح، فأحبار طباعة الصورة راحت تتلاشى إلى الحد الذي صارت فيه الآن شبه شفافة. لا أدري فيما إذا كان لهذا ثمة معنى (ربما أن عينيّ هما المشوشتان)، ولكنني أستطيع رؤية تفاصيل المقبض الخزفي الرقيق للخزانة التي خلفها في الصورة، مستندة على الحائط، وأرى الأطراف الحادة لستارة النافذة التي على يمينها والمصنوعة من نسيج الفوال، وهي تغطي المرآة الملصقة على باب الخزانة، ومع ذلك، لا تعكس المرآة صورة أمي وإنما الجدار المقابل الذي هو خارج نطاق الرؤية الذي تشمله الصورة. في النافذة يمكن رؤية أشجار البان. أرى كل ذلك عبر الصورة بآلية الألوان، والتي أصبحَت فيها أمي أكثر شفافية بفعل

انعكاس بعض النور في المرآة. لابد وأنني مشوشًا بسبب الأرق. ورق الصورة كان تالفًا في الحافة اليسرى للصورة... إلى الحد الذي كوّن فيه بقعًا كشموس سوداء، أو كبُقَع حروق. هذه البُقع تغزو وجه أمي، أو المساحة التي يفترض أن يكون فيها وجه أمي ولكنه غير موجود، فلم يبق أثر لعينيها وأنفها وفمها. ومع ذلك، فوفق المنطق الخاص بتشكيل هذه الصورة، أقدّر أنه من المفروضَ، أن يكون ظَهر أمي منعكسًا في المرآة، ظهرها والجزء الخلفي من تنورتها على مستوى الخصر، ولكن لا شيء من ذلك يُرى منعكسًا في المرآة، لا هذا ولا حتى المُصوِّر، ولا أي تفصيل من هيئته كمرفق مثني بحكم حمل الكاميرا التي لا بد وأنها لم تكن صغيرة (وبحكم قِدم الصورة، فبالتأكيد لم تكن كاميرا محمولة)، أو حتى مقدمة حذائه المتهرئة. أيكون أبي هو الذي التقط هذه الصورة؟ ربما يكون غير مرئي في الصورة كأمي، وإن كانت هي بالكاد تُرى بشكل خفيف -من خلال شكل انحناءة رأسها نحو اليسار، وانحناءة ظلها... كأنها حامل، أو كأنها تنوء تحت ثقل مشاكل جَمّة- وإن كانت تفاصيلها التشريحية لم تعد مرئية، وإن كان صوتها لم يعد قابلًا للسماع. الأب غائب حتى في هذه الصورة، والتي لا يفترض أن يكون فيها أصلًا. صورة أمي هذه، هي الصورة العائلية الوحيدة لدينا. خلف الصورة، ثمة ملاحظة تقول: «تم التقاط هذه الصورة في المنزل الواقع في شارع توكانتينس، رقم 905، حيّ بووم رتيرو، ساو باولو، مايو 1945». كان ذلك عنوان بيت دعارة.

عندما أُفكر في أمي، أتذكر صوتها الذي ينتشر في كل البيت.

بشكل عام كانت تغني في المطبخ، وهي تُعد العشاء، أو في الحمّام. وأيضًا في غرفة نومها، فقط لزوجها (كنتُ أُلصق أذني دائمًا على باب غرفتها). صوتها ينطوي على نوعية موسيقية حتى وهي تتفوه بألفاظ نابية. في طفولتي كنت معتادًا على أن ألعب: لعبة نسيان وجه أمي عامدًا. يكفيني أن أمضي بضع ساعات دون رؤيتها، في المدرسة، أو قضاء جل المساء لاعبًا الكرة في الباحة، دون البحث عن وجهها بين عموديّ شبكة المَرمى، أو بين السحاب، عندئذ كنت أتمكن من محو كل ملامحها من ذاكرتي. أمحوها واحدًا تلو الآخر، طيات ابتسامتها، تغضنات السعادة في جبهتها، التجعدات الشبيهة بمخالب الديك، نازلة عند طرفي عينيها السوداوين. و، فقط حينها، عيناها، أنفها وفمها. لا شيء يبقى سوى صوتها صافيًا وقويًا، وهي تأمرني أن أستحم، أن أتعشّى أو تلومني. تحكي لي القصص قبل النوم. تترنم بصوت خافت ببعض أغاني البوليرو، تكاد تُذيب أذني بأنفاسها الدافئة. يروق لها أن تحكي لي قصة (دُمية الثلج) التي عشقت لهيب المدفأة. أتذكر جيدًا، النبرات الخفيفة لصوت أمي في كل المرات التي روت لي فيها قصة رجل الثلج الأبله ذاك. في البداية لم أكن أستوعب كم كان ذلك مريعًا. لرجل الثلج حماسة طفل صغير. يخلط بين الشمس والقمر. لا حدود لغروره، يظن بأن بريقه كبريق النجوم. كان جاهلًا تمامًا بالحياة، وإلى حواراته مع الكلب، الذي كان مربوطًا أمام البيت، كلب عجوز وحكيم دائم النُصح لرجل الثلج بعدم الشغف ببريق الشمس أكثر من اللازم، ها؟، لأنه، في نهاية الأمر، من ذا الذي لا يعرف ما تفعله حرارة الشمس بدُمى الثلج؟ ولكن، تساقط قليل من الثلج فكبر رجل الثلج أكثر، وراح ينتفخ شيئًا فشيئًا بأهميته الخاصة وجماله. كلما وصلت

القصة إلى هذه النقطة، كان صوت أمي يتبنى سذاجة، تمامًا كالسذاجة المنعكسة في قطعتيّ الزجاج الموضوعتان محل عينيّ رجل الثلج، عينان منحاهما له الأطفال كي يرى العالم على هذا النحو المهشم واللايقيني، وأنا أرى العالم كما يراه بفضل صوت أمي. بعد أن يشرح الكلب له، غواو، ماهية هذا المطبخ الذي يريانه عبر النافذة، وكيف أن كل ما حول المدفئة ساخنًا ومختلفًا جدًا عما هو في الخارج، تلك الحديقة المغطاة بالجليد، القمر البارد والحزين، يزداد رجل الثلج عشقًا للّهب المحمَر الذي يلعق جوانب المدفأة، وعندها يبدأ بالتلاشي: مع وصول الحرارة، يذوب شيئًا فشيئًا، أوه، حتى يسيل نحو المنحدر ويختفي في البالوعة. أثناء ذلك، يتفهم الكلب نشوة رجل الثلج بالتفاعل مع اللهيب: الأطفال الذين صنعوه جعلوا عماده عصا مجرفة، من تلك التي تُستخدم لتزويد الفرن بالفحم. دائمًا ثمة كلب مربوط يحذرنا من أخطار الواقع، وهذا ما حدث معي أيضًا؛ لعبة نسيان ملامح وجه أمي، تحوّلت إلى تعذيب، لأنني عندما أعود إلى البيت قادمًا من المدرسة أو من مباراة، أكون قد نسيت وجهها حقًا، وأقطع الطرقات والساحات شبه يائس، بحيث لا أنظر حتى إلى الجانبين، كي أصل بشكل أسرع إلى الدار وأصعد السلم بلهفة فاتحًا الباب كمن يحطمه، معتقدًا بأنني حال مروري فوق سجادة أرضية الصالة، مشدودًا نحو صوت أمي، سأجدها تغني في المطبخ، وعندما أقطع الممر باكيًا، كنت على يقين من أنها حين تلتفت قرب حوض الغسيل، تكون قد فقدت عينيها وأنفها، وأن هذا الصوت الصادر عنها، يأتي من مكان لم يعد فمها، وإنما من ظل فمها، لأن ملامح وجهها، لن تكون موجودة، وستنظُر إليّ بلا عينين وتتحدث معي بلا

شفتين، وتعيد عليّ للمرة الألف نهاية القصة قائلة: «ومن حينها، لم يعد أحد يتذكر رجل الثلج».

نقص ذكرياتي يتفاقم بسبب مغادرتي للبيت مبكرًا عندما كنت مراهقًا. عشت في كيبوتس في إسرائيل لعدة أعوام، في مرحلة صهيونية من حياتي، وذلك بعد جولة في أوروبا الشرقية وفي منطقة من روسيا جاء منها أبي، أو على الأقل من منطقة كنتُ أظن بأنه قد جاء منها (لم أكن متأكدًا أبدًا). هناك تزوجت، ولكن تلك قصة أُفضل نسيانها، ونسيتها بالفعل، كما لو أنها لم تحدث على الإطلاق، تمامًا مثل انتمائي للصهيونية، والتي شكلت مرحلة بحث مزرية عن جذور لا وجود لها في الأصل. إن للمهاجرين جذورًا هوائية مثل أزهار الأوركيد، تمتص الماء من الجو. كانت لزواجي نهاية حزينة، أو نتيجة متوقعَة: زوجتي اكتشفت قلقي، كما قلت، واستسلمت قبل الأوان، فبقيت وحدي و«النهاية». في ذلك الوقت، بعد مرور عقد من الزمن على غيابي، أو على عدم وجودي، أو على صراعي المحتدم مع قلقي الخاص، تلقيتُ في إسرائيل مكالمة من أبي كي يبلغني بأن أمي قد ماتت. كانت مصابة بالسرطان ولم أكن أعرف بذلك. فلم نكن نتواصل بالانتظام المفروض، فترحالي لم يكن يسمح بتحديد مكاني بيسر، وانتهى الأمر بوالديّ أن اعتادا واستسلما لصمت الهاتف وجرس الباب. تصادف حدوث هذين الموتين (زوجتي لم تمت، وإن كنت في لا وعيي أُفضل الاعتقاد بأنها ميتة)، أجبرني على العودة إلى المكان الذي نشأت فيه، إلى هذه النقطة الميتة، أمام هذه الصورة التي كانت فيها أمي ذات يوم، ولكنها لم تعد فيها، الصورة التي لم يكن لأبي

مكانًا فيها. عدتُ مثل سمك السلمون الذي يعود إلى المكان الذي ولد فيه كي يموت. ولكن قبل أن يحدث ذلك، وفي أواخر مراهقتي، كان عليّ أن أغادر حيّ بووم رتيرو بسبب الهنود. في الحقيقة، لم يكن لذلك علاقة بكوني يهوديًا، ولا بشتات اليهود، لأن أمي لم تكن أشكنازية مثل والدي، لا شيء من ذلك، وعليه فلم أكن مرتبطًا بأية مسألة تتعلق بالعودة إلى الأصول، بل على العكس: كنت دائمًا عث أحمر مصاب بالأرق، كما قال لي الدكتور غلاس ذات يوم. ولكن أثناء رحلة بحثي غير المجدية عن جذوري في الصحراء، فلنقل أنني كنت كذلك، وإن بشكل سرابيّ. هروبي متعلقًا كليًّا بهُنود الكومانشي، وبشكل أدق بانقراضهم، كما قرأت عن ذلك في أحد كتب التاريخ الذي أبهرني، بحيث لم أكن أتركه من يدي ولو للحظة واحدة، عندما كنت في العاشرة أو الحادية عشر من عمري. هرب والدي من المذابح المنظّمة في روسيا -أو هذا على الأقل ما كنت أعتقده، قياسًا على الفترة التي جاء فيها- وذهب للعيش في حيّ البووم رتيرو، كما لو أنه عاش فيه طوال عمره، كما لو أنه قد وِلد هناك، وتحديدًا في سرداب هذا المنزل في شارع براتيس، حيث كان يقطن الليتوانيون الذين استقبلوه بينهم. إنه لأمر معتاد بين المهاجرين: يعانون عندما يغادروا أرضهم الأولى، ثم يحتملوا البؤس ومعاناة عدم الانتماء للمكان الذي هاجروا إليه، وعندها، بين لحظة وأخرى، يُصبح هذا المكان عائدًا إليهم، وكأنه كان ملكهم دائمًا، وبعدها يبدأون برفض قدوم الآخرين، ويمقتون «الأجانب» (هكذا كانوا ولازالو يسمون السفارديم والمزراحي)، يجتمعون في ساحة البليتزيل لكي يعرفوا مَن جاء ومَن ذَهب، هل تم اغتيال الأرشيدوق فرنثيسكو فرناندو،

هل انتهت الحرب العالمية الأولى، هل اختفت بالفعل الإمبراطورية النمساوية المجريّة، ما هي الأخبار في صحيفة (أونذر شتايم/ صوتنا)، هل سيضعون حجر الأساس لنادي زوكونفت، إن كان هتلر قد غزا بولونيا، هل تم عقد اجتماع في النادي التروتيسكي أو حفلة رقص في شارع آيموريس، إذا كان بن غوريون قد أوفى بوعوده، وإذا ما كانت آل هيرشبيرغ قد انتقلوا إلى حيّ إيجينوبوليس أخيرًا. عندما خرج الأب من السرداب إلى الصالة، حيث كانت عائلة لوبابتش تستمع إلى أخبار العالم عبر الراديو، من السرداب الرطب في منزل شارع براتيس الذي كان يخزن فيه ربطات عنق بهدف تجفيفها بالمكواة قبل أن يبيعها في ساحة البطريرك في صباح اليوم التالي، عندما خرج الأب، لم يعد أي من جاموس البيسون يهرول على سطح كوكب الأرض، آنذاك كانت جواميس البيسون قد انقرضَت منذ زمن طويل. لقد حدث لها ما حدث للهنود الحُمر.

بعد حروب أُمة هُنود الكومانشي مع البيض، تم نفيها للعيش في محميّة في أوكلاهوما، وعلى خلاف طبيعتهم كرُحّل تحولوا إلى مقيمين، وشرعوا بزراعة الأرض على احتقارهم للزراعة والاستقرار. ولكن الهنود ظلوا يحلمون بمروج تكساس، حيث كانوا يمتطون خيولهم الوحشية ويصطادوا جاموس البيسون، كان ذلك قبل إبادتهم شبه التامة إثر هزيمتهم الأخيرة. آنذاك برز زعيم، اسمه كواناه باركير، هجين، ابن امرأة بيضاء تم اختطافها وعاشت بين الهنود. قدم كواناه باركير، المُولَع بفكرة الحرية، عِدة تنازلات، تفاوَض، أصبحَ خاضعًا أمام الرجل الأبيض، ذكيّ وبالغ الحكمة، كل ذلك من أجل العودة

إلى المُروج، ولكي يعود هنود الكومانشي ويصبحو (نيرميرنوه/ الشعب)، كما كانوا يسمون أنفسهم في لغتهم، وممارسة صيد جاموس البيسون على حواف الوهاد، تاركين أنفسهم على عواهنها، كان ذلك غاية مبتغاهم، العودة لركوب الخيل وشد رماح أقواسهم وتصويب بنادقهم لصيد تلك الحيوانات، التي كانت تمثل كل شيء بالنسبة لهم، ابتداءً بالثياب التي يرتدونها ومرورًا بالبيوت التي يسكنونها ووصولًا إلى طواطمهم الدينية والطعام الذي يغذون به أبنائهم. على هذا النحو، قطعَ هنود الكومانشي، بقيادة كواناه باركير، الولايات المتحدة الأمريكية عائدين إلى تكساس، في رحلة استغرقت أيامًا طويلة، حتى وصلوا إلى الإقليم الذي ولِدوا فيه، كسمك السلمون الذي يعود إلى المنبع كي يموت، مثلي، حيث عدتُ إلى بيت والديّ: ولكن، لماذا؟ عند وصولهم، وجد هنود الكومانشي سهلًا واسعًا مغطى بعظام جاموس البيسون التي زادت من بياضها الشمس. لم يكن هنا أي حيوان يهرول في الأفق، ولم تعد تُسمع ضجة القطعان، ولا الشعور باهتزاز الأرض معلنة عن قدومها. إن الحياة التي عرفوها لم تعد موجودة، وأمة النيرميرنوه الشجاعة لم تعد قادرة على العيش بهذا الشكل. امتطى الهنود خيولهم وعادوا مطأطئي الرؤس إلى محميتهم في أوكلاهوما، ماتوا هناك، ولكن سبق لهم وأن ماتوا منذ زمن، مع موت جواميس البيسون وأُسلوب عيشهم مع وجودها. أمر يشبه، تقريبًا، فيما لو نزع الرب كل محلات الماكدونالدز من بين كل هؤلاء الناس. وبالنسبة لأبي فالأمر يشبه اختفاء ساحة البليتزيل حيث يجتمع اليهود أيام الآحاد للدردشة. الساحة الصغيرة ما زالت هناك، ولكن حيّ البووم رتيرو، كما عهده والدي، قد اختفى كاختفاء جواميس

البيسون من المروج، وأخذ معه أيام الآحاد وصباحاتها. الدكتور غلاس، كان الشخص ما قبل الأخير في المغادرة.

أنا ابن وحيد. على الأقل هذا ما اعتقدته. إنه لأمر عسير شرح شعور أن تكون الابن الوحيد، ومع ذلك لم تكن أبدًا موضع اهتمام... شيء يشبه أن تكون حيوانًا منقرضًا أو هنديًا كومانشي مُبعَدًا عن جواميسه. عالم بدون ماكدونالدز. ربما عليّ أن أنام قليلًا، نعم (الأرق)، وأن أترك حياة عث الغبار الأحمر هذه. ما كان ينبغي لي أن أُفرط بتعاطي المُنشطات على هذا النحو، بدأتُ به كدواء للترشيق، وهَا أنا الآن: سمين ومصاب بالأرق. في البداية، وبعد عودتي إلى البيت، كان عملي كطبّاع يساعدني في الهروب من التزامات محل البقالة. إن مثولي يوميًا على مدار شهرين كاملين في محل التجارة العائلية، كان كافيًا لأدرك بأنني، لن أحتمل رفقة والدي العجوز الصامتة هذه لزمن طويل. إضافة إلى أنه لم يكن يعجبني مطلقًا العمل خلف منضدة البيع، لأن الزبائن عادة ما يظنون بأنني مجرد عامل: لا أشبه أبي في أي شيء. لاحقًا أدركتُ بأن نوبة الخفارة الليلية هنا في قسم الشرطة (مشغول أغلب الوقت بقضايا القبض على بائعي المخدرات، والعاهرات، والقوادين وسرقة السيارات)، كانت مثاليّة لمن يعاني من الأرق مثلي، للعث الأحمر والحشرات الليلية، وإن كان قد سبق اكتشافي لهذا الأمر، اكتشاف أسوأ، أنه في الحقيقة لم يعد بإمكاني النوم بعد سماع الحكايات التي تروى في عملي. ما يحدث في قسم الشرطة، رقم 77، يجعلك أكثر صلابة، نعم. حينها صرت أحكي لأبي في كل ليلة عما أسمعه، إلى أن يخلد إلى النوم. أن

تحكي له قصصًا مروعة إلى هذا الحد، لم يكن ليختلف عن أن تحكي له أية قصة أخرى، الفرق في مدى التأثير عليه كي ينام. والمثالي، لو أنها تؤثر عليّ أنا أيضًا، فأنام عند سماعها، ولكن لا شيء من ذلك، إنها تَطرُد النعاس فحسب، بفعل تأثير أقراص الترشيق. إن الحياة الروتينية لطبّاع يمكنها أن تكون مُضجرة جدًا. ثرثرات كثيرة لرجال الشرطة بحكم فائض الوقت. ليس كما هو عليه الحال اليوم، فكلهم في الخارج. بينما النوبة الليلة عادة ما تكون أكثر حركة، لذا اخترتها عندما نجحت في مسابقة وظيفة الطبّاع أو الكاتب، أو «المُكَتبِل كما يقول بعض المحققين». ولكن الذي حدث، أن حالة الوالد قد ازدادت سوءًا بعد عام من التحاقي بالعمل. في ذلك الوقت بدأَت اتصالات الدائنين. وفي مساء أحد الأيام، رن هاتف المحل. أجبتُ. وكان على الطرف الآخر، صوت حاد يسأل عن الأب العجوز. قلت بأنه ليس موجودًا وسألته عمن يريد التحدث معه. لم يجب. وعندما كررتُ السؤال قَطَع الاتصال. ذهبت إلى المطبخ في عمق المحل، كي استفسر عن ذلك من أبي، ولكنه لم يكن موجودًا. عثرتُ عليه في الحمّام أمام المرآة. كانت ذراعه اليمنى مطوية على بطنه مثل نادل يحمل منشفة ويسجل الطلبات، يتفوه بكلمات باليَديشية، لم أفهمها إلا بعد أن خرج من تلك الحالة، وعاد للجلوس على مقعده العالي خلف صندوق الحساب، فقط لحظتها، فهمت ما كان يفعله. لا بد وأنه يتذكر فترة عمله كبائع متجول، في شبابه، يبيع ربطات العنق في ساحة البطريرك. هكذا، بذراع مطوية ثابتة على بطنه، كان يعرض بضاعته للزبائن. إذًا، لقد استولى المرض على رأسه.

في المساء التالي تكرر الاتصال. عرفتُ الصوت الحاد ذاته، والذي يبدو وكأنه خارجًا من أبعد عمق في أنف، يسأل عن العجوز بالاسم واللقب، ناطقًا إياهما بشكل مضبوط جدًا. هذا اللفظ الصحيح كان نادرًا للغاية، ذلك أن لقبنا لم يكن شائعًا أيضًا، وهذا الاتصال لم يكن معتادًا هو الآخر، فتوقيته، المطابق تمامًا لتوقيت اتصال أمس، تصادف مع توقيت تناول العجوز لأكلَة العَصر، والتي أُذكّره أنا بها عبر كوب شاي المساء. تلك اللحظات، في أيام زمان الطيبة، كان معتادًا أن يمضيها في البيت، وهذا أيضًا لم يكن شائعًا. ولأن الصوت رفض مرة أخرى أن يُعرّف بنفسه أو أن يعطي أي تسويغ، طلبتُ منه أن ينتظر. وضعتُ السماعة جانبًا واتجهتُ إلى المطبخ، الذي تعالى منه صوت ضربة مكتومة. عند وصولي، وجدتُ العجوز مُمَدّدًا، ساقطًا على وجهه، فوق الأرضية الباردة، وذراعاه تحتضنان الفراغ. كان فاقدًا للوعي، ولازال بين أصابعه جزءًا من قنينة حليب. من خلال بقايا السائل حول فمه المفتوح، والتي جعلَت شعيرات أنفه تبدو أكثر بياضًا، لا بد وأنه قد شرب من القنينة مباشرة. قِستُ نبضه، ضاغطًا على رسغه الذي ما زالت عليه آثار خدوش شفرة الحلاقة. كان ضعيفًا، بالكاد يُحَس. صحتُ مناديًا على البوليفي، الذي تأخر إلى أن ظَهر، وعندما وصل الفتى لمراقبته، تذكرتُ الهاتف. الاتصال المجهول كان قد انقطَع. اتصلتُ بسيارة إسعاف. في صالة الطوارئ، أوضح لي الطبيب بأن العجوز قد نجا بأعجوبة، لأنه تعرض لجلطة في الشريان الرئوي بسبب زيادة في السوائل، وبواسطة أنبوب قسطرة، استخرجوا من رئتيه قرابة لتر من الحليب. لم يكن الطبيب يستوعب كيفية وصول كل هذه الكمية من الحليب إلى هناك. سألني عن الحالة النفسية

للمريض وإن كان ثمة أعراض غريبة يمكن الإبلاغ عنها. أوضحتُ له بأنه يعاني بعض الخَرَف، وحتى أنني حدثته عن حادثة شفرة الحلاقة. هز الطبيب رأسه موافقًا، تنحنح منظفًا حنجرته، وقال بأن هذا يؤكد تشخيصه، وبأنهم غالبًا ما يستقبلون كبار السن في الطوارئ بأعراض إكلينيكية مشابهة. وأضاف: إن إدخال كميات كبيرة من الحليب عبر مجرى التنفس، هو بديل عن الانتحار، شائع نسبيًا بين كبار السن في المدينة. تُعرَف باسم (الموت بالاختناق المنزلي/ م. اخ. م.) أو (مخازق) كما يطلقون عليها مازحين، في صالة الطوارئ. لم أستطع أن أفهَم مسألة تفضيل أشباه الانتحاريين للحليب، ففي نهاية الأمر، إن استنشاق الماء سيكون له التأثير نفسه... بلا شك، إن الطبيب أحمَق.

وصل تشخيص مرض العجوز متأخرًا جدًا، لسبب صغير للغاية: كان قليل الكلام، شارد الذهن إلى الحد الذي أن القريبين منه لا يستطيعون تمييز تقلبات سلوكه بسهولة. هذا الهدوء الذي يشكل ملمحًا من شخصيته، ازداد مع تزايد تقشف حياته (بعد أن تزوج بأمي، توقفت الجالية اليهودية في الحيّ عن الشراء من محل بقالته، والحسابات كانت تُنذر دائمًا بالخطر) وازداد الحال سوءًا بموت أمي، والذي تلاه موت الأصدقاء القليلين الذين هاجروا معه، كالدكتور غلاس، وموت الذين غادروا حيّ البووم رتيرو، ولم يعد يعرف أي شيء عنهم، إلى أن ظهرت أسماءهم منشورة في صفحات الوفيات، ولكن ليس في صفحات (الجريدة اليديشية لساو باولو)، وإنما على صفحات جريدة (لافويا) أو جريدة (الاستادو)، مما يشير إلى أن المتوفى قد ذاب في المجتمع البرازيلي. تضاعف صمت العجوز

مع توالي هذه الوفيات التي أثرت تدريجيًا على سكان الحيّ وبلغت ذروتها بانتحار الدكتور غلاس. فقده لمُجالسيه، وإن كانوا قلة، أتاح له العيش وكأنه في ثلاجة؛ لقد كان هذا الرجل باردًا دائمًا إلى حد اللعنة، سندويتش بصطرمة مجمد حقًا. إن موت الدكتور غلاس، قد غير ذلك بشكل ما. لم يكن أبي بارعًا بالكلام أبدًا كما كان عليه خلال محاولتيه الانتحار. المحاولة الأولى عندما حك ماكنة الحلاقة السخيفة، غير الحادة، على رسغه، والثانية عندما غص بالحليب عبر الثقب الخاطيء. ها هو هناك، يتحدث من خلال محاولات الانتحار الفاشلة تلك، يتكلم ويتكلم كما لم يفعل من قبل أبدًا، شلال حقيقي من الكلمات، ضوضاء استغاثة، أنبوب تصريف ينفجر صارخًا أن: كفى. خلاص، انتهت اللعبة، لا تحسبوا حسابي، مع السلامة. حتى ذلك الحين كنت أنا على استعداد لسماع كل ما يريد قوله، ولهذا خزّنت في كيس عميق، الكثير من الضغائن المتعلقة بعلاقة الابن بأبيه. كنت أجمعها منذ الطفولة، ربما منذ تلك المرة التي قطع فيها أبي الشارع إلى الجهة الأخرى عندما رآني أقترب. كان الوقت بعد الظهيرة، وأنا عائدًا من المدرسة مع أحد الزملاء، عندما رأيت العجوز قادمًا نحونا. يتقدم كما لو كان يستكشف في كل خطوة، بنعل حذائه، مساحة مجهولة، كانت هذه طريقته في المشي. عن بعد أشرتُ إليه بكل فخر، أُنظر، هذا الرجل الأبيض، الذي يشبه حائطًا تم تبييضه مؤخرًا، وطويل مثل لافتة محطة حافلات، هو أبي، هذا، قلت، قادم إلى هنا، أُنظر، ولم أكد أنتهي من لفظ كلمة أبي، إلا وكان العجوز قد عبر إلى الجهة الأخرى من الشارع. أوه، لم يُبدِ أية إشارة، لم يفعل أي شيء يوحي بأنه قد عرفنا، لا شيء. أوف. فقط عبر إلى الجهة الأخرى

من الشارع، وواصل طريقه، هادئًا، يُرى في الأفق شيئًا خارج نطاق رؤيتي، لأنني كنت حينها صغيرًا أكثر من اللازم. ولا أستطيع رؤية ما هو أبعد من مدى حافة الرصيف. أوه. ضحك زميلي قليلًا، ولكنه، بعد ذلك، وربما لأنه أشفق عليّ، قال: من المؤكد أنك قد أشتبهت بالأب. هذا الذي يذهب إلى هناك، لا بد وأنه والد شخص آخر. إنه لا يشبهك في أي شيء، ففي نهاية الأمر هو أبيض وأنت سارارا[2].

دائمًا بدا لي أمر غير مفهوم انتحار الدكتور غلاس... لأنه، كيف لطبيب أن يقتل نفسه! أي، بحبل، الدكتور غلاس شنق نفسه، لا أقصد الطريقة التي استخدمها، وإنما السبب الذي دعاه لفعل ذلك، شيء لم أستطع فهمه أبدًا: لماذا قتل نفسه في عيد ميلاده المئة ذلك العجوز البشوش، الطبيب العام الذي كان يعالجني منذ طفولتي في عيادته، التي توقف فيها الزمن (الأثاث نفسها منذ ما لا يقل عن خمسين عامًا، وتلك الزاوية من الكرسي التي تمزق عندها جلد التغليف وتُوخز أفخاذنا)، ما الذي دفعه إلى الانتحار؟ بالنسبة لي لا يمكن استيعاب أن طبيبًا، يُفترض به أن يكون حريصًا على تجنيب الناس الموت، إضافة إلى كونه رجل في المائة من عمره، نجا من حربين عالميتين، الانفلونزا الاسبانية، السل، الأزمة الاقتصادية، موت زوجته وابنه البكر في حادث سير، الطبيب الذي هاجر من بلده (أظن بأنه عاش في نيويورك عدة أعوام في شبابه)، هاجر من قارته، من طرف العالم إلى طرفه الآخر، كيف لشخص كهذا أن يذهب إلى عيادته الخاصة، صباح يوم أحد، يربط بهدوء حبلًا في الهيكل الحديدي للسرير، حيث

(2) (سارارا) كلمة تشير إلى الخلاسيين الذي شعورهم شقراء أو حمراء.

عالج آلاف المراجعين أو لا أدري كم، على مدى أكثر من نصف قرن، ومن بينهم أنا، ثم يعلق نفسه من رقبته!)، إن انتحار طبيب عام يبدو لي بمثابة نهاية كل أمل، ولكن بالنسبة للعجوز، قد لا يعني ذلك شيئًا، لأنه في كل المساءات، في الفترة الأخيرة، كان على الدكتور غلاس أن يجيء إلى البقالة مجدِدًا صداقته بلا نهاية: مرحبًا، أنا الدكتور غلاس، ربما لا تتذكرني، ولكننا أصدقاء منذ أكثر من ثمانين عامًا، إنه لأمر جيد دائمًا التعرف عليك مرة أخرى، اعطني يدك، تشرفنا. وفي نهاية المحادثة، العجوز -مدفوعًا ربما بشعور من الكرامة، التي لم يستطع تدهوره البدني محوها تمامًا- يتظاهر بأنه يتذكر أحداثًا هي لم تحدث بالأصل، مختلطة بفترات صمت طويلة، والتي تجول خلالها عينيه في الفضاء بحثًا عن إجابات. وانطلاقًا من هذه النقطة يستعصي عليّ الفهم جيدًا. ولكن الدكتور غلاس يغمزني بعينه بين حين وآخر، موحيًا لي بأن كل شيء سينتهي على ما يرام، محاولًا تهدئتي. ابتسامته المريحة تلك، تجعلني أتذكر زياراتي إلى عيادته، في جادّة ريبيرو ليما، عندما يفحصني ويطلب مني أن أزفر بقوة على جلد ذراعه. لم أفهم أبدًا لماذا يجعلني أقوم بهذه التجربة، هل كان يختبر قدرتي على نفخ البالونات في حفلات أعياد الميلاد؟ أو ربما للنفخ في لعبة الأنبوب الذي يطلق السهام؟ وكلتاهما كانتا نشاطات أساسية لفتى -كهندي أحمر- مثلي لم يصل مرحلة البلوغ بعد.

كانت أمي هي التي تأخذني إلى العيادة، كتلك المرة التي ذهبنا فيها لكي يعالجونني بعد أن تعاركتُ مع الزميل الذي قال لي «سارارا». كانت هي جالسة في صالة الانتظار، بينما الدكتور غلاس

يضع السماعة الباردة على صدري ويحكي لي قصصًا، من الأسفل كنت أرى ذلك الأنف العظيم بتفاصيله، وفي الوقت نفسه أتخيل تلك الغابات الصنوبرية في القصص التي يحكيها، غابات مغطاة ببياض الثلج ومحتشدة بالأدغال، التي كانت تتدلى على جانبي ممرات سكك الحديد، والتي تحمل عربات القطار عبر نفق بيووو، هاربة من مطاردة عصابة من هنود الكومانشي وهم يحملون أسلحتهم الجاهزة للهجوم، كانوا يهربون راكضين داخل مخيلتي، إيا إيا آيو، سيلفر. كان الدكتور أول من حدثني عن الهنود الحمر في شمال أمريكا. يعجبه أن يهديني أعدادًا من سلسلة بونانزا للقصص المصوّرة، ويتذكر أيضًا بعض المغامرات التي عاشها بصحبة أبي، عندما كانا صبيان. قال الدكتور غلاس: كان والدك شخصًا سريع الغضب منذ صغره، في الحقيقة، لا أحد يعرف من أين جاء والدك. ما أعرفه هو أنه كان على متن السفينة التي ركبتها مع أسرتي خارجين من مدينة بريمن سنة 1920. نعم، أعتقد بأنه كان هناك بالفعل، ذات يوم كنت ومجموعة من الأطفال على سطح السفينة عندما ظهر لنا والدك من اللاشيء. واستطرد الدكتور. كان وحيدًا بلا رفقة أي شخص كبير. بدا وكأنه حيوان متوحش صغير، قط جبلي شارد، وقد وقع في البحر. كان يمضي الوقت متقافزًا من حافة سياج إلى أخرى. أقمت صداقة معه، لا أستطيع القول بأنها كانت صداقة متبادلة حينها: منذ طفولته، كان والدك يتواصل بكلمات قصيرة. أشفق عليه والداي، منحاه الطعام والثياب. كانت الرحلة طويلة. أمي تقول بأنهم قد قتلوا عائلته في مذبحة في قرية صغيرة على سفح جبال آلتاي في روسيا. بعد مضي شهر على مغادرتنا، وعند وصولنا إلى ميناء سانتوس ومن ثم إلى

محطة لوث، اختفى والدك لفترة من الزمن. وبعدها بشهرين عرفنا بأنه كان يعمل مع الباعة المتجولين في ساحة البطريرك ويعيش في سرداب بيت عائلة ليتوانية. في ذلك الزمن، كان حيّ البووم رتيرو مُزدهرًا. كنا نذهب في الصباح الباكر إلى المدرسة. وفي الفطور نتناول الموز الذي كان فاكهة مجهولة بالنسبة لنا نحن القادمون توًا. عدا أن شكلها كان مضحكًا ولها تلك القشور التي نستمتع بنزعها. لن أنسى أبدًا أول مرة رأيت فيها الموز: بدت لي وكأنها الشيء الأكثر كمالًا في الطبيعة، فقط يمكن مقارنتها بالبيض. كنا نلعب الكرة بعد الذهاب إلى مدرسة شوليم آليخم. هناك ملاعب في المساحات القريبة من ضفة النهر، وفي منتصف الطريق، في شارع غواراني، كنا نرى بائعي الأحذية الإيطاليين بشواربهم الكثة. أحدهم علمنا كيف نصنع لعبة سلاح من العصي ومن مقابض المظلات. نصطاد عصافيرًا وهنودًا هناك على ضفة النهر. في ذلك الوقت، كان بالإمكان السباحة فيه، حقًا. شوارع حي البووم رتيرو تفوح بروائح معجنات طازجة وخبز في التنور. عندما كنا نعبر سكة الحديد للذهاب لرؤية الجنود المخيمين في محطة جوليو بريستس على الجانب الآخر، أظن في عام 1924، كنا نعي بأننا نذهب إلى الحيّ من أجل الاستمتاع بشم روائح الطعام الممزوجة بدخان القطار. ذات مرة رأينا شخصًا مجهولًا يعاني من نوبة صَرع أمام حمّام شفيتز العمومي، حمّام تركي في شارع تَنَيَته بينا. حملوا الرجل إلى الداخل وهو مغطى بلعابه، ثم ذهبنا لملاحقة عربات الترام حاملين أقواسنا والسهام، ولصيد جاموس البيسوم على شاطيء النهر. فجأة، كبرنا، في ساحة البليتزل الصغيرة صارت تقام حفلات عقد القِران، وهكذا كان حفل زواجي، وليس زواج والدك،

الذي اقترن بامرأة ليست يهودية، كان قد رآها تغني ذات ليلة في ملهى في شارع توكانتينس. وكانت أول مرة أسمع جملة بأكثر من كلمتين تخرج من فمه، هي عندما حاول أن يصف صوتها لي. وها هي الآن هناك في الصالة تنتظرك، أليس كذلك يا بني؟ أليست جميلة حقًا؟ عندما عدت، بعد إنهائي دراسة الطب، وجدتهما قد تزوجا. ثم قامت الحرب العالمية الثانية. في ساحة البليتزل، لم يكن هناك موضوع حديث آخر: مَن هرب من الحرب، مَن مات. سحابة ضخمة سوداء تطوف فوق الحيّ على مدى أعوام، وليس ثمة مطر يحملها بعيدًا. كان الناس يسيرون مطأطئي الرؤوس في الشوارع حاملين على كواهلهم المبللة ثقلًا كبيرًا. ذات يوم، جائتني أمك حامل. فحصتها، لم أتبين الأمر جيدًا. وعندما دنى وقت الولادة، اختفى والداك. كان ذلك وقت انتهاء الحرب بالضبط. غابا عن شقتهم التي فوق محل البقالة، والتي كانا يعيشان فيها معًا. أغلقا المحل الذي كانا قد افتتحاه منذ وقت قصير، دون أن يتركا أية إشارة على الباب. لا أحد يعرف عنهما شيئًا، كما أن ثمة الكثير من الناس الذين فرحوا باختفائهما، فلم يكن يروق للجميع أن يتزوج والدك من امرأة ملونة. ذهبت للبحث عنهما عدة مرات دون جدوى. لا أحد يرد على جرس الباب. تحوّلت أوروبا إلى خراب كبير، والغبار الذي يأتي من هناك يزيد من سواد السحابة الطافية فوق الحيّ. في ذلك الوقت كان سيان أن تقول «هتلر» أو «موت». كان الجميع تعِسون. ذات ليلة بدا لي أنني رأيت النور في نوافذ شقة والدك. قرعت الباب ولم يرد أحد. وبعد مرور سنة عادا معًا وكأن شيئًا لم يكن. وحسب ما افترض الناس، فإن أمك قد فقدت الجنين. آنذاك لم نتطرق إلى الموضوع، ولكن، فيما بعد، والدك شرح

لي كل شيء. عندها كانت الحرب قد انتهت، وإن لم يعد العالم كما كان أبدًا. حدثٌ شبيه بما جرى مع الهنود، حين رحلَت الجواميس ولم يبق سوى صوت الرياح بين الأعشاب الجافة. لا شيء سوى ذلك، لا شيء سوى ذلك. هكذا ردد الدكتور وبقي صامتًا لبرهة طويلة. بعدها أمرني بالذهاب، مربتًا على ظهري. عندما أصبحت على الرصيف الذي أمام العيادة، منتظرًا أن تنتهي أمي من ربط المنديل حول رقبتها، خرج الدكتور غلاس مسرعًا وأهداني الكتاب الذي يروي قصة شعب الكومانشي ومغامرات كوناه باركير. فرحت كثيرًا. كان ذلك عام 1965. وعمري قرابة العاشرة أو الحادية عَشرة سنة.

في اليوم التالي سمحوا لأبي بالخروج من المستشفى فعدنا إلى البيت في تاكسي. من نافذة السيارة، وعند المرور في منطقة محطة لوث، وبينما كان هو يتقصى نقطة ميكروسكوبية في رقبة السائق، كنت أنا أرى ظلال المدمنين حاملين بطانياتهم وساحلين أطرافها في الشارع، فيما ترى من خلالها شُعلات قداحات السجائر التي يوقدونها ويطفئونها، يوقدونها ويطفئونها... وكأنها قلوب تنبض في العتمة أو نجوم تتلألأ في سماء دامسة الظلام. أرصفة كاملة مغطاة بشبكة من الأعضاء، أذرع وسيقان وأعناق لجسد واحد لا بداية له ولا نهاية. مجموعة من رجال الشرطة كانت تراقب هذه السجادة البشرية عن بعد، هراوات في الأيدي تدفعها نحو الجهة الأخرى من الساحة، ولكن أية جهة؟ عرفت بعض الزملاء الذي من مركز الشرطة 77، فما الذي يمكن أن يكون في الجهة الأخرى؟ مَخرَج أو هاوية يمكنهم أن يقفزوا إليها جميعًا؟ محطة القطار كانت خارج الخدمة،

لن تأتي أية عربة لحملهم. مركز تجمعهم كان هناك بالضبط، على مرأى من الجميع، في مركز المدينة. فجأة أنفجرت قنبلة غاز مسيل للدموع، تشتت المدمنون وجاءوا مهرولين نحونا، معرقلين طريق مرور التاكسي. تمكنت من تفحصهم من قرب، كما لو كنت في حديقة الحيوانات أراقب الأقفاص. وجوههم أقنعة مشوهة بفعل الخوف والغضب، ثيابهم قذرة، جلودهم سوداء بسبب الزيوت والسخام. اقترب أحدهم، ألصق عينيه بالزجاج وعرض علينا لثته في النافذة المجاورة لأبي، الذي قابله بلا مبالاته المعهودة. تعارفت، على الفور، عيونهما عبر الزجاج، ولوهلة فكرت بأنه في حقيقة الأمر لم يكونوا هم المدمنين المحبوسين خلف قضبان حديقة الحيوانات، وإنما نحن، خلف الزجاج والأبواب المغلقة. ابتعد المدمن عن السيارة، ثم جلس القرفصاء وتغوط في مجرى تصريف المياه. عندما وصلنا إلى البيت، كانت هناك رسالة صوتية في مسجل الهاتف، بالصوت الرجولي الحاد ذاته، صاحب الاتصالات السابقة. يقول أنه يتحدث من طرف شركة إدارة موارد بشرية. وعليه أن يتكلم مع والدي بشأن التعثر بالدفع. لم يترك رقم هاتف، ولكنه سوف يعاود الاتصال. بعد سماعي للرسالة، نظرت إلى العجوز بأمل ضعيف في أن توقظ فيه الرسالة، على الأقل، صحوة كافية ليشرح لي ما الذي تعنيه تلك المدفوعات المُلحة. قدته إلى الحمام، أجلسته على كرسي ورحت أنظفه على مهل، بماء دافيء وصابون. عندما دلكتُ رسغه بالإسفنجة، بدت آثار الخدوش أكثر وضوحًا، داكنة الزرقة، سقوطه الأخير في المطبخ ترك عدة كدمات على أضلاعه وفي ذراعيه. قارنت بين جلدي الأحمر وجلده، وتساءلت للمرة المليون، كيف يمكن أن

يكون هذا أبي؟! نظر إليّ بلا مبالاة، وعندها أدركت بأنني تساءلت بصوت مسموع. ساعدته على المشي حتى غرفة نومه، وقدمت له قدحًا من الماء مع قرص الدواء. بعد أن تمدد في فراشه كالليالي السابقة، طلب العجوز مني أن أحكي له قصص حيوانات. قال: إحكِ لي قصصًا، إحكِ لي تلك القصص عن الحيوانات... وكان هذا كل ما قاله لي خلال اليوم.

2

عالم الحيوان:
الصوت البشري

1

هذه الليلة سيُتمان عامين ونصف دون الخروج من البيت. وضعت السيدة (إكس X) الغذاء في الكيس، نزلا السلّم وصعدا في سيارة أجرة. عبر النافذة أشارت إلى القمر الكبير خلف الأشجار. لم تَرَ (المَخلوقة) جلدها أبدًا تحت نور طبيعي مباشر إلى هذا الحد. بيضاء وجافة بدت جروح جلد كفها الظاهرة... كأنها شُفيت، مع أنها جراح حديثة. ساروا بصمت عبر شوارع وحدائق فارغة بينما الغيوم تغطي القمر. كان الجو باردًا إلى حد ما. قبل ذلك بقليل، وعند الدخول إلى السيارة المركونة في المرآب، أمرت السيدة إكس سائق سيارة الأجرة بالتوجه إلى نوكتوراما، القسم الجديد في حديقة الحيوانات بالمدينة، المخصص للحيوانات الليلية. ودون أن يُبدي أي تأفف أو اعتراض على استقباله اتصالًا في تلك الساعة المتأخرة من الليل، انطلق الرجل بسيارته، وبعد أن أصبحوا في الطريق، فكر بأن الحياة هي عبارة عن نوتة موسيقية يؤديها عازف بيانو مقطوع اليد أمام جمهور من الطُرشان. الاثنتان، السيدة إكس والمخلوقة، سيشكلان جزءًا من سيمفونية تلك الليلة، كما أكد سائق السيارة في إفادته. كانا النغمتان الضائعتان اللتان عادتا أخيرًا إلى دارهما. آنذاك، شكرت السيدة إكس الرَب على فرصة التنزه مع المخلوقة للمرة الأخيرة، بعد مرور زمن طويل جدًا أنساها حتى مم تتكون السماء والغيوم والأرض في الخارج. محرك السيارة لم يكن يُصدر أيّة ضجة، مما زاد من شعورهما بأنهما ثابتتان، متجمدتان بفعل هواء الليل. سحبت المخلوقة طاقيتها الحمراء قليلًا، كاشفة عن جبهتها كي ترى أفضل

الانعكاسات في عتمة الأسفلت الذي كان أملس... إلى الحد الذي يمكن معه رؤية التماعات النجوم على سطحه. وبعد لحظة انتبه السائق، عِبر المرآة، إلى أن المخلوقة كانت تحدق به. ومجرد رؤية جزء من جلد وجه المخلوقة، كانت كافية لتبث القشعريرة في بدن سائق التاكسي، الذي سارع بتحويل نظرته عنها. قفازان من الجلد الأسود، شَعر منفوش، هكذا وصفها. عينان بلون الدم. تصاعد صوت مقطوعة موسيقية لإيريك ساتيه عبر المذياع. ألحان البيانو تتناغم مع حركة السيارة عبر الشوارع شبه الفارغة، والمضاءة بنور القمر، بين أبراج سوداء لبنايات مطفأة الأنوار. وأثناء عودة المخلوقة لتغطية رأسها والغوص في الجزء المظلم من المقعد الخلفي، لاحظت السيدة إكس رعب الرجل. لاحقًا، عندما مثل أمامي للإدلاء بإفادته، تذكّر بأنه في تلك اللحظة، كان قد تضرع إلى الرب أن لا تجلب له هذه النزهة الليلة في حديقة الحيوانات المزيد من المشاكل.

منذ أقل من شهر، بدأت حديقة الحيوانات في ساو باولو بتنظيم رحلات ليلية في المتنزه الجديد، ففرحت السيدة إكس فرحًا شديدًا عندما تلقت هذا الخبر في التلفاز. كانت فرصة نادرة للتنزه مع المخلوقة، أو كما أكدت «هديّة من السماء، أتت في اللحظة المناسبة» فهي لم تعد تطيق المزيد من الاصطبار. وبلا تردد اتصلت بالهاتف المُعلن عنه في نشرة الأخبار، وتمكنت من حجز تذكرتين ضمن أولى الزيارات للحديقة. ضربة حظ، إشارة حقيقية إلى أن الرب يحرسهما، عناية إلهية فعلًا. أوجدت حديقة الحيوانات هذا القسم الليلي الجديد (نوكتوراما)، لكي يتمكن الزوار من التواصل المباشر

مع الحيوانات ذات العادات الليلية، بالإضافة إلى حيوانات أخرى، في أحوالها الطبيعية، تعيش في النهار، مثل نمر الثلوج الذي فقد رفيقته وأُصيب بالاكتئاب. ومن خلال نشرة الأخبار، اكتشفت السيدة إكس أن هناك حيوانات تعاني من خلل في السلوك، لا يختلف كثيرًا عما يعانيه البشر، وصارت تعيش في الليل. العزلة الطويلة، ومقتها للزوار الذين يرتكبون ضدها بشاعات طوال الأيام اللعينة، إضافة إلى عوامل أخرى... تسببت بتغيرات غريبة لدى تلك الحيوانات. فعلى سبيل المثال، قبل أن يُصاب نمر الثلوج بالاكتئاب، كان قد أظهر سلوكًا عدوانيًا، بشكل خاص، ضد الأطفال الذين يماثل حجمهم حجم المخلوقة. النزهة الليلة، عبارة عن ثلاث ساعات من المشي بين الأقفاص في وسط الأدغال. لأن الهدف الرئيسي من إيجاد قسم (نوكتوراما) هو لاستحضار مناخات رحلة في الطبيعة البدائية. على أن هذا القسم الجديد من الحديقة، لم يكن بعيدًا جدًا عن المنطقة السكنية. ليس من المسموح استخدام المصابيح اليدوية، أو الهواتف المحمولة أو أي جهاز آخر يُصدر ضوءًا صناعيًا، فيما يُسمح بالتقاط الصور بدون فلاش. ثمة أمر واحد في النزهة الليلية كان يقلق السيدة إكس، وهو ردود أفعال بعض الناس عند رؤيتهم للمخلوقة، فذات مرة، تصرف الناس بشكل سيء حيال وجود المخلوقة، حيث اعتقدوا بأنها هناك للترويج لأحد أفلام الرعب الجديدة، وفي مرة لاحقة حدث موقف مشابه لهذا بخطورته، في إحدى ساحات حيّ إيجينوبوليس. في المرة الأولى كانت المخلوقة صغيرة، وعليه فربما لا تتذكر منها شيئًا، إلا أنه في موقف الساحة الذي حدث منذ عامين، كانت المخلوقة أكبر قليلًا أو على الأقل هذا ما بدت عليه، وقد أثار

فزعها ذعر جمع العجائز اللاتي كن يُطعمن القطط هناك. إن إشارات السيدة إكس إلى عمر المخلوقة، ما هي إلا مجرد افتراضات لديها طبعًا، فهما لم تخرجا إلى الشارع منذ زمن طويل، الأمر الذي يربك مقياسها للزمن. لقد حماهما الرب ولكن كان بإمكانهما تجنب هذا النوع من الاختبارات. تعتقد السيدة إكس بأن الرب لا يتوانا عن إغاثة أي أحد، وإن كان يود ألا يضطروا للاستغاثة به. وتَمتَمت بصَلاة أخرى، فقط لأنها كانت تؤمن بذلك إيمانًا شديدًا.

منذ زمن طويل، تخلت السيدة إكس عن التفكير بتبعات اقتصارها على العيش ليلًا وحسب، فكما صرّحَت، بأنها وبعد قبولها بوجود المخلوقة تحت مسؤوليتها، راحت عاداتها النهارية تتغير تدريجيًا، كما حدث مع الحيوانات في (نوكتوراما)، وفي نهاية الأمر تكيفت مع وضعها الجديد. في البداية كانت السيدة إكس تحن إلى الأماكن المضاءة، كضفاف البحيرة القريبة من بيت عائلتها في الصِغر، أو شاطيء البحر الذي كان يروق لها زيارته في كل شتاء. وصارت تحلم بهما باستمرار. ولكن الإنسان قادر على التكيف مع كل شيء في هذا الحياة، كما تقول. بل وتؤكد أن بمستطاعها أن تتحمل صعوبات أكبر من هذه، بشرط أن تبقى محافظة على إيمانها كي تحقق ذلك. إن المواظبة على الصلاة لم تقوي من إيمانها بالرب وحسب، وإنما ساعدتها أيضًا في تحسين قدرتها على التركيز. فعلى سبيل المثال، كانت السيدة إكس، منذ طفولتها، تعاني من صعوبات في القراءة أو حتى بمشاهدة فلم كامل في التلفاز. بشكل ما، إن العيش في الليل فقط، قد زاد من سكونها الروحي، وأن مجرد تقييد الحركة، خفف

من تلهفها للخروج خلال اليوم، وحتى من رغبتها برؤية أشخاص آخرين، ولكي يحدث شيء كهذا، كان لا بد من مراقبة التغيرات الفيسيولوجية للمخلوقة، فعند تأمل ذلك، أدركت السيدة إكس بأن الرب لا يستعجل ولا يَقبل باليأس. مسكين مخلوق الرب هذا، مسكين. وبحكم محدودية حركتها اليومية، كانت المخلوقة، التي أوكلت إليها مهمة رعايتها، تحب القراءة. تمضي مساءات كاملة غارقة في الكتب. تتمتع بعادات قراءة ناضجة إلى حد كبير بالنسبة لكائن لا يزيد طوله عن متر ونصف (وفقًا لاستقصاءات الشرطة، طولها متر وخمسة وعشرين سنتيمتر، ووزنها خمسة وثلاثين كيلو غرام). بالنسبة للسيدة إكس، كان الأمر غريبًا؛ تَنَاوُل كتابًا غير الكتاب المقدس، ولكن حتى هذا الأمر قد تغير خلال تكيفها مع المواقيت الجديدة. في المساءات الشاغرة وبينما ترتاح المخلوقة أو تختبيء تحت الأريكة، في عشها المليء بالشَعَر، بدأت باستكشاف مكتبة المنزل الكبير، والتي تكتظ رفوفها بشتى أنواع الكتب، بعضها بلغات لا تعرفها السيدة إكس، وكانت تحرص على تنظيف الرفوف على مدى شهور. من بين أعمال عديدة غير مهمة، بل وأن بعضها إلحادي، اكتشفت الموسوعة الخاصة بعالم الحيوان.

تتكون الموسوعة من تسعة مجلدات. طبعة إنكليزية تعود لعام 1910 وبورق مهتريء يكاد يتفتت عند لمسه. وحسب أقوال السيدة إكس في إفادتها فهي تجيد اللغة الانكليزية، حيث أنها تخصصت بمعالجة المرضى الميؤوس من شفائهم في أحد مستشفيات مدينة مانشستر في إنكلترا. كان شرطًا أساسيًا لعملها معرفة الإنكليزية لأن

المخلوقة لا تفهم البرتغالية، وفي المرات القليلة التي كانت تتواصل فيها معها، يتم ذلك بواسطة قصاصات ورقية صغيرة تكتبها بصعوبة بالغة، ساندة قلم الرصاص في ثقب في قفازها الجلدي المصنوع خصيصًا لذلك. المخلوقة لا تستطيع الكلام أبدًا. ومن خلال قراءة تلك الكتب المغبرة، استطاعت السيدة إكس أن تكسر الحاجز بينها وبين هذا الكائن الذي أُسندت إليها مهمة رعايته. كانتا تجلسان تحت ضوء المصباح الوحيد في المكتبة، وتتحدثان بطريقة المخلوقة الصامتة، عن الحيوانات التي يكتشفانها تباعًا كلما تقدمتا في القراءة من مجلد إلى آخر. ولكثرة الكتب التي كانت تقرأها المخلوقة ليلًا، لم تستغرب السيدة إكس معرفتها المسبقة بكل أنواع الحيوانات تقريبًا، ومع ذلك، فإنها لم تكن قد قرأت كل الموسوعة، وسرعان ما وجدت السيدة إكس طريقة لمعرفة المحتويات التي تجهلها. كان للمخلوقة اهتمامًا وتفضيلًا خاصًا للحيوانات النادرة، والتي تبدو منسية من قبل الشرائع الإلهية، كخُلد الماء مثلًا. الذي تشك السيدة إكس بأنه صنيعة طبيعية للرب، بحكم هذا المزيج بين البط والثديات، ولكنها حرصت على عدم إظهار استنكارها لهذا الكائن المسخ، الذي تشك بوجوده أصلًا، وخاصة أمام المريضة التي في كنفها. آنذاك، كانت أولويتها الرئيسية هي التقرب من المخلوقة، والتي تعززت ثقتها بنفسها عند اكتشافها أن خُلد الماء لديه عادات ليلية مثلها.

إن الطريقة التي اتبعتها السيدة إكس لتتبين أي من صفحات الموسوعة لم تطلع عليها مريضتها (المخلوقة)، كانت طريقة فريدة وموفّقة، فعند إعادتها لمجلدين تركتهما المخلوقة تحت الطاولة، في

الليلة السابقة لاكشافها، لاحظت وجود قطع مبعثرة من جلد بشعيرات غليظة، ملطّخة ببقع دماء جافة، بين الصفحات المقروءة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

عندما لا تقرأ المخلوقة ليلًا، كانت تبدو منجذبة نحو الشباك الواسع للصالة. بإمكانها أن تبقى جامدة أمام زجاجها لساعات طويلة... وكأنها تراقب دوران الحشرات المحتضرة حول مصابيح الحديقة، وإن لم يشغلها ذلك، تنسحب متبرمة إلى حجرتها في الطابق العلوي للمنزل القديم، في حيّ البووم رتيرو، وفي تلك المرات، كانت السيدة إكس تشعر بالوحدة في المنزل الكبير. ذات مساء، فتحت باب غرفتها قليلًا لمراقبتها فأبصرتها منشغلة بلُعَبها وحسب، لُعَب بالغة القِدم كالكتب المركونة في الرفوف، وتُتَمتِم بنَغمات تشبه أغاني بلغة حنجريّة لا أحد يتحدثها في أية بقعة من العالم، ولكي لا تزعجها، كانت السيدة إكس تبتعد متمشية في الممرات، وتتأمل صورًا مؤطرة ليهود، تغطي مساحات كبيرة من جدران الحجرات الرئيسية. صورهم وهم محنطين بثيابهم الأرثوذكسية كانت تثير في نفسها الغثيان، لأنها تربط رؤية هذه الأنوف المعقوفة والقبعات العريضة بصور لمحاكم التفتيش سبق لها وأن رأتها. كل شيء كان معتمًا في ملامح هؤلاء الأشخاص الموتى منذ زمن طويل، والمجلَّلين بثياب أشد سوادًا من الدهر نفسه. في عدة غرف من المنزل الكبير، يمكن العثور على بعض الأثاث ذات الطابع الديني، وهذا ما كان يزيد من غثيانها.

وحسب ما جاء في إفادتها، فإن من تعاقدوا مع السيدة إكس لرعاية المخلوقة، كانوا أقربائها أو ربما أوصياء عليها، وصلوا إليها عن طريق خدمات شركة متخصصة بالموارد البشرية عالية المستوى. كون السيدة إكس تتمتع بمعرفة جيدة بالشؤون الإدارية وتخصُّص بالتمريض، فقد أمضت جل حياتها وهي تساعد أناسًا يعانون من أمراض خطيرة، كمرض المخلوقة، أو تعالج مرضى ميؤوس من شفائهم، هو ذا تخصصها. ولكنها، لم يسبق لها وأن عملت أبدًا على رعاية مريض صغير جدًا إلى هذا الحد، وهي التي طالما رافقت حتى الموت مرضى عجائز ووحيدين وأثرياء، ممن فضّلت عائلاتهم توظيفها هي على قيامهم برعايتهم بأنفسهم، وكل ذلك تهربًا من التعايش معهم. ولكن هذه هي أول تجربة لها مع كائن ذي هيئة محيّرة بفعل تأثيرات المرض. أقارب المخلوقة، ربما أجدادها أو عمومتها أو ربما أقارب أبعد أو مَن يملكونها (لم تكن السيدة إكس متأكدة من ذلك تمامًا)، قالوا للشركة التي تولت التعاقد معها بأنهم مضطرون للسفر لشؤون لا تحتمل التأجيل في الصين أو في روسيا. أو على الأقل، هذا هو ما أخبرتها به موظفة الشركة. نعم، في روسيا؛ كانوا من روسيا، إنها على يقين من ذلك (على حائط، كانت هناك راية حمراء وفيها صورة لنسر برأسين). وبما أن مرض المخلوقة لا يُمكّنها من مرافقة أقربائها، كانوا بحاجة لخدمات مدبرة منزل ذات معرفة وخبرة بالتمريض، وأن تكون هذه المتخصصة محل ثقة تامة، علمًا بأنه من المستحيل تحديد تاريخ انتهاء رحلة العمل تلك، لأن المتعاقدين معها كانوا متوقفين على طرف ثالث كي يتمكنوا من وضع تاريخ بعينه. وبالطبع فإن مدبرة المنزل لا يُفترض أن تقلق بسبب هذا

الأمر، لأن الشركة المتعاقدة سوف تتولى ضمان توفر المال الكافي لتسيير شؤون منزل البووم رتيرو. ولكن، ثمة شرط أساسي، وهو عدم إخراج المخلوقة من المنزل تحت أي ظرف كان، وذلك بسبب طبيعة مرضها، كما يجب عدم تركها وحيدة، وهذا سوف يمنع السيدة إكس من الخروج، والتي لم تعرف أية معلومات دقيقة عن حقيقة وجود أقرباء للمخلوقة.

عندما تكون السيدة إكس بين اليقظة والنوم، قبيل الفجر، تتذكر ذلك البيت الذي ولدت فيه وأمضت طفولتها مع والديها. والذي عادت إليه للمرة الأخيرة، بعد تخصصها بطب المسنين ورعاية المصابين بأمراض نادرة. ذلك البيت الواقع على ضفاف بحيرة صناعية في سلسلة جبال سيرّا نيغرا. ذكرى صارت مشوشة، كأنها مستوحاة من أحد أحلامها. كان والداها مسنان، إلا أنهما يواصلان حياة نشيطة. والدها فلاح سابق، ظل يحتفظ بعادات شبابه كزارع للطماطم ويرعى بهمة حديقة الدار. والدتها، وعلى خلاف ابنتها، كانت ثرثارة أكثر من اللازم، مما يرهق السيدة إكس نوعًا ما، والتي نظرًا لانعزالها وندرة خبرتها الجنسية، ظلت تُسمى بالآنسة إكس لزمن طويل. (اعترَفت بذلك للطبيبة النفسية التي تتابع حالتها). وعدا أنها قادمة من طفولة محافِظة أصلًا، فإن السيدة إكس صارت أكثر صمتًا بعد مرحلتها الإنكليزية. عملها اليومي في المستشفى، جعل من هذا الصمت المميز لها أكثر حدة، واتساعًا وعمقًا... كان صمت ينسج شِباكه حولها، يُغلفها، مهيمنًا على كل مساحات حياتها، حابسًا إياها ومعزّزًا من إيمانها في الوقت نفسه. ولكن، ذات يوم، بعد شهر من

عودتها تقريبًا، تمكنوا من تشخيص مرض والدها الذي كان يعاني منه في الشهور الأخيرة: السرطان، فالمواد الكيمياوية الزراعية التي استخدمها على مدار سنوات طويلة، جعلته يدفع الثمن غاليًا. قال والدها متهكمًا حينها، بأن لديه ورمًا بحجم حبة الطماطم في معدته. عند استقبال ذلك الخبر السيء لاذت الأم بالصمت أخيرًا، ومنذ تلك اللحظة، تسارع التدهور البدني لزوجها في غضون أسابيع قليلة، فقد تأخر اكتشاف المرض. حينها، شكرت السيدة إكس الرب على عودتها إلى بيت الأهل في الوقت المناسب، للتخفيف من أوجاع أبيها. وفي فجر أحد الأيام توفي والدها، ثم ماتت بعده والدتها بعشرة أيام، مع أنها لم تكن تعاني من أي مرض، باستثناء الحُزن. إثر ذلك، فإن السيدة إكس، التي صارت لديها معرفة كافية بالحياة، ودَّعت البحيرة وباعَت الدار ولم تعد إلى ذلك المكان بعدها أبدًا.

في ليلة النزهة، عندما وصلت سيارة الأجرة إلى نوكتوراما، لاحظت المخلوقة أن القمر قد اكتسب حجمًا فريدًا بين الغيوم. اللون الأصفر لحوافه المطموسة وبالتضاد مع لون السماء، جعلت حجمه يبدو أكبر. شرحت لها السيدة إكس أن هذا الأمر يرجع لظاهرة بصرية: القرب البصري للقمر قياسًا للبنايات التي في الحديقة، كان يشكل خداعًا بصريًا مما يوحي بأن حجم القمر قد زاد. تلقت المخلوقة تفسيرها بزمة من شفتيها، توحي بعدم تصديقها، وخمّنت السيدة إكس بأن المخلوقة لم يخطر ببالها أبدًا أنه يمكن تفسير تباينات أحجام القمر بآليه أخرى غير الفانتازيا. وبسبب محدودية خطواتها بفعل المرض، اقتصرت معرفة المخلوقة على تحوّلات القمر

عبر نوافذ المنزل الكبير منذ زمن طويل... من يدري منذ متى (لم يزودوا السيدة إكس بأية معلومات عن الحياة السابقة لزبونتها). من خلال التغيرات في السماء كانت المخلوقة تعد مرور الأيام والليالي والوقت الذي يمر عبر الأسابيع، بينما تنسل خيوط طاقيتها الحمراء. بالنسبة للمخلوقة، فربما كان القمر حيوان مليء بالدم، ينتفخ أو يذبل حسب اقترابه وابتعاده عن الأرض: نوع من ديدان العَلق. في الوقت الذي كانت فيه المدبرة تحاول تخمين ما يدور في ذهن المخلوقة المسكينة، عبرَت السيارة من تحت اللافتة التي تشير إلى اتجاه مدخل حديقة الحيوانات. ظل سائق التاكسي صامتًا، وفي المذياع تتواصل مقطوعات ساتيه الموسيقية. وفي تلك الحظة، كانت تصدح مقطوعة «الغُرف الباردة».

تتضاعف عتمة الأدغال كلما تقدموا في الشارع الرئيسي المؤدي إلى الحديقة، والمحاط بأسلاك شائكة فقط. كانت أغصان الشجر تغطي الأسلاك بحيث تجعلها غير مرئية. غطت المخلوقة وجهها بطاقيتها أكثر من السابق. ثم أنزلت قليلًا زجاج النافذة، فغزا جوف السيارة أريج نباتي طازج وكثيف، ممزوجًا برائحة أوراق وثمار متعفنة. في نهاية الشارع استدار السائق حول فسحة دائرية، وركَن السيارة أمام مدخل حديقة نوكتوراما. كان هناك جمع من الناس ينتظرون تحت مظلة أمام شباك بيع التذاكر. لم يكن بالمستطاع رؤية وجوههم، لأن القمر قد اختفى خلف الأشجار. دفعت السيدة إكس الأجرة للسائق ونزلت من السيارة، ومن الباب الآخر نزلت المخلوقة حاملة حقيبتها على ظهرها، وما أن وطأت الرصيف حتى أبدت حزنًا

لشعورها بالغَم في هذا المكان، حيث وصلت إليها نتانة الحيوانات المحبوسة في الأقفاص. تحكمت السيدة إكس بارتعاشتها. عندما عاد سائق التاكسي إلى بيته وراح ينظف غطاء المقعد الخلفي، حيث كانت تجلس المخلوقة، عثَر على شيء يبدو أنه قشرة من الجلد وبقع دم متخثر.

3

فيما يتعلق بالأمور المالية، فإن الحسابات التي كانت تتم إدارتها من قبل المسؤولين عن المخلوقة، لم تتدهور إلا في النهاية. قبلها، كان يتم إيداع مبلغًا شهريًا في الحساب البنكي الخاص باحتياجات المنزل، ومنه كانت السيدة إكس تشتري المؤونة اللازمة بانتظام. حسب قولها. وكذلك يتم إيداع مبلغًا آخر كأجر لها، وهو أعلى أجر تقاضته في حياتها، والذي مكّنها من دفع الحسابات حين أفلَست الشركة، فبما أنها لم تكن تخرج، تجنبًا لانتهاك شرط العقد، فقد جمعت ثروة صغيرة على مدار هذين العامين ونصف من عملها. لم يكن ثمة ما يستدعي أن تُنفق من أجله. فالمشتريات المنزلية كان يوصلها محل بقالة كوري في الحيّ. تُملي السيدة إكس طلباتها عبر الهاتف فتأتيها بها سيارة نقل صغيرة. يتم إنزال الصناديق في المدخل الجانبي للمنزل، تحت إشراف المدبرة، والتي كان يروق لها تجاذب أطراف الحديث مع الشاب المُكلّف بإيصال البضاعة، فتى كوري لا يتجاوز عمره الثمانية عشرة عامًا. ولكنه لم يكن يتحدث البرتغالية

ولا الانكليزية، أو ليس بالقدر الكافي الذي يمكّنه من عقد حوار يتعدى الرد على كلمات الشكر الموجهة إليه لقاء خدماته. من حين إلى آخر، كانت حال عدم التواصل، الذي وجدت السيدة إكس نفسها فيه، يجعل من وحدتها صعبة الاحتمال. ولأنها بلا أقارب، فلم يكن هناك من شخص يمكنها التحدث معه عبر الهاتف، والأشخاص الوحيدين الذين تعايشت معهم في العقدين الأخيرين، كانوا مرضاها وقد ماتوا. إن الساعات التي كانت تخصصها للقراءة في المكتبة، عادة ما تكون متداخلة مع شرود ذهنها حول مستقبلها وتقاعدها، ودن أن تقصد، راحت السيدة إكس تنسج الأحلام عما سوف تفعله بالمال الذي وفّرته. ولكن كلما كان يحدث ذلك، تُسارع لقطع شرودها وهي تشعر بالذنب، لأن التوق لتحقيق أحلامها المستقبلية، يعني أنها ترغب بموت المخلوقة. فوفق طبيعة عملها، اعتادت السيدة إكس أن تربط بين نهاية كل مرحلة مهنية بموت مخدومها. أحيانًا، عندما تفكر في ذلك، كانت السيدة إكس، تعتزل في غرفتها، وتصلي للرب بورع شديد. وبهذه الطريقة فقط تتوقف يداها عن الارتعاش.

أثناء فترة تخصصها في مانشيستر، واجهت السيدة إكس بعض المشاكل. لم يجل بخاطرها أن تصبح ممرضة، والأكثر استبعادًا، أن تتخصص بطِب المُسنين. كان حلمها أن تصبح مُختصّة بالتجميل. في مراهقتها، دخلت عدة دورات لدراسة التجميل، وكانت تعجبها ممارسة موهبتها بابتكار تسريحات شَعر خاصة لزميلاتها في المدرسة. ولكن، عندما بلغت عامها العشرين، اكتشفت السيدة إكس بأن كفيها ترتجفان. ففي أحد دروس الماكياج، عندما كانت تضع

مسحوق تحمير الخدود لإحدى صديقاتها، أصابتها نوبة ارتعاش لم تستطع السيطرة عليها، أجبرتها على الخروج باكية والاختباء في الحمّام. تكررت النوبات عِدة مرات، إلى أن اضطرت، وبكل خجل، البحث عن علاج نفسي. كانت يائسة جدًا، لأن نوبات الارتعاش تلك تُحطم آمالها. إلا أن الطبيب النفسي الذي كان يعالجها، لم يقتنع بالمشكلة، وأكد لها بأنه ليس لديها أي ارتعاش، وأن الأمر ليس سوى قلق عادي، ووصف لها مهدئات مضادة للقلق. فضّلت السيدة إكس التخلي عن الطبيب وعن رغبتها بممارسة مهنة التجميل، ومع ذلك، راحت تتعاطى تلك العقاقير المهدئة، وكانت تحصل عليها في البداية بواسطة الوصفات الطبية، ثم راحت تسرقها لاحقًا من المستشفيات التي تعمل فيها. بفضل إلحاح والدتها ودعم والدها استطاعت أن تُكمل دراستها للتمريض، وبمجرد نيلها شهادة التخرج، حصلَت على منحة من المركز القومي للبحوث، كي تواصل مرحلة التطبيق والتخصص في الخارج. وفي مستشفى مانشيستر، كانت حياة السيدة إكس تشبه حياة الرهبان، حيث تعمل طوال الليل، وسرعان ما حصلت على وظيفة مُشرفة خفارة ليلية، كانت محبوبة من قبل كل المريضات، وأغلبهن في العَقد الثامن من عمرهن، وتقابلهن السيدة إكس بشعور من الرأفة والرحمة. بمرور الوقت صار المستشفى بيتًا حقيقيًا لها. كانت تكره غرفة سكنها الصغيرة الضيقة، التي تقل مساحتها عن العشرين مترًا مربعًا، والتي تقع في ضواحي مانشيستر، تلك المدينة الرمادية الباردة كبرود طبع سكانها، فعلى خلاف ما يحدث خارج جدران المستشفى، في الأزقة الحجرية الرطبة وفي الملاهي الليلية المكتظة بالناس، كانت السيدة إكس تجد في أروقة المستشفى دفء

الرفقة الحميمة لمرضاها الذين كانوا يكافئونها بإيثار لا حدود له. مع الوقت، أثار هذا الأمر غيرة زميلاتها في الخفارات، وقد ربطت السيدة إكس بين الاتهامات التي وجِّهت لها عند طردها من العمل، وبين هذا الشعور البغيض الذي كانت تثيره بقية الممرضات نحوها. في الليالي التي بقيت فيها السيدة إكس وحيدة في غرفتها بالمستشفى، كانت تراقب ارتعاشات كفيها اللاإرادية وتعزوها إلى كُره زميلاتها لها. تتناول بعدها دواءها، تَهدأ قليلًا، ثم تخرج للقيام بجولتها الليلة ومعاودة مرضاها، بعد المرور بالمخزن للتزود بمواد التنظيف، والتي ستتتحول مع الزمن إلى سمة خاصة بها.

ذات مساء، بينما كانت السيدة إكس تُرتب في المكتبة مجلدات موسوعة عالم الحيوان، التي قرأتها في الليلة السابقة، لم تجد المجلد السادس والذي يضم تسلسل حرفي اللام والميم، وبعد البحث بدقة تحت الكراسي والأريكة، وفي عش الشَعر وبقية الرفوف، ذهبت للبحث عنه في الغُرف الأخرى، دون جدوى. وبما أن المخلوقة لم تكن قد استيقظت بعد لتناول وجبتها المسائية الأولى، لم تتذكر المُدبرة البحث في غرفتها. يجدر التوقف هنا، للحديث عن التغذية اليومية لكليهما. بما أن مواعيدهما كانت مقلوبة، فإن وجبة الفطور بالنسبة لهما كانت تُقدم عند الغروب واختفاء ضوء الشمس من النوافذ. وهكذا بالتوالي: يتم تقديم وجبة الغداء عند منتصف الليل بالضبط، والعشاء قبل الفجر بساعة تقريبًا. أكدت السيدة إكس في إفادتها، على أنه لم يكن هناك موظفين آخرين في المنزل الكبير، وأنها كانت تُعد كل الوجَبات بنفسها. في البداية، واجهت متاعبًا في معرفة

ما يُعجب المخلوقة، لأنها لم تكن تبدي أي سبب عند رفضها لطعام ما، وإنما تكتفي بالجلوس على الطرف المقابل للطاولة، وتغوص في صمتها الذي يصعب سبر غوره. ومع مرور الأيـام، أنتبهت السيدة إكس إلى أن المخلوقة تخمن ما سوف تقدمه لها... حتى قبل خروجها من المطبخ. وهذا عائد لقوة حاسة الشم لديها، عرض ثانوي لحالتها. بعد أربعين يوم من وصول المدبرة للعمل في المنزل الكبير، بعثت لها الشركة المتعاقِدة رسالة، وفيها قائمة بالتوصيات الخاصة بالنظام الغذائي المعتاد للمخلوقة، وفيها أيضًا، قائمة طويلة بالأغذية التي يجب تجنبها معها، ومنها ما قد سبق للسيدة إكس وأن أعدتها لها، والتي رفضتها المخلوقة كلها، فيما تفضل اللحم نصف المطبوخ. كان تأخر الشركة بإرسال تلك القوائم هو واحد من أسوأ أخطائها على امتداد العامين والنصف، إضافة إلى توقفها عن سداد المبالغ المستحقة في الفترة الأخيرة، وربما حتى التعاقد مع السيدة إكس نفسه.

4

بعد أن أوصلهما سائق التاكسي إلى حديقة الحيوانات، استدار عائدًا إلى الشارع الذي جاء فيه، وسرعان ما نسي الشكل الغريب للمخلوقة التي كانت مغطيّة رأسها، واستعاد التفكير في كلابه. وبما أنه كان يسكن قريبًا من حديقة الحيوانات، خطط في الطريق أن يقوم بتدريب الكلاب تلك الليلة. نعتقد بأنه، عبر إفادته هذه، قد فكر

بتجنب اتهامه بالنيّة المبيّتة. وحسب إفادته أيضًا، فإنه بعد أن تجاوزت الساعة التاسعة، عدَّ أن ليلة عمله قد كانت مُرضية من حيث المكسب. وأن بإمكانه ترك العمل لبضع ساعات على الأقل، أن يمر ببيته، يرتاح لساعة من الزمن، يقرأ كاتلوغات الاسطوانات الموسيقية ثم يحمل الكلاب في السيارة، هذا ما كان ينوي فعله، كما أفاد. كان يخترع حجّة ليُثبِت أنه لم يكن موجودًا في مكان الجريمة.

في تلك الليلة، كان سيُتم أول نزهة ليلية في القسم الجديد من حديقة الحيوانات، وهي الفرصة التي كان ينتظرها. في الإشارة الضوئية التالية، أدار سائق التاكسي مقود السيارة إلى اليمين، وتخلى عما تبقى من ساعات عمله. انطلق في شارع ميغيل استيفانو، استدار حول نوكتوراما وسار في شارع الكرسينو يسارًا، ومن هناك، توجه نحو المنطقة الشرقية، قاصدًا البيت الذي يقطنه، والذي يقع في نطاق أرض مَصنع مَهجور. ظَل البيانو يصدح في الاسطوانة... إلى أن دَخل في الزقاق ذي التبليط الحجري المغطى بنباتات طحلبية، وهو الذي يؤدي إلى منزله. شرعت الكلاب بالنباح ما أن تعرفت على هدير محرك السيارة، وفتح السائق السلسة الصدئة التي تربط البوابة. سيارته الآن مركونة في الباحة كي تتم عليها اجراءات التحري اللازمة. وكما أكد: إن العيش هناك كان جيدًا لأن بإمكان الكلاب أن تنبح بحرية دون أن تلفت انتباه أحد. ولكن البيت لم يكن صحيًا. ولم يكن ذلك ليهمه كثيرًا، لأن قيمة هذا المكان تكمن في كونه بعيدًا عن أي جار، إضافة إلى اتساع مساحة الأرض، حيث استطاع أن يقيم الأقفاص لكلابه الروت وايلر. هذه الكلاب الثلاثة، كانت كل شاغله في الحياة، وأكثر

ما يهمه، هو أن تكون على ما يُرام. ولكن السائق كان مضطرًا لكسب عيشه. ليس باستطاعته تمضية جل الوقت مع كلابه التي كانت تفتقده. وهذا الأمر بدا واضحًا في تلك الليلة. على سبيل المثال، كان نباحهم صادِحًا وفيه بَحّة... كأنها نواح عميق يصعب سبر قرارته. وكان هذا هو حال الكلاب الروت وايلر في كل ليلة يكتمل فيها القمر. وليس بمقدور أية كمية من كريات اللحم المعجون، تهدئتها، مهما كثرت، ولا حتى السعادة اللحظية التي كان يمنحها إياها سائق التاكسي، عند تحريرها لتنطلق جريًا كالمجانين في المصنع المهجور، لاشيء يهدئها. عند فحصه للأرضية القريبة من الأقفاص، زاد انزعاج سائق التاكسي، لأن الكلب الصغير كان قد فقد أحد أسنانه عند عضه للقضبان.

في ليالٍ كتلك الليلة، لم يجد سائق التاكسي بدًّا من وضع الكلاب داخل السيارة وأخذها في نزهة. في المقعد الخلفي، كانت هذه الحيوانات تهدأ بمجرد عبورها البوابة الحديدية، وتصبح خلفهم حالة الهياج السابق وعوائها في القفص وجريها المحموم بين رُكام المصنع المهجور. أثناء هدوئها تبدو وكأنها ترى شيئًا لا أحد يراه سواها في فراغ الليل المعتم لتلك الشوارع، وبينما يتقدم السائق في الشارع الفارغ المؤدي إلى حديقة الحيوانات، كان يراقبها عبر المرآة، فتبدو وكأنها أطفالًا يكفي لإرضائهم مجرد الوعد بالقيام بجولة للتنزه. ومن أجل لحظات السلام تلك، كان السائق يغير دوامه الليلي بنزهة للكلاب، ولو لمرة واحدة في الشهر، كما صرّح. وفي أغلب تلك المرات، لم يكن حتى يخرج من نطاق الحيّ، فكانت تكتفي بالتسكع في الساحات القريبة بحثًا عن اصطياد قط أو فأر أو سحليّة ما. تسلية

أخرى، هي الذهاب في الطرق الخارجة والداخلة إلى ساو باولو، وإطلاقها هناك في إحدى الفلوات. كانت تنطلق جريًا وكأنها آخر مرة ستركض فيها. عند مراقبتها في السيارة هادئة، تذكَّر السائق تلك المرة التي سقط فيها قط في باحة المصنع المهجور. يا للمسكين. لقد مزقته الكلاب في ثوان قليلة، ولم يبق منه سوى كيس جلده المدمى، والذي علقه السائق على حبل الغسيل. وعلى ذلك، فإن شهوة كلاب الروت وايلر لم تنتهِ وظلت تحوم لساعات حول بقايا القط المعلّقَة عاليًا، دون أن تتمكن من نيلها. بعد أن أعاد هذه الوحوش إلى أقفاصها، تفحص السائق الجلد الجاف للقط المسكين، وفكر فيما يمكن أن تفعله كلابه بإنسان. لابد وأن عمر السائق كان ثمانية أو تسعة أعوام عندما أهدوه أول حيوان أليف، الكلبة العجوز لأحد أعمامه الذي انتقل إلى مدينة أخرى. منذ طفولته المبكرة، وربما منذ أن بدأ بتعلم الكلام، طلب السائق من والده بإلحاح أن يسمح له باقتناء كلب. ولكن أباه الذي كان رجلًا فضًّا وسكيرًا، لم يسمح له بذلك أبدًا. وبما أن الأب كان مدينًا للعم بأفضال لا يستطيع ردها، فلم يجد أمامه سوى قبول الكلبة ذات الفراء الأصفر، فرعاها السائق بكل براعه، على أنه كان طفلًا صغيرًا. وكانت الكلبة تتبعه في كل مكان على شيخوختها. تسير معه من المنزل إلى المدرسة وتنتظره إلى أن ينهي دروسه كي ترافقه في العودة. وفي أحد صباحات الانتظار تلك، صارت الكلبة حبلى. وراح الطفل يفكر بأنه أكثر الناس حظًا في هذا العالم، وحماسه الشديد لامتلاك فريق كامل من الجراء الصغيرة له وحده، تجاوز حدود صبر والده عديم الصبر أصلًا. وبما أن العم الذي يعيش في مدينة أخرى كان يزورهم باستمرار، فقد اضطر الأب للخضوع مرة أخرى. وبعد

مضي الشهور، وضعت الكلبة خمسة جراء صغيرة، أجمل حيوانات حلم برؤيتها الطفل. آنذاك توفي العم في حادث سيارة، وانتهى معه أمر الديون في ذلك الحادث المؤسف، فقرر الأب وضع حد للمعاناة من تلك الحشرجات التي لا تنتهي والتي لا تتركه ينام ليلًا. ذات صباح يوم أحد، استيقظ الطفل على النباح، فرأى والده يقتل الكلبة بعصا غليظة، وعندما أطلقت آخر زفراتها، ملأ حوضًا بالماء وراح يغرق الجراء الخمسة واحدًا تلو الآخر أمام أنظار الطفل الجامدة.

5

في الليلة التالية، وجَدت السيدة إكس المجلد المفقود من موسوعة عالم الحيوان على فراش في حجرة المخلوقة. كان الكتاب مفتوحًا عند الصفحة التي تحتوي على التعريف الخاص بنمر الثلوج. وبجانب الكتاب عدة أوراق مبعثرة، فيها رسومات مُتقنة، تجسد الحيوان في مشاهد من أماكن مختلفة، بعضها مستقاة من النص وأخرى متخيلة. مثل: نمر الثلوج يطارد غزالًا على إحدى قمم سلسلة جبال التاي المغطاة بالثلج. هجوم نمر الثلوج على قرية. نوتة موسيقة تتبدد في الهواء ونمر الثلوج يرافقها. نمر الثلوج في الأَسْر. نمر الثلوج غاضبًا وحيدًا تحت قمر مكتمل. نمر الثلوج وقائمته الأمامية اليمنى ملفوفة بضماد. نمر الثلوج واقفًا وهو مستند على قائمتيه الخلفيتين ويتأمل نفسه في مرآة الحمّام... تفاجأت السيدة إكس بموهبة الرسم لدى المخلوقة. بدت تلك الرسوم كأعمال فنان

موهوب جدًا. كان من الصعب استيعاب أن ترسم المخلوقة بهاتين اليدين رسومًا بكل هذه الجودة. عندها لملمت كل شيء وراحت تفكر في أوصياء المخلوقة؛ كيف يوجد أناس بهذه القسوة؟! لابد وأنهم ليسوا متدينين. لأن الناس التي تؤمن بالرب لا تتخلى هكذا عن المرضى. أثناء سيرها في ممرات المنزل الكبير المؤدية إلى المكتبة، أخذت السيدة إكس تحلل الصور المعلَّقة على الجدران. كانت هناك سلسلة من الصور للزوجين ذاتهما. في كل الصور، يضع الرجع قبعة على رأسه ويرتدي بدلة سوداء وله لحية طويلة. والمرأة تستعرض فستانًا متواضعًا من النوع القديم، وتشبه المخلوقة إلى حد ما، ولكن هذا الشبه ربما يكون صنيع خيالها ولون جلديهما. من خلال التواريخ المدَوَّنة على الهوامش، يبدو أن الصور تشمل فترة عشرين عامًا تقريبًا. ملامح المرأة والرجل لا توحي بأنهما قد كبرا بالسن خلال تلك الفترة، باستثناء أن لحية الرجل قد تخضبت ببضعة خيوط رمادية وصارت أكثر كثافة في الصور الأحدث. ربما أن هذين الزوجين هما والدا المخلوقة، وإن كانا كبيرين بالسن بحيث يمكن عدَّهما جديها، ربما، وإن كان ذلك غير مهم. الشيء الوحيد المؤكد هو أنهما كانا شخصين بقلبين بحجم الزبيبة.

عندما وصلت السيدة إكس بصحبة المخلوقة إلى مدخل الحديقة، استقبلتهما الطبيبة البيطرية الشابة التي ستتولى قيادة الزائرين في النزهة الليلية الافتتاحية. تتكون المجموعة من عشرين شخصًا، يصعب تمييزهم في العتمة تحت كثافة أوراق الأشجار. لم ينتبه أحد إلى خصوصية طبيعة المخلوقة. كانت ظلالهم تتداخل ببعضها

وتتيه بين القضبان العالية التي تفصل بين نوكتوراما وبقية حديقة الحيوانات. شَرحت لهم الطبيبة الشابة المحاذير والقواعد التي يجب اتباعها أثناء الجولة. عليهم التزام الصمت قدر الإمكان. ستستغرق الجولة ثلاث ساعات، تتخللها أربع استراحات مدة كل منها خمسة عشرة دقيقة، كي يتمكنوا من تناول الطعام والتقاط الأنفاس إثر المجهود الذين لن يكون هيّنًا. على الأكثر شبابًا أن يتصرفوا بتهذيب. ممنوع على أي شخص، وتحت أي ظرف، أن يحيد عن الدرب الذي سيسيرون فيه، وهذه القاعدة الأخيرة تنطبق على الكبار أيضًا. ممنوع استخدام مصباح يدوي أو فلاش. يجب ترك الهواتف المحمولة في مكتب الاستقبال. إن الهدف من هذا الإجراء هو الحيلولة دون إفزاع الحيوانات غير المربوطة. كانت هناك أنواع كثيرة من الحيوانات التي تتجول في الحديقة دون أقفاص أو قضبان تحد من حركتها، من بينها؛ قرود، طيور، قوارض وزواحف. وبما أن هذا القسم الجديد من حديقة الحيوانات هو امتداد لمحمية الغابة الأطلنطية لسيرّا دو مار، فثمة حيوانات من هناك كانت تغزو حدود نوكتوراما. لهذا فإن النزهة الليلية لا تخلو تمامًا من المخاطر. وللتدليل على ذلك، كشفت لهم الطبيبة البيطرية الشابة عن ظهور بعض الحيوانات ميتة في هذا القسم من الحديقة، وهذه ظاهرة حديثة لم تستطع السلطات تفسيرها بعد. ومنها العثور على قرد سَعدان منزوع الأحشاء، كما تكرر الأمر مع عائلة كاملة من حيوان الغُرير. يبدو أن ثمة حيوان فتّاك غريب عن الحديقة يتسكع حُرًا في الأنحاء، ولكن لا داعي للقلق، فشرطة الغابات لديها مجموعة دوريات لحراسة المنطقة. في الليلة السابقة قبضوا على سنور، النمر القزم، ليس من حيوانات الحديقة. وكان

رجال الشرطة يحققون فيما إذا كان هذا السنور مهجورًا هناك، وإذا ما كان هو المسؤول عن الضحايا الأخيرة في نوكتوراما.

عندما أعادت السيدة إكس وضع المجلد الذي وجدته في غرفة المخلوقة مع بقية الموسوعة، خطرت في بالها فكرة. فأطَّرَت أولًا بالكارتون، الرسوم العديدة التي أنجزتها مريضتها، ثم علقتها على جدار المكتبة. وفي الليل، حين اتجهت المخلوقة إلى هناك باحثة عن الكتاب، فوجئت بأول معرض شخصي لها، وكان تحت الإطارات، مائدة عليها عصير كشمش وبسكويت ونقانق أعدتها مدبرة المنزل، إضافة إلى لافتة مكتوب عليها: (المعرض العالمي لرسوم نمر الثلوج). ومن الممر، كانت السيدة إكس تترصد، فرأت زمّة شفاه على ملامح المخلوقة، ربما يمكن عدها ابتسامة. التمعت عينا المخلوقة، عندها رفعتا كأسي عصير الكشمش نخب المناسبة وراحتا تحلّلان تفاصيل لوحة القرية التبتية التي تعرضت لهجوم الحيوان المفترس، وهما تأكلان النقانق. بعدها، جلستا على السجادة الوثيرة أمام المدفأة، وراحت السيدة إكس تعيد مرارًا قراءة التعريف الخاص بنمر الثلوج في الموسوعة. ومن خلال ذلك، تعرفتا على الأساطير الآسيوية عن هذا الحيوان. بعض شعوب التبت وروسيا ومنغوليا تؤكد بأن نمر الثلوج لا يلتهم لحوم ضحاياه وإنما يشرب دمائها فقط. إن هذا الاعتقاد عائد لكون نمر الثلوج المفترس، يقوم بعَضّ أوداج ضحاياه إلى أن تخور قواها، وبما أن لديه ثقوبًا في أنيابه، كان يترك علامات مَص في لحم الرقبة. لا يلتهم فريسته لأنه مُطارَدًا على الدوام. وهكذا كانوا يفاجئونه دائمًا وهو يخنق فريسته، فيضطر لتركها. إن نمر الثلوج منقرض تقريبًا

بسبب الطلب المتزايد على عظامه التي يستخدمها الصينيين لتحضير العديد من الأدوية (بعض المعتقدات الشعبية في منغوليا تستخدمها لأعمال السِحر). من دواعي سرور المخلوقة أن السيدة إكس قالت لها بأن هناك نمرًا واحدًا، من هذا النوع، وغريبًا في حديقة حيوانات المدينة... هذا وتروي الأساطير أيضًا، بأن نمر الثلوج يمتلك القدرة على التمَثل بهيئة البَشر.

6

بعد أن رأى الأضرار التي أحدثتها الكلاب في القط، خطرت لسائق التاكسي فكرة أخرى، وفقًا لما أدلى به في إفادته. حَملَ كيسًا كبيرًا، وراح يصطاد القطط التي تجتاح المصنع المهجور. كان مواء تلك القطط الملعونة يهيّج جنون كلابه، حسب إفادته. في أول مساء لعمليات الصيد تلك، تمكن من القبض على ثلاثة قطط. كانت شرسة جدًا ومن المستحيل القبض على المزيد. أثناء نزهة ذلك الشهر، أدَخل السائق القطط في صندوق السيارة وغادر بصحبة الكلاب. كانت ليلة مكتملة القمر، توَجه عبر شارع أنتشيتا حتى وصل إلى مدخل غابة خفيّة. وكانت هناك بحيرة، الأدغال ليست بالغة الكثافة، مما أتاح له السير بين الأشجار دون التعرض لأية خدوش أو الانزلاق والسقوط في حفرة مخفيّة بين الشجيرات المنبسطة. هناك حرّر من الكيس أول قط، وشهد بغبطة سباق الصيد الذي انطلقت فيه كلاب الروت وايلر. أنياب الكلب الأكبر حجمًا طالت القط أثناء محاولته تسلق شجرة

الصنوبر، وهو يكاد أن يفلت منه. مزقوا بطنه، وانتثرت أحشاؤه على الثيِّل الأخضر اللامع، حسب وصف السائق الذي لم يخفِ نشوته. كان الليل باردًا، وبخار هواء ساخن يتصاعد من جوف الجثة المبقورة، بينما ينفض الكلب رأسه مطوّحًا بها من جهة إلى أخرى، كما لو كان يتحقق من وجود بقايا حياة داخل هذا الشيء، داخل كيس العظام هذا. القط التالي كان أكثر تحديًا، لأنه حال إخراجه من الكيس، تمكّنت مخالبه الحادة النيْل من مرفق السائق. وما أن رأت الكلاب صاحبها مجروحًا حتى انطلقت حانقة وراء القط الذي اختفى بين أوراق الأشجار. نبحَت بيأس وراحت تبحث في الجزء السفلي من الأدغال، ثم دخلت الكلاب وسط الشجيرات، تاركة خلفها السائق وذراعه اليمنى مغطاة بالدماء. وبعد خمس دقائق من الاشتباك العنيف، خرج أحد الكلاب من بين سيقان أشجار البامبو حاملًا في فمه القط الميت وألقاه أمام قدميّ السائق. القط الثالث تلقى دعسة من الكلب الأصغر حالما وضع قوائمه الأربع على الأرض. عدَّ سائق التاكسي أن تلك الكفاءة تمثل تطورًا في موهبة الصيد عند كلابه، بالإضافة إلى كونها دليل مهم على وفائها له، وعاد إلى بيته فخورًا بها.

كانت السيدة إكس تُعقم المخلوقة كل يوم، وتلك مهمة دقيقة للغاية، ابتداءً بإقناعها بخلع ملابسها، فالمخلوقة خَجِلة من مظهرها، لذا ترتدي في المنزل دائمًا معطفًا مطريّ أحمر، وقبعة، وسروال طويل وجزمة مطرية. تبدأ مديرة المنزل السيدة إكس بتنظيف جلدها مستخدمة مياه معقمة وقطن، فالجراح تُرى منتشرة في كل جسدها، سواء أكانت تحت ضوء النهار أم لا. التهابات صديديّة تظهر بين يوم

وآخر، كما لو كان جسمها في حالة تدفق بركاني دائم. تظهر أكثر في مناطق احتكاك جلدها بالفراش أثناء النوم أو بالكرسي عندما تجلس، ولكن أيضًا، في الوجه، بما فيه جفنيها الرقيقين. كانت مناطق البَتر في يديها فظيعة، لذا ترفض خلع قفازيها الجلديين. وغالبًا ما تغطي بدنها قروح من شتى الدرجات، تتروح ألوانها بين الأحمر القاني للجروح الحديثة وسواد قشور الدم المتجلط للجروح التي مر عليها ثلاثة أيام أو أكثر. كانت تبدو كلوحة تجريدية تركها رسامها قبل إنهائها. عياناها ملتهبة دائمًا بسبب تهيج القرنية التي تنزف أحيانًا. بعد تنظيف قشور الجروح بحذر، كانت السيدة إكس تركز على الملوثة منها. في جبين المخلوقة، ثمة تقرح يتجدد كل يوم، يبرز ويتلوث سريعًا. كان كبيرًا. ما أن تتمكن السيدة إكس من إزالة الصديد، يختفي الجرح تقريبًا عند استخدامها للأدوية المجففة للجروح، ويتحول إلى ندبة مُعَيَّنِيَّة الشكل. ولكن بعد مرور يوم أو يومين، يعود بالشدة ذاتها. تنفتح الندبة مجددًا كما لو كانت لها حياتها الخاصة، وتستحيل إلى جرح جديد له شكل الفم. كان من الصعب، حتى بالنسبة لممرضة خبيرة كالسيدة إكس، ألا تشعر بالتقزّز. ولكن ذلك لم يكن يهمها كثيرًا لأن الرب بجانبها. تقوم بعملية التنظيف تلك، كجزء من مهمتها. ما كان يحرك مشاعرها حقًا هو شجاعة المخلوقة، التي لم تكن تتذمر ولا تُصدر حتى أقل تأوه طوال وقت المعالجة. وأثناء عملية التنظيف، كانت السيدة إكس تروي لها قصصًا كي تشغلها عن الألم. وأكثر القصص التي كانت تعجبها، هي تلك التي تدور حول نمر الثلوج. إنها مخلوقة مباركة بلا شك. على ذلك، تخشى السيدة إكس من أن تفاجئها الندبة الفم في جبين المخلوقة وتهمس لها بشيء يزعجها سماعه.

أول معرض عالمي لرسوم نمر الثلوج - الحلقة الأولى، والتي فيها بلدة صينية أو ربما روسية يهاجمها قُطّاع طرق أو وحش مفترس.

كان ياما كان، كان هناك بلدة قديمة، أظن أنها في الصين، لا، لا، في روسيا، فقَدَ سكانها السلام بسبب هجمات قُطاع الطُرق. كانت جرائم اللصوص من الدموية بحيث أنها أثارت الشكوك لدى سكان القرية بأن الأمر يتعلق بوحش مفترس، نعم، وحش وليس بشر. ولكنهم يتساءلون مالفائدة التي سيجنيها حيوان متوحش من ممتلكات بشرية كالنقود والملابس. بمرور الوقت وتوالي الحوادث الوحشية، لم تعد البلدة تجذب المسافرين ولا سكان جدد، وانتشرت سمعتها، كمكان عنيف في أرجاء المنطقة، كانتشار النار في الهشيم، ولم يعد أحد يزور الأقارب أو الأصدقاء الذين يقطنون هناك. تواصلَت الهجمات وصارت تقترب أكثر من أطراف البلدة. قَتل قطاع الطرق عائلة أحد الرعاة وسلبوا، إضافة إلى حياتهم، كل ممتلكاتهم، والماعز والغنم والبقرة الحلوب الوحيدة التي لديهم. تم العثور على جثة الراعي وأفراد عائلته دون أية قَطرة دم. كانت جثثهم سليمة، باستثناء آثار أسنان في رقابهم. نعم، ثقوب أحدثتها أسنان. شك سكان البلدة، حينها، بأن المجزرة قد كانت بفعل أحد نمور الثلوج، وهو حيوان يمكنه تقمص شكل الإنسان. تخيل الجميع أنها عملية انتقامية من قبل الوحش الذي كان يعاني من مطاردات مكثفة في تلك المنطقة، بهدف تعزيز الصناعات الجلدية. فصناعة معطف واحد تحتاج إلى أربعة أو خمسة جلود سليمة، بدون أي ثقب بطلق ناري أو بأي سلاح

آخر، لذلك، وبسبب الصيد المتواصل، صار وجود نمور الثلوج نادرًا شيئًا فشيئًا، وراحت تختفي. ذات ليلة، قرر جمع من رجال البلدة الشجعان، الاتحاد والتصدي لقُطاع الطُرق. أولئك الرجال كانوا صيادين معروفين، وتخشاهم المنطقة كلها. أمضوا جل حياتهم في صيد نمور الثلوج، وكانوا يعرفون جيدًا الجبال المحيطة بالبلدة. وإن كان هناك رجال قادرون على تحديد مكان وقتل قطاع الطرق، فهم هؤلاء، نعم. بالإضافة إلى ذلك، كانوا يعرفون جيدًا عادات نمور الثلوج، وإن كان أحد النمور قد ارتكب تلك الجرائم، فسوف يكتشفونه. في ذلك الصباح، خرج الصيادون من البلدة ممتطين جيادهم، وأمضوا النهار بالسير نحو سلسلة جبال التاي، حيث كانوا يعتقدون بأن قطاع الطرق يختبئون فيها، ثم خيّموا عند سفح الجبل. وبعد يومين من انطلاقهم، لم تصل أية أخبار عن الصيادين، فبدأت عائلاتهم بالقلق من تأخر عودتهم. وبعد مرور أسبوع بلا أية أخبار عنهم، قرر العُمدة إرسال مستطلع إلى المكان الذي خيموا فيه، فالصيادين كانوا دائمًا يخيمون في ذلك المكان قبل تسلق الجبال، وأيضًا بعدها، عند هبوطهم، حين يحتاجون إلى مكان مناسب لسلخ نمور الثلوج. تلك الحيوانات تتمتع بنوع ممتاز من الجلد، أبيض يميل للرمادي، أجمل لون في العالم. فهذا اللون يساعدها على التخفي في ثلوج الجبال العالية حيث تعيش. لها شَعر أطول من بقية أنواع فصيلة الهريّات المتوحشة التي بحجمها، وبضعة بقع صغيرة على شكل ورود موزعة في أنحاء جلودها. قوائمها مخملية ناعمة، لا تترك آثارًا على الثلج. حين وصل المبعوث المستطلع إلى مكان المخيم، وجد جثث الصيادين، تم قتلهم وفي رقابهم آثار عضّات، ولكن

على خلاف عائلة الراعي التي تم قتلها من قبل، فإن جثث الصيادين السفاحين كانت شبه منهوشة، وقد تم نزع أحشائها التي لم يبق لها أثر في المكان، ولا حتى آثار دماء. عندها عاد المبعوث إلى القرية وأخبر العمدة بالمأساة. فأصابت الصدمة عائلات الصيادين، وعلى ذلك، وبعد الذي حدث، فقد توقفت الهجمات على البلدة. هكذا فجأة. مر شهران أو ثلاثة ولم يحدث أي شيء. وذات يوم وصل بائع متجول إلى البلدة فأحاط به الجميع، ولكنه أكد لهم بأن رحلته عبر الجبال قد كانت هادئة بلا أية مفاجآت. ولم يرَ أي أثر لقطاع الطرق، كما قال، وهو يُنزل بضائعه من على ظهر الحمار، وإن كان لديه شعور بأنه كان مراقَبًا من علو، وهو يعبر الوادي. وفسر البائع ذلك بوجود حيوان بعيد يتبعهما هو وحماره، على امتداد الوادي الذي يُتخذ للهبوط من الجبال، في تلك اللحظة، شَعر البائع بثقل كبير على أكتافه وبكآبة جعلته يترنم بأغنيات قديمة ويتذكر والديه الميتين منذ أعوام طويلة. ومن حينها لم يعد أحد إلى ذكر ذلك الأمر في المنطقة الموجودة في الصين، لا، لا، في روسيا.

7

كلما توغلت مجموعة الزائرين في دروب حديقة الحيوانات، كلما بدا وأنهم يدخلون في غابة بعيدة كل البعد عن التمدن... كأنهم يلِجون عالمًا آخر. عدد من أعضاء المجموعة، حاولوا إقناع المخلوقة بخلع معطفها وقفازيها، لكنها اكتفت بتجنبهم بالالتفاف عبر الجهة الأخرى. فالقبعة الحمراء والسيدة العجوز ذكّروا الطبيبة البيطرية بالقصة المشهورة، فراحت تتساءل، في أية لحظة سوف ينظَم الثعلب إلى أبطال القصة. ظن الجميع أن المخلوقة خجولة فتركوها بسلام. كان مشهد القمر جميلًا في الظلام. من ضمن برنامج الزيارة الليلية، أن يدخلوا في الغابة والاقتراب من المساحات المأهولة بالحيوانات ذات العادات الليلية. مساحات عادة ما يدنو إليها زوار الصباح الذين يسيرون على الأسفلت وحسب. سوف تقف المجموعة مراقِبة ما بين أوراق الأشجار كي لا تزعج نشاطات الحيوانات، وبهذه الطريقة سوف يتمكنون من ملاحظة كيف تتعايش دون أن تشك بأنها مراقَبة. وتلك كانت هي الطريقة الوحيدة لرؤية الحيوانات خارج الكهوف والجحور التي تختفي فيها طوال النهار، هكذا أقرت الطبيبة البيطرية في إفادتها. محطة التوقف الأولى ستكون في زيارة قطاع الحيوانات المفترسة. في بعض القطاعات الخاصة من الحديقة، يتم رمي جثث متعفنة لتغذية النسور والبوم وطيور أخرى من آكلات اللحوم، إضافة إلى الصقور التي تشكل جزءًا من البيئة الطبيعية. عند سماع ذلك، شكّكت السيدة أكس بأن هذه التجربة ذات أهمية، حسب ما أوردت في إفادتها. ولكن أفراد المجموعة كانوا متحمسين. المرحلة التالية

من الزيارة تتضمن مشاهدة عادات الزواحف، بما في ذلك زيارة إلى معرض الأفاعي حيث يمكنهم لمس إحداها. عندما ترجمت السيدة إكس للمخلوقة بصوت خفيض ما قالته الطبيبة البيطرية، ضغطت المخلوقة على يد السيدة إكس بقوة، ولاحظت مدبرة المنزل في رد الفعل هذا تعبيرًا غير معتاد عن السعادة.

كان روتين العمل الليلي لسائق التاكسي مملًا، فلو لم يكن محبًا للموسيقى الكلاسيكية التي عرفها مؤخرًا عند اكتشاف محطة إذاعية متخصصة ببثها، لكان قد مات من الملل. في البداية لم يكن سائق التاكسي منتسبًا لإحدى محطات سيارات الأجرة في المدينة، ولكن ذلك الخيار لم يكن مجزيًا. في بعض الليالي، إن حالفه الحظ، يمكنه أن يحمل عددًا من الركاب، ولكن بشكل عام، لم يكونوا سوى سكارى وعاهرات يطلبون منه، في آخر الليل، تنقلات قصيرة لا تستحق العناء. الشيء الوحيد الذي جناه السائق، في المرات القليلة التي تجوّل فيها داخل أحياء أبعد، بحثًا عن ركاب، حدث أن هاجمه بعض اللصوص مرتين، مما دفعه إلى الاكتفاء بالتجول في الأحياء البوهيمية للمدينة فقط، وهي أماكن مليئة بالبارات، تجوبها مجاميع مدمني الكحول، من الطبقة الوسطى الذين يحتاجون إلى وسيلة نقل، ولكن حيال عدم انتظام العائد من تلك اللعبة غير المضمونة، من الانتظار أمام البيوت الليلية، أقر السائق بهزيمته، ووجد طريقة للانتساب إلى نظام التاكسيات المرتبطة بهواتف، والتي تعمل بطريقة سهلة: ثمة مركز يتلقى كل المكالمات ويحدد مكان سيارات الأجرة الأقرب إلى نقطة وجود طالب الخدمة، وبهذه الطريقة

فإن السائق كسب المزيد من وقت الفراغ كي يبقى واقفًا في مكان محدد. وهناك على الأقل، يستطيع قراءة النصوص حول الموسيقى الكلاسيكية المطبوعة على علب الاسطوانات التي راح يشتريها من أكشاك الصحف أو يتمكن من احتساء القهوة أثناء فترات الانتظار. في بعض الأسابيع، كان الصوت الوحيد الذي يسمعه، هو صوت عاملة مركز خدمة المكالمات، إضافة إلى الأربع أو الخمس كلمات التي كان الركاب يَذكُرون فيها وجهاتهم. في ذلك الوقت، خطرت في ذهنه فكرة أنه فيما لو بقي على هذا الحال، سيصل إلى مرحلة لن يستطيع فيها التعرف على الصوت الآدمي. وهكذا في عمله الجديد، راح الوقت يمر ببطء أكبر، مما يهدئ من شعوره بالفوضى الداخلية، التي كان يحس بها أثناء تسكعه ليلًا في الأحياء والشوارع والجسور وطرق المدينة الخاوية. على استماعه للموسيقى وقراءة صحف اليوم السابق، إلا أن ذلك لم يخفف من شعوره بالضيق بسبب تركه كلابه وحدها. كان القلق الذي يشعر به السائق نحو تلك الحيوانات، لا يمكن مقارنته إلا بقلق أب نحو أبنائه.

ظلت الشركة المتعاقدة تقوم بإيداع المال بشكل منتظم. وهكذا كان يتم شراء التموين عبر خدمة الإيصال إلى البيوت التي تقوم بها البقالة الكورية الموجودة في شارع تريس ريوس، في حيّ البووم رتيرو. وذات مساء، عند استلامها للطلب، استطاعت السيدة إكس انتزاع بعض الكلمات من الشاب الموزِّع. خجل الفتى الشديد، إضافة إلى محدودية لغتيه الإنكليزية والبرتغالية، تسببت ببعض سوء الفهم خلال حديثه مع مدبرة المنزل. ولا تُستبعد إمكانية حدوث ذلك في

إفادته أيضًا. قال الفتى للسيدة إكس أنها تبدو له لطيفة، لطيفة جدًا، ولكنه لا يحب إيصال البضائع إلى هذا المنزل. فالبيت الكبير لم تكن له سمعة طيبة في الحيّ وتُروى حوله الكثير من الحكايات. على ما يبدو بأن هذا المنزل عائد إلى أسرة قديمة من المشعوذين الروس. ولكن لم ير أحد أي فرد من العائلة منذ زمن طويل، وعلى مدى أعوام تخيّل الناس أن المنزل مهجورًا. يقال بأن هذا المنزل مسكونًا من قبل طفلة وبأن السيدة إكس هي المسؤولة عن رعايتها، ولكن لم يرها أحد أبدًا. كان الفتى موزع البضائع يود معرفة فيما إذا كان ذلك صحيحًا أم أنها مجرد شائعات، ومعرفة لماذا لم يرَ أحد الطفلة تذهب إلى المدرسة مثلًا أو تخرج من المنزل. كما أن السيدة إكس نفسها كانت تثير فضول الجيران، ويقول بعضهم أنها ليست سوى مشعوذة أخرى وأن الشخص الآخر ليس طفلة وإنما عجوز. ولكن الموزع لا يرى ذلك، فهي تبدو له لطيفة جدًا، كما أكد في إفادته. ومن جهة أخرى فإن زملائه العاملين في البقالة الكورية، كانوا يضاعفون الشائعات أثناء فترات استراحاتهم بين القيام بمهمة تسليم وأخرى. كانوا يخترعون حكايات كثيرة، ليس حول السيدة إكس وحسب، ومن بين الشائعات المفضلة لدى الشبان الموزعين، هناك حكاية عن يهود أرثوذكسيين، يطوفون ليلًا في الحيّ، يقال بأنهم ينتمون إلى جماعة سرية متصوفة، تجتمع في مبنى المسرح القديم المهجور في شارع تريس ريوس. يقال بأنه يمكن رؤيتهم على ضوء الشموع ليلًا، عبر النوافذ المتسخة، بقبعاتهم السوداء الكبيرة. يُروى أنهم كانوا يقومون بطقوس مخيفة في ذلك المكان، وأنهم يقدمون الأطفال والحيوانات كأضاحي وقرابين. كان الموزعون العاملون في البقالة الكورية جهلة ووحيدين، ليس

لديهم صاحبات، ولهذا، ومن أجل تمضية الوقت، كانوا يخترعون حكايات لا رأس لها ولا أقدام. وإلا، فوفق منطقهم، فإنهم هم أيضًا ينتمون إلى جماعة سرية (جماعة العزاب بلا أمل)، بينما هذا الشاب الموزع لم يكن مثلهم، لأن لديه خطيبة، حسب ما أكد في إفادته.

8

بعد عبور مساحة مظلمة في الحديقة، دخل أفراد الجماعة الزائرة إلى منطقة الأفاعي. مكان مُغطى، يبدو منسيًا وسط الغابة. أفاعي من شتى الأنواع تنتشر في المكان. فكرت السيدة إكس، حين وجدت نفسها أمام هذا المشهد، بأن الجنة المذكورة في الكتاب المقدس لن تكون مختلفة عن ذلك حتمًا، وفقط تتمنى ألا تكون إحدى هذه الأفاعي هي الشيطان متنكرًا لكي يغويها أو يغوي المخلوقة. كان لدى السيدة إكس مهمة لابد من إنجازها في تلك الليلة، ولن يحول أي شيء دون أداء مهمتها في درب الآلام المقدس هذا. عندها شرعت الطبيبة البيطرية بالحديث عن الأماكن الأصلية التي جاءت منها كل من زواحف نوكتوراما هذه، ووصف عاداتها الغذائية وجوانب أخرى مهمة من حياة هذه الأفاعي. كانت تسمع بين الزائرين تعبيرات عن الرضا والفضول، فيما تشير الطبيبة البيطرية إلى إحدى الأفاعي من ذوات الجرس أو أفعى جاراراكوسو السامة. ولم يكن يخفى ارتباك وخوف الزائرين عند رؤيتهم لهذه الحيوانات. بينما ظلت المخلوقة هادئة، يديها في جيوبها ورأسها ووجهها مغطّيان بالقبعة الحمراء.

عندها دخلوا في ممر أشد ظلامًا، ومغطى بنباتات السرخس. في تلك اللحظة، ظنت السيدة إكس أنها رأت أفاعي تتسلق زاحفة بحُرية بين النباتات. كانت الطبيبة البيطرية متقدمة في الأمام، توضح لهم بأنهم في الخطوة القادمة من الزيارة سوف يرون نوعًا غريبًا من ثعبان البيثون، أمهق، من بيرمانيا، وقالت أيضًا بأنه يمكن لهم لمسه ليحسوا بجلده البارد والجاف. نال هذا الاقتراح همهمات الاعتراض لدى البعض وحماسًا لدى بعض آخر. بالنسبة للسيدة إكس، فقد أثار فضولها التعرف من قرب على ثعبان بيثون أمهق، وباحت بذلك إلى المخلوقة، التي لم تبدِ أية ردة فعل. عندما دنت المجموعة من مكان الثعبان، روت لهم الطبيبة حكاية مُربي أفاعي شاب، اعتقدَ بامتلاكه القدرة على التواصل معها. كان الشاب يعمل في حديقة حيوانات في نيوزيلندا، وأخذ يتوهم أن الثعبان قد أصبح أفضل أصدقائه. هذه ظاهرة شائعة بين مُربي الحيوانات المتوحشة، كما أكدت الطبيبة البيطرية، لأن العُزلة تدفعهم لنسيان الطبيعة الحقيقة الوحشية لتلك الحيوانات. ذات ليلة، عندما كان وحيدًا في حديقة الحيوانات، دخل المربي الشاب عاريًا تمامًا في كهف كان يعيش فيه ثعبان البيثون الأمهق البيرماني، وفي اليوم التالي، عند اكتشاف الملابس التي بقيت في الخارج، اضطرت المسؤولة عن حديقة الحيوانات إلى التضحية بالثعبان الذي التهم المربي في الليل. استخرجوا جسد الشاب من جوف الثعبان كاملًا تقريبًا، ومغطى فقط باللعاب الهاضم. حزينًا على موته... بدا الشاب مبتسمًا. تعالت صيحات كل افراد المجموعة معا، معبرة عن الاشمئزاز. ضغطت السيدة إكس على كف المخلوقة. وأضافت الطبيبة بأنه لا داعي للقلق، لأن ثعبان البيثون الأمهق

البيرماني، والذي هم على وشك رؤيته، هو حيوان مدجَّن ومعتاد على رؤية البشر، مع أن له عاداته الليلية. التمعت عينا المخلوقة، عندما ترجمت لها السيدة إكس ذلك. حسب ما أكدت مدبرة المنزل في إفادتها. كان ثعبان البيثون الأمهق البيرماني مُلكًا لسيرك، وقد تبرعوا به لحديقة نوكتوراما كي يعتنوا به. حدث ذلك بعد منع استخدام الحيوانات في استعراضات السيرك. في تلك اللحظة ازاحت الطبيبة البيطرية حزمة أغصان، فاستطاع الزوار رؤية الثعبان الأبيض ملتفًا على نفسه. كان طوله سبعة أو ثمانية أمتار تقريبًا، وفق تقدير السيدة إكس، أو ربما أطول. كان عملاقًا. استجابة لطلب البيطرية، اقترب فتى، كان في مقدمة المجموعة، ولمس بكفه رأس الثعبان، فرفع الحيوان رأسه. ثم كرر زائر آخر عملية اللمس... وهكذا توالى الجميع على الاقتراب وملامسة ثعبان البيثون الأمهق البيرماني. وعندما فعلت السيدة إكس ذلك، اقتربت معها المخلوقة وأرادت تقليدها بلمس الثعبان بقفازيها، ولكن ثعبان البيثون الأمهق البيرماني رد بحركة مفاجئة، هرب من بين يدي البيطرية وانزلق مختفيًا بين النباتات الكثيفة في عمق الحديقة.

قال الشاب موزع الطلبات لزملائه في البقالة الكورية أن لديه صاحبة، ولكنهم كانوا يعرفون بأنه يكذب، ويسخرون منه في غيابه. كان الشاب الموزع خجولًا، ومع ذلك فقد حاول أن تكون له صاحبة، ولكن المشكلة، أنه في كل مرة يقترب فيها من فتاة، ينتهي الأمر بأن تسخر منه البنت، وكان ذلك يؤلمه كثيرًا ويُشعره بأنه أقل من إنسان، كما لو كان حيوانًا، حسب ما أوردَ في إفادته. من خلال عمله في البقالة، كان يكسب بعض القروش بحيث أنه لو كانت لديه صاحبة لاستطاع

حتى أن يدعوها إلى السينما... لكن ذلك كان صعبًا. ينحدر هذا الشاب الموزع من عائلة فقيرة جدًا، جاءت إلى ساو باولو للعمل في ورشة خياطة يمتلكها عم ثري. والداه وأخواته عملوا في ذلك، بينما فضل هو العمل في إيصال الطلبات لصالح بقالة يمتلكها الشخص الذي تبنى تعميده، أبوه في العِماد. ولكي يحصل على فتاة راح الشاب يصاحب مجموعة من الشباب تجتمع في كنيسة في الحيّ. هي كنيسة القديس كيم تايغون، والتي يمولها التجار الأثرياء في حي بووم رتيرو. في صلوات القداس كانت تحضر أكثر من فتاة جميلة، وسرعان ما عثر الشاب من بينهن على التي يفضلها. فتاة باسمة، تساعد في قراءة نصوص الكتاب المقدس. وكانت دائمًا بصحبة فتيات من عمرها وفتيان من طبقتها الاجتماعية. ولم يكن ذلك ليثنيه عن عزمه، حسب ما قال في إفادته. في بيته أو في الفترات بين توصيل الطلبات، كان يحلم بتلك الفتاة، بثيابها البراقة وقَصّة شعرها. المراهقون الكوريون كانوا يرتدون ثيابًا جريئة مستوحاة من مجلات الموضة اليابانية. والفتاة، لم تكن تملك مالًا وحسب، بل هي ابنة عائلة تعمل في قطاع صناعة الملابس، لذلك كانت ترتدي ثيابًا ملفتة للانتباه. لديها تنورة قصيرة مطرّزة بخرز لامع، عادة ما ترتديها في اجتماعات التمرن على الأناشيد الدينية، وتلك التنورة كانت تخلب لب الشاب، وتحت شراشِف سريره ليللًا، كان يتخيل نفسه وهو ينزع تلك التنورة عن فتاة كنيسة القديس كيم تايغون، ويمارس الجنس معها.

أول معرض عالمي لرسوم نمر الثلوج - الحلقة الثانية، والتي فيها نمر ثلجي شاب، يتعب من عزلته في الجبال فيقترب إلى البشر... وإن بشيء من التقزز.

كان ياما كان، نمر ثلجي يعيش وحيدًا في قمة ثلجية في التبت، أو ربما في روسيا، نعم، أظن أنه في روسيا. كانوا قد اصطادوا جميع أفراد عائلته، واستطاع هو فقط، بفضل شجاعته وشبابه، البقاء في تلك الأماكن البعيدة والمنسية من قبل البشر. لم يجد نمر الثلوج بدًا من صيد الفئران والطيور التي كانت تجوب الصخور الساخنة بفعل الشمس، بينما تذوب الثلوج عنها. هكذا يمضي صيف ويأتي شتاء آخر فيشعر نمر الثلوج بالوحدة أكثر عامًا بعد عام، وذات يوم تعرف على الثعبان، وبما أنه لا يشتهي مطلقًا أن يأكل الثعابين ((تثير اشمئزازه))، قرر أن يفتح حوارًا معه. وعلى أن مظهر الثعبان مقززًا إلا أنه كان محاورًا بارعًا، إضافة إلى كونه حكيمًا. كشف لنمر الثلوج كم هي حياته عبثية، على قمة هذا الجبل برقبة مغموسة في السحاب. ففي نهاية الأمر ثمة متع أكثر إثارة من مجرد مشاهدة كيف تذوب الثلوج وكيف تسخن الصخور، كيف تهطل السماء ماءً، كيف يتجمد الماء، كيف تغطي الثلوج الأرض، ثم كيف يعاود الذوبان والتبخر والهطول والتجمد والذوبان مرة أخرى. الحياة ليست هذا التكرار الممل وحسب، فبإمكان نمر الثلوج مشاهدة البشر الذين يعيشون في المخيم المقام على سفح الجبل من الجهة الشمالية. استيقظ فضول النمر الشاب فورًا. بشر؟ فكر. ولكن البشر بالغي الخطورة.

جدي كان يحذرني دائمًا من الاقتراب منهم. جدي الذي قتله أحد البشر، بالمناسبة، كي يسلخ جلده. جدي الذي كان شارد الذهن، أثناء تنزهه، عندما اقترب كثيرًا من البشر. فقال الثعبان: لقد ذهب جدك نحوهم لأنه كان لابد أن يفعل ذلك، ولم يكن لديه خيار آخر. لأن ذلك هو قدرنا: عاجلًا أو آجلًا سوف نقترب من البشر. والآن، حان الوقت كي تراهم أنت من كثب. إنهم عَرض مسرحي بحق. سوف تراه بنفسك. إن رؤيتهم وهم يعانون من أفعالهم الخسيسة ويمارسون عنفهم الصغير وقسوتهم الكبيرة، سيمنحك متعة لا نهائية. وأضاف الثعبان: بعد أن تعرفهم، وتتأمل مشهد بؤسهم، سوف يبدو لك هذا الجبل المتجد بأنه أكثر الأماكن مللًا في الكون، أراهنك على ذلك.

وهكذا كان الأمر. ذات يوم وبعد هطول ثلج خفيف، نزل نمر الثلوج من أعلى جبال ألتاي حيث كان يعيش. نزل وهو يقدم ساقًا ويؤخر أخرى، أو الأصح يقدم قائمة ويؤخر أخرى، متخفيًا وسط بياض الثلوج التي كانت تغطي كل شيء على مد البصر. لا أحد يراه، فراح يراقب الحياة اليومية للمخيم. دخان المواقد الذي كان يشكل رسومًا في السماء، الأطفال وهو يروحون ويجيئون، يستمتعون حول النيران. النساء وهن يُذبن ماء الجدول المتجمد بواسطة مشاعل كبيرة، ويملأن براميلًا أكبر من أحجامهن. من أين يأتين بكل هذه القوة لفعل ذلك فيما مظهرن يبدو بالغ الهشاشة؟ الرجال وهم يعودون من الصيد دون الغذاء الكافي لإطعام كل القبيلة. الأطفال وهم يضمرون ويضمرون. العجائز الذين يتم دفعهم نحو هامش العوز كي يموتوا، ويتم الخلاص منهم. رجال يصحون أكثر عنفًا ودموية وجشعًا. نساء

تذبل وتذبل شيئًا فشيئًا. إنه أمر غير معقول، إصرارهم العبثي هذا على محاربة حيوانيتهم السحيقة... هذه الكائنات المغرورة والمدَّعية. كان ذلك بالفعل ممتعًا جدًا جدًا. كان الثعبان على حق تمامًا، فمشاهدة البشر متعة مضمونة. لا شيء مما يفعلونه له معنى. ولكن ذات يوم، سمع نمر الثلوج ضجة غريبة صادرة عن إحدى خيم المخيم، صوتًا حادًا وكئيبًا، وسماعه يشيع في نفسه حزنًا شديدًا. يأتي الصوت من خيمة تبعد عن بقية الخيم، حيث تعيش امرأة وزوجها وابنهما. خارقًا كل قواعد النجاة التي علمه إياها جده، اقترب نمر الثلوج ببطء ونظر إلى ما كان هناك في الداخل. رأى طفلًا ممددًا على فراش من جلد الغَنم، وأمه جالسة بجانبه. كان الطفل ميتًا، والضجة الغريبة التي جذبت انتباه نمر الثلوج، الآن يستطيع تبينها، تخرج من أعماق حنجرة المرأة، صرخة ذات جمال عظيم لا نهائي، تصل مباشرة إلى قلب نمر الثلوج: كانت تغني.

9

إن الأساطير التي كان الشاب الموزع يحكيها للسيدة إكس حول المنزل الكبير قد شدتها، فمنذ وصولها كانت صور اليهود العديدة المنتشرة على كل جدران المنزل تبث في نفسها الرعب. على بعض البلاطات ودرجات السلم الخشبي الكبير كان بالامكان رؤية رموز منحوتة، هي في الأغلب علامات، على ما يبدو باللغة العبرية. وكانت مدبر المنزل تشير بعلامة الصليب في كل مرة تعبر فيها بجانب أحد

تلك الرموز. في المكتبة، هناك رموز أخرى مؤطّرة، وواحد منها يمثل جسدين ذكريين عاريين ومترابطين بعباءة واحدة. الرجل الأبيض واقفًا على قدميه، أشعث الشَعر، كان يعيد النظرة بثبات إلى الناظر إليه، في حين لا يمكن رؤية وجه الرجل الأسود، الذي كان واقفًا على رأسه ومواليًا ظهره للناظر. وضعُ الجسدان كان يذكر بحرف إكس X وأعضائهم التناسلية متلامسة، حسب ما أكدت السيدة إكس في إفادتها. تلك الصورة كانت بذيئة جدًا، بحيث أن مجرد رؤيتها كانت تؤذيها، لذا تتعمد إيهام نفسها بعدم وجودها، ولكنها لا تنجح دائمًا في ذلك. أحيانًا، وعند نفضها للغبار عن الرفوف، تقع عيناها على عينيّ الرجل في الصورة المعلقة على الجدار والتي تبدو وكأنها تسخر منها، عندها تذكُر السيدة إكس الرب وتخرج من المكتبة. راحت المرأة تتساءل فيما إذا كانت تلك الرموز تتعلق بالأساطير التي يرويها الشبان، موزعي بضائع البقالة الكورية، عن اليهود واجتماعاتهم السرية في المسرح المهجور في شارع تريس ريوس، عندئذ لمحت السيدة إكس كتلة في نهاية الممر العلوي المؤدي إلى غرف النوم: لم تكن سوى ظل، ولكنها تستطيع رؤيته يتحرك. متغلبة على خوفها، قابضة بكفها اليمنى على الصليب المعلق على صدرها، اقتربت السيدة إكس من الكتلة. كان العمق المعتم للمر يتداخل مع ورق الجدران الرمادي، ومع ذلك فقد انتبهت إلى أن الظل كان يسير نحوها أيضًا، ويزداد حجمًا. في منتصف سيرها أدركت السيدة إكس أن تلك الكتلة المتحركة لم تكون سوى صورتها منعكسة في المرآة التي في عمق الممر.

كان سائق التاكسي في طريق عودته إلى حديقة الحيوانات عندما بدأت الكلاب تتشمم وتنبح في المقعد الخلفي للسيارة. سلوكها هذا لم يكن معتادًا، فعندما كانوا يخرجون للتنزه، كانت عادة الكلاب أن تظل هادئة حتى وصولهم إلى وجهتهم. في تلك المرات، كان يروق لسائق التاكسي تخيُّل أن الكلاب مركّزة على حفلة الصيد التي على وشك الحدوث... وكأنها تتخيل المستقبل بصمت. حاضرة في أذهان الكلاب صُور قط أو أرنب بري أو عنزة، بحيث يمكنها التكهن بالحركات التي ستقوم بها فريستها عند محاولتها الهَرب، وهكذا يمكنها سبق الحدث. لذلك تلتزم الصمت. لم يكن هناك حيوان يستطيع الصمود أمام كلابه الروت وايلر. لكنها في تلك الليلة كانت قلقة. نعم، كان القمر مكتملًا أكثر من أي ليلة أخرى، وهذا يؤثر على الحيونات، كما صرح سائق التاكسي في إفادته. لكنها لا تنبح عواءً خارج نوافذ السيارة، إنها تلهث بمواجهة فِراء المقعد الذي أوشك على التقطع. وهو ما لا يمكن أن يحدث. إن تناهى إلى الجمعية خبر أنه يقلّ حيوانات في سيارته الأجرة، فعمله إذن في خطر. أمام هذا الاحتمال، أوقف السيارة على جانب الطريق. لكن الكلاب وكأنها لم تنتبه إلى أن مالكها قد رَكَن السيارة، وواصلَت الاحتكاك بالمقعد في دوائر وهي في حالة هياج خارج عن السيطرة تمامًا. فقط عندما نظر إليها من النافذة الخلفية، أدرك بأنها تتنافس على المقعد الذي كانت تجلس عليه المخلوقة.

ذات ليلة، وبينما كانت تنظف المخلوقة وتروي لها مغامرات جديدة عن نمر الثلوج، انتبهت السيدة إكس إلى أن جِراح مريضتها

قد تضاعَفت. لم تكن بهذا العدد ولا بهذا العمق من قَبل، فباستثناء الجرح في جبهتها والذي لم يلتئم قط، لم تكن جروحها تنزف بهذه الغزارة. لكن القروح الجديدة اكتسبت شكل الغرغرينا في دقائق قليلة، بلون قرمزي غامق يشبه لون الدم المتخثر. الملاءة التي نزعتها من فراش المخلوقة الصغيرة كانت مثل قطعة شاش يلف جرح نازف. شَعَرت بالذعر من كم الدماء، وفكرت السيدة إكس باصطحاب المخلوقة إلى أحد المستشفيات، فهذه الحالة غير المسبوقة تتجاوز بمراحل معارفها التمريضية. تحتاج استشارة طبيب. تحتاج معدات عيادة حديثة وليس تلك الأدوات القديمة الصدئة التي في حوزتها. ولكن المخلوقة، عند سماعها لهذا الاقتراح، اعترضت. لم تكتب على قصاصة ورقية مثلما اعتادت أن تفعل عندما تحتاج لطلب شيء، وإنما فقط، أطلَقت تأوهًا عميقًا ومتألمًا، وتثاءبت مما سمح برؤية أنه لم يعد لديها لسان. فَزعت السيدة إكس -لا شيء يضايقها أكثر من رؤية استفحال حالة المخلوقة المرَضيّة- وتذكرَت حينها، أن العَقد الذي وقَّعته مع الشركة المُتعهدة، لا يسمح بالذهاب بها إلى الطوارئ. تذكَّرت أيضًا أن في العَقدَ رقم هاتف مخصص لحالات طارئة مثل هذه. وبعد أن قامت بتغيير الملاءات، ذهبت السيدة إكس إلى الغرفة في الطابق الأسفل وبحثت عن الورقة في دُرج منضدة الزينة. كانت موجودة هناك. وعلى الفور إتصَلَت بالرقم المُدوَّن. رفع أحدهم سماعة الهاتف على الجانب الآخر دون أن يقول شيئًا. استطاعت مديرة المنزل سماع التنفس الآخر في السماعة، فأخبرته بما يحدث معها. لكنه أغلق الهاتف. بعد مضي خمسة عشر دقيقة، رن جرس مدخل المنزل. فتحت السيدة إكس الباب، فدلف رجلان

في صمت، يتبعهم رجل عجوز له نظرة بشوشة وحواجب بيضاء كثّة. إنهم يعرفون المنزل جيدًا، فما أن أغلقت مديرة المَنزل الباب حتى صعدوا إلى الطابق الثاني ودخلوا إلى غرفة المخلوقة. انتظرت السيدة إكس في الخارج، في الردهة. بقي باب الغرفة مغلقًا. مرت ساعة، ساعتان. عندئذ فتحوا الباب، وخرج الرجال الثلاثة -يهود، يرتدون بذلات سوداء وقبعات قطيفية مثل تلك التي كان تستخدمها قديمًا شعوب القوقاز، ومماثلة لملابس الرجل في الصور المؤطَّرة في الصالة- هبطوا إلى الطابق الأسفل بسرعة. لم تستطع السيدة إكس منع نفسها من ملاحظة أن الرجل العجوز، الذي يبدو أنه الطبيب لأنه يحمل حقيبة أدوات، يعرج. بالتأكيد عمره أكثر من تسعين عامًا. عندما دخلت السيدة إكس إلى غرفة المخلوقة، لاحظت أن المسكينة بحال أفضل وأنها نائمة. تفوح في أرجاء الغرفة رائحة تشبه رائحة الكافور، لكنها أدركت بعد ذلك، أنها رائحة نفّاذة لعطر من الزهور.

10

للتقرب من الفتاة التي ترُوق له، انضم الفتى، مُوزِّع الطَّلَبات في البقالة الكورية، إلى مجموعة من الشباب في كنيسة القديس كيم تايغون. وحال خروجه من أول قراءة لمقاطع من النص المقدس، أدرك بأن لا شيء مشترك بينه وبين أعضاء المجموعة. فآباء باقي المراهقين يمتلكون سيارات باهظة الثمن. وما أن يختفي الفتيان في الداخل المظلم لسيارات الدايو والكيا، يبقى الفتى موصِل طلبات

البقالة وحيدًا على رصيف الكنيسة. من أجل الوصول إلى منزله في حي (باري)، عليه أن يستقل حافلتين. وعند وصوله، ينتظره طبق الحساء في الفرن. إن وضعه ليس سيئًا للغاية، فالعالم يمكنه أن يصبح أسوأ بكثير، كأن يضطر مَثلًا، للعيش مع عَمّته بعيدًا عن هذه المدينة، وهو يمقت تلك العجوز. لكنه سيتحمل أي شيء، ابتداءً بحساء الصويا عديم الطعم هذا وحتى عمله المتواضع في محل البقالة، سيحتمل كل شيء، بما في ذلك العيش مع عمته، فقط لو استطاع غزو قلب فتاة كنيسة القديس كيم تايغون. في طريقه إلى محطة الحافلة، مرّ الشاب من أمام منزل شارع (تلمود توراة). كانت نوافذ الطابق الأعلى مفتوحة والمصابيح مُضاءة. توقف أمام البوابة الكبيرة وبقي عدة دقائق يراقبهما. من خلال نافذة الصالة الكبيرة، تمكن من رؤية شخص بحجم طفل، بالتأكيد هو الشخص نفسه الذي تشير إليه حكايات زملائه مُوزعيّ الطَلبات. يبدو من خلال ظله أنه يرتدي معطفًا له قبعة، وحذاء عالي للأمطار... حتى داخل المنزل. ووفقًا لطوله، يبدو أن عمره لا يتجاوز العشر سنوات، لكن ثمة أمر غريب فيه، لا يستطيع الفتى المُوَزِّع أن يجزم بماهيته، كما أكد في إفادته، وإن كانت حركاته لا تبدو لطفل، فقد بدا للشاب أنه رأى ذيلًا ملتصقًا بظله. أيكون كلب؟ إن استمر واقفًا هنا دقيقة أخرى، سوف يفقد الحافلة. لحظتها، رأى الشاب عبر نافذة الدَرج السيدة إكس تصعد. نظر مجددًا إلى نافذة الصالة في الطابق الأعلى، وفهم ما الغريب في المخلوقة: فجسدها يبدو لعجوز ذابلة، وليس لطفل، ربما باستثناء طولها. كانت تتحرك ببطء كما لو أن المشي يؤلمها. بدت كما لو كانت على وشك الموت. حمَلَت السيدة إكس المخلوقة. نظر الفتى إلى ساعته... عليه

أن ينتظر الحافلة القادمة.

في الصباح التالي، وبينما كان الفتى موزع طلبات محل البقالة الكوري يقوم بإيصال إحدى الطلبيات إلى شارع (تريس ريوس)، رأى يهوديين اشتبه فيهما، يدلفان إلى مبنى المسرح القديم المهجور. يرتديان أسمالًا، على عكس بقية يهود الحيّ، ويسيران مسرعان كما لو أن «إيليان» أو «المُفترس» يتعقبهما. شَعر الشاب الموزّع بالقشعريرة عند مروره أمام هذا المبنى، فرائحة العفونة تسبب له حساسية والتهاب الأنف، لكنه قرر تتبعهم على أية حال. في تلك الأثناء، كان رفاقه في البقالة منشغلين بتبادل حكايات عن يهود مجانين. يُحكى أن في حي (بووم ريتيرو) تم اعتقال رجل معروف باسم الحاخام. حتى أن الأمر نُشِر في الصُحف. هناك أَمْر بالبحث عنه في إسرائيل بتهمة تعذيب الأطفال واستغلالهم جنسيًا. كان الإسرائيلي حاخامًا مزيفًا، بالطبع، وتم اعتقاله مع اثنين من تلاميذه. يؤكد عمال البقالة بهوَج أن هناك أتباعًا آخرين لهذا النبي المزيّف خارج السجن، وأن بعضهم يتجول بالقرب من هنا متخفّيًا في متاهات الحي القذرة. قال الحاخام للشرطة أن الشيطان كان متلبسًا أرواح الأطفال، وأن كل ما فعله هو تطهيرهم منه. ولتطهيرهم كان لا بد من ضربهم، وربطهم، وكويهم وإجبارهم على تناول فضلاتهم. كان المجرم من أكثر المطلوبين للعدالة في إسرائيل حيثُ أجبَر ثمانية أطفال على المرور بكل هذا. أحدهم ما زال في حالة غيبوبة بسبب التعذيب. قالت الصحف أن حاخام الشيطان هذا، نجح في تجنيد أربعة أتباع له في ساو باولو، وأن إثنين منهم لا زالا طليقي السراح. بينما كان الفتى الموزع يختبئ بين

مقاعد المسرح المتهدم، فكر في أن المجرمَين الهاربَين، ربما يكونا هما هذان الرجلان اللذان اختفيا في الغرف الخلفية للمسرح. استمر بالاختباء وهو يصعد إلى مقصورة جانبية منتظرًا ظهور المجرمين. بعد مضي وقت، ظَهر الإثنان على المسرح المتهدم. يتهامسان فيما بينهما بكلمات بالعبرية. يتحدثان. يبدو عليهما الفقر، وملابسهما الممزقة تثير الشفقة. أشعلا شمعة ووضعاها على أحد الصناديق في منتصف المسرح. ثم فتحا علبة سردين وألتهماها في الحال. بدا له أن الرجلين مسكينين وهما بانتظار أمر لا يصل أبدًا. كانا شاحبان، ظلال ذقانهما السوداء تستطيل في انعكاسها على جدار المسرح القديم المهجور. بعد أن أكلا، شرعا بالحديث بصوت يرتفع تدريجيًا، لكن موزع طلبات البقالة الكورية، لم يستطع فهم ما كانا يقولانه طبعًا. فجأة، أخرج أحدهما ورقة من جيبه وبدأ بتكرار ما قاله سابقًا، بالوقفات نفسها وتغيير نبرات الصوت. عندئذ فكر الفتى الموزع في أنهما، ربما فقط، ممثلان يتدربان.

كانت الجولة الليلية في حديقة الحيوانات قد بدأت منذ أقل من نصف ساعة. قلقة على حالة المخلوقة، قامت السيدة إكس بحملها عند اجتيازهم للدروب الأكثر مشقة في الغابة، لهذا، كانتا الأخيرتان في الصف الطويل. عند مرورهم عبر منطقة مظلمة تحجبُ الأشجار فيها السماء، تذكرت السيدة إكس فيلمًا شاهدته في شبابها، يحكي قصة امرأة ضلت طريقها في الغابات الإفريقية، وعندما تم إنقاذها في النهاية، وعكس المتوقع، أقدمَت على الانتحار. لم تستطع قط فهم تناقضات تلك المرأة. كان الأمر يبدو وكأنه جزء من مجموعة رحلة

سَفاري. بأمر من البيطرية الشابة، توقف الجمع عن التقدم. طلبَت منهم أن يلتزموا الصمت ويحاولوا الإنصات لأصوات الطبيعة، لصفير الطيور والخفافيش، لزحف الحيّات والسحالي ولحفيف الأشجار والرياح في حديقة «نوكتوراما». قالت السيدة إكس أن البيطرية كانت تتقمص تلك النغمة الملحمية وهي تتحدث، تبدو كممثلة متواضعة المستوى. استجاب الجميع لطلبها. كان الأمر مُدهشًا، أنه من هذا المكان لا يستطيعون الاستدلال على أية علامة تشير إلى وجودهم قريبًا من مركز المدينة الأكبر في القارة. لا أصوات لسيارات أو لطائرات مروحية، ولا دليل على وجود بشر آخرين غير الموجودين في المكان. وليس ثمة ما يشير إلى وجود العالم المتحضر سوى أزيز طائرة بعيدة. والنجوم، نعم، النجوم. لا أحد يطاردها. وضعَت السيدة إكس المخلوقة على الأرض، وسمعت صوت ارتطام حذاءها الخفيف بسجادة الأوراق الجافة في الأرض. كانت السيدة إكس على يقين من أنه لا وجود لصمت أشد من هذا، وتوقف الزائرون عن اللهاث ولو لثانية واحدة، سيمكنها من سماع قلب المخلوقة وهو يخفق بالوتيرة ذاتها مع قلب نمر الثلوج الموجود على بعد كيلومترين في داخل الحديقة.

3

الطَبّاع:
مكالمات هاتفية

في منتصف الليلة التي كنت أُدون فيها الإفادات، خطرت على بالي فكرة مريضة: ماذا لو كانت تفاعلات الأيض في جسم أبي تتكيف مع المهدئ الذي أعطيه له، وبالتالي تقل فعاليته فيستيقظ بينما أنا في العمل؟ إن الفضيحة التي أثارها، في مركز الشرطة 77، وجود المشتَبه بهم في «قضية النزهة الليلية» كما أسمتها الصحافة، قد شوّشت على تفكيري، ولم يخطر لي هذا الاحتمال إلا حين ذهبت إلى الحمّام لأغسل وجهي وأتناول حبتين من دواء إيفا-نوركس لتخفيض الوزن. إذا كان العجوز مستيقظًا فباستطاعته الخروج من المنزل والاختفاء في شوارع الحيّ. باب البيت مغلق بمفتاح، ولكن هناك مفتاح آخر معلّق على الجدار بالقرب من القفل. قلقي يبدو طبيعي، بما أن العجوز يكرر بين الحين والآخر، إحدى عاداته القديمة، مثل فتح الباب الصغير للقط أو مراقبته إن كان قد انتهى من تناول صحن الحليب. لا شيء يمنعه من أن يستيقظ ويأخذ المفتاح ويفتح الباب ويختفي. لوهلة، فكرتُ أن ذلك هو الأفضل. فحينها لن يكون عليّ أن أنظف مؤخرته ولا أن أحكي له قصصًا كي ينام ولا أن أشهد الموت البطيء لكل واحدة من خلاياه العصبية، أو أن أشم رائحة احتراقها. وبما أنه، ما زالت هناك ساعات متبقية على انتهاء دوامي، قمتُ، مدفوعًا بحدسي بحدوث شيء خطير، بالاستئذان من رئيس العمل لمغادرة مركز الشرطة مبكرًا، وفي الخارج قمتُ بتجنب مراسلي الصحافة النائمين على الرصيف. تحت ظلال شجرة المانجو الماثلة أمام مبنى المركز، كان هناك جمع من الخفافيش يقتات على بقايا الفاكهة المتعفنة. عندما هبطتُ دَرج المترو رأيت هالة الأنوار الصناعية التي تضيء الأنفاق، وأدركتُ حينها أن الشمس لا تسطع

أبدًا في هذا المكان. في محطة (تيرادينتيس)، كانت قمم الأشجار الكثيفة تتقاطع مع ضوء أعمدة النور، فتخفي أحجار الطريق المُعبّد وتجعله أكثر ظلمة وخطرًا. عند نقطة المراقبة، التي كانت عبارة عن عربة نقل مركونة في عمق الميدان، تمامًا في نقطة التقاء عدد من الحارات التي يتخذها المدمنون كمخابئ في أيام الصيد، تعرفت على بعض الزملاء من الشرطة. حييتهم بإيماءة، وواصلتُ السير مسرعًا في طريقي. ندمتُ على عدم إخفاء المفتاح. لا أعلم تمامًا لماذا لم أخبئه! ربما خوفًا من اندلاع حريق، أو ربما كي يجده العجوز فيختفي ويتركني أخيرًا، أعيش في سلام.

عندما وصلت إلى البيت كان مصباح السلّم مطفئًا. ولكن، كيف وأنا أتركه مضاء دائمًا؟ صعدتُ السلم درجتين درجتين، وعندما وصلتُ إلى آخره جربت زر النور. لا يعمل. إذن ربما المصباح محترق. كلفني العثور على مكان القفل في الظلام جُهدًا. كان القفل مغلقًا: لم يخرُج العجوز أو ربما خرج وأغلق الباب بالمفتاح. فتحتُ الباب. كل شيء هادئ. في الداخل، لم يكن المفتاح الآخر معلقًا في مكانه. توجهتُ إلى غرفة العجوز حابسًا أنفاسي، وفي الطريق، اصطدمت ركبتي بحافة المائدة التي في المنتصف. كانت الضربة قوية بحيث أنني صرخت. الصمت الذي تبع شدة تأوهاتي بدا لي مُقلقًا أكثر. لكن العجوز ما زال نائمًا في فراشه، في الوضع نفسه الذي تركته عليه في الليلة السابقة، عندما انتهيت من قص الحكايتين الأخيرتين من «قضية النزهة الليلية». لا أثر للمفتاح على أرضية الغرفة أو على المكتب. أطفأت المصباح ثم سَقطتُ واقعًا على الأريكة، حاملًا كأس ويسكي

في يدي. تناولتُ حبة أخرى من الإيفا-نوركس. أنا على استعداد للتبرع بالعلاوة المضافة إلى راتبي، مقابل عشر ساعات من النوم، أو سبع، أو ربما حتى خمس تساوي ذلك. ولكن من سيعتني بالعجوز؟ بالإضافة إلى أنني لم أقبض يومًا أية علاوة. لا يمكن الوثوق في هذا البوليفي الغبي الذي يعمل في محل البقالة. هل كان بوليفيًا واحدًا فقط أم العديد منهم؟ ربما ترك البوليفي الأول عمله لأحد أبناء عمومته العاطلين عن العمل، وهذا الأخير تركه لابن عم آخر، وهكذا تباعًا. لابد وأن كل السكان الذكور في مدينة سانتا كروث دي لا سييرا قد مروا على مائدة عرض البقالة. كل البوليفيون متشابهون، والكوريون أيضًا، والسود، واليهود. أنا الوحيد الذي لا يشبه شخصًا آخر، ولا أشبه حتى نفسي. نظرتُ إلى جدار الممر: أمي العجوز ما زالت تختفي في الصورة الشبح. بعد مرور وقت قليل لن تصبح أكثر من مجرد خيال ملطّخ في الصورة. تذكرتُ تلك الليلة من طفولتي، حين بدأ الأرق يخطو خطواته الأولى. كان شتاءً قاسيًا على المدينة، الأكثر برودة في الأربعين سنة الأخيرة، بعد فترة وجيزة من إهداء الدكتور غلاس لي، كتاب تاريخ كواناه باركير والهنود الكومانتشي. كنتُ أبقى مستيقظًا حتى وقت متأخر، ومعي مصباح يدوي مضاء تحت اللحاف، كخيمة التيبي، أتأمل غاضبًا كيف يختفي ثور الجاموس من الكتاب. لو أن أمي اكتشفتني، كانت ستلومني بالتأكيد، لأنه كان عليّ الذهاب إلى المدرسة في الصباح ولابد أن أستيقظ مبكرًا. في تلك الليلة، تناهت إلى سمعي جلبة مكتومة في الممر. تلصّصتُ من خلال فرجة الباب الموارب، فرأيت أبي أمام المشجب، كان يلبس المعطف والقبعة. بعدها، هبط السلم ببطء متجنبًا الدرجات التي تُصدر صريرًا، كي لا يوقظ أحدًا.

من خلال نافذة غرفتي، وتحت ضوء عمود النور أمام المنزل، رأيته ينظر إلى الأعلى، كأنه يريد التأكد من أن لا أحد يراقبه. رآني تقريبًا. وحينها اختفى في ظلمة جوف الشارع. في الصباح التالي، كان على مائدة الإفطار صامتًا كالعادة. بينه وبين أمي ليس ثمة أثر للرحلة الليلية. في الليلة التالية، بقيتُ مترقبًا لحدوث رحلة جديدة، ولكن لم يحدث شيء، فقط، هرب مني النوم وذهبتُ متأخرًا إلى دروسي. غفوتُ في المدرسة فوق المكتب، وأخبرَت المعلمة أمي بذلك. نلتُ بعض ضربات النعال. فجرًا، تفاجأتُ بأبي يخرج مُجددًا. كرّر طريقته في تجنب درجات السلم التي تُصدر صريرًا، فتبعته، ولكنني لم أستطع تقليده. دستُ على الدرجة قبل الأخيرة، الأكثر إزعاجًا بينها جميعًا، وبما أن ساقيّ قصيرتين، لم أستطع قفز الدرجتين الأخيرتين، فتم اكتشافي، ونلتُ الضَرب ثانية من قبل أمي، في ذلك اليوم المشؤوم، ودافئًا بشكل جيد، تمكنتُ أخيرًا من النوم. لابد وأنني قد حلمتُ في تلك الليلة أنني محارب كومانتشي أهانته امرأة عجوز وأُجبر على تنظيف فضلات الحصان. في الصباح التالي، لا شيء: كان الأمر كما لو أنه لم تكن هناك ليلة سابقة. خلال الأسابيع والشهور التالية، ظللتُ أُرقب تلك التحركات، حيث استمر العجوز بروتينه المسائي النشط، إلى أن مللتُ من هذا الذهاب والإياب، ولم يعد السر يثير اهتمامي، هذا إن كان ثمة سِر أصلًا... إلى أن تركتُ أنا المنزل.

عندما فتحتُ عينيّ، فزعت. كانت الساعة تشير إلى 03:33 فجرًا. كنت قد غفوتُ أقل من خمسة عشرة دقيقة. بلّل الويسكي المنسكب بنطالي. ذهبت إلى الحمّام. وفي الطريق، تعثرتُ بالكوب الذي سقط

أرضًا. وجدت مفتاح الباب في الحمّام. كنت قد خبأته -في تشوّشي الذهني النابع من الأرَق- ولكن عن نفسي فقط. قلقي من هروب مفاجئ للعجوز، لا أساس له من الصحة: فقد كان بإمكانه رؤية المفتاح هنا بسهولة، حيث تركته مرميًا. بقيتُ لبرهة أفكر في الأمر، وأدرس حالاتي في المرآة، أتفحص التجاعيد التي تبدأ من عينيّ وتمتد صفراء عبر وجهي الموسوم بشرايين زرقاء صغيرة، حيث تبدو الدماء متجمدة وثابتة: بشرتي الآن، أكثر بياضًا من السابق بفعل عاداتي، (في الصِغر كانت بشرتي أكثر سمرة)، ولكن، دون أن تصل إلى مستوى لون بشرة أمي، لم تكن سوداء، وإنما تنتشر فيها بقع نمش سوداء، إبطيها وثدييها وفخذيها أغمق؛ تحت مصباح المرآة الخافت، بدت جبهتي ووجنتي بيضاء أكثر من اللازم، مثل أبي ربما؟ أو على الأقل مثلما كانت جبهة ووجنة العجوز قبل أن تستولي على جسده بقع الشيخوخة التي بدأت بالظهور على قِفا كفيه ثم اتسعت لتحتل كل جلده، وكنت أراقبها من كثب بينما أغسله بالليفة والصابون أثناء الحمّامات الدافئة... كأنني كنت أتفرج مبكرًا على جلدي المستقبلي، وفق التفتح التدريجي للون وجهي، أو الاصفرار، أو الذبول، أو ربما اختفائي حيًا، مثل ذوبان أمي في صورة الممر، أو مثل تفكك نسيج وانسلال خيوطه. تدهور بدأ بنقص الميلانين، بدأ بحَب الشباب في سن البلوغ، واستمر بأمراض أخرى كالتهاب الجلد الدهني في فروة رأسي، التي لم تعد مُشعِرة بشكل كبير، وبان الصَلَع. قِلة الشَعر «الساراارا» الذي تبقى عندي، علامات العَجز، الاكزيمات، التهابات الجلد والثآليل في الذراعين والركبتين، كلها علامات على التآكل المستمر التي يتعرض له الجسد منذ ميلاده، تضاف إليها علامات الحروق والندوب وآثار حوادث

شتى، (وآثار تناقضاتي وقلَقي وهشاشتي، كما كانت تقول زوجتي السابقة)، وقد يصل الأمر إلى درجة ورَم ميلانيني خبيث سيعني موت كل ذلك، موت تلك الخريطة التي هي خريطتنا الفريدة، جسدنا خريطة جلدية تحدد الطرق التي مشيناها، الانحرفات التي سلكناها بالخطأ، والتي ستختفي في النهاية، تحت الأرض أو يتم حرقها مع مصيرنا الذي يقع خارج الخريطة، والذي نجهل أجَلَه ومكانه، نعلم فقط بأنه لا يمكن تجنبه، خريطة تختفي مع المكان الذي تمثله. حين كنت في أوج تفلسفي، رن الهاتف. كان الوقت متأخرًا أو مبكرًا جدًا. كان من المناسب أن يرن في تلك الساعة.

رن الهاتف مرّتين أو ثلاث. وفي الرنة الرابعة، قفزتُ نحوه. تُرى مَن يتصل فجرًا؟ لابد وأنها أخبار سيئة. لا جديد يمكنه أن يجعل الوضع أسوأ، بالعكس: كنت أنتظر بفارغ الصبر أن يأتي خبرًا سيئًا ليحسن كل شيء. ومن المؤكد أنه لا مفاجأة ستأتي من خارج شقتنا في شارع (غواراني)، باستثناء أن تكون قد وقعت كارثة في الطابق السفلي، غرق محل البقالة أو حريق في مركز الشرطة 77. أيكون البوليفي أو أبناء عمومته البوليفيين؟ ثمة شاب بوليفي أو أكثر من واحد؟ إن كان هو، ستكون هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها صوته، والأدهى، عبر الهاتف وأنا لا أتحدث الإسبانية. رفعتُ سماعة الهاتف. صمتٌ على الجانب الآخر. ثم، هذا الصوت، صوت المرة السابقة نفسه، سأل الصوت عن العجوز، ذاكرًا اسمه دون إغفال أي حرف ساكن غير منطوق. لم يكن يتحدث الإسبانية هو الآخر. قلت: إنه نائم، مَن يتحدث؟ من يريد التكلم معه؟ لماذا تتصل به؟

صمت. صوت مشوّش في العمق، ضوضاء أسلاك هزتها العاصفة الكهربائية. صمت. إنها ليست ساعة مناسبة للاتصال، وخاصة في بيت رجل عجوز مريض، ها؟ صمت. لا بد أن نتحدث مع والدك. قال الصوت، الذي أصبح تدريجيًان أجشًا ومختلطًا بأصوات الآلاف من أسلاك الهاتف التي تتوتر وترتخي ثم تعود لتتوتر مجددًا: إن الأمر عاجل، عاجل جدًا. قلت: لا يستطيع الرد على الهاتف، إنه عاجز. وحتى وإن استطاع، لا شيء مما سيقوله سيكون له معنى، لأن حالته الصحية ساءت، إنه يعاني من الخَرف. صمتٌ طويل. ثم قال الصوت: إن الأمر يتعلق بالإيداعات المتأخرة، يجب أن نعرف ما هو سبب تأخر الإيداعات، فبدونها لا نستطيع الوفاء بواجبنا. قلت: ولكن، أي واجب؟ قال: ما هذا؟ الأمر يتعلق بالراتب الذي يجب دفعه، للاعتناء بكل شيء. قلت: ما هو الكُل شيء؟ عن ماذا تتحدث؟ هل أنت متأكد بأنك غير مخطئ؟ حينها كرر الصوت اسم العجوز ولقبنا بدقة، بالنطق الروسي، بالحروف الساكنة الملتصقة، بلهجة -على ما أظن- منطقة جبال الألتاي، من حيث يقول العجوز أنه قد أتى. ولكن، ربما الأرق والمنشطات تشوّش على ذهني، ربما كانت اللهجة كأي لهجة. سأل الصوت عما يحدث مع العجوز، لماذا لا يرد على الاتصالات. قلت: إنه الخرف. كانوا قد هاتفوا محل البقالة، لكن الاتصال انقطع، وهذا ليس ذنبهم، عليهم مراعاة مسؤولياتهم، يحتاجون إلى التحدث مع العجوز، الأمر عاجل، فقد توقفت التحويلات منذ ستة أشهر ولا يعلمون كيف يمكنهم التصرف مع التحويلات البنكية التي عليهم الوفاء بها. لم يعد بإمكان الموظفة الإدارية أن تُدير. الموارد لا تكفي، وعلى هذا النحو فهم لا يستطيعون الوفاء بكل شيء. على

العجوز أن يخبرهم كيف يتصرفون، إنهم ضائعون، لم يحدث لهم مسبقًا شيء كهذا، ضائعون، نفدت مواردهم المالية التمويلية، سوف يقطعون الكهرباء، وماذا سيحدث بعدها؟ والطعام؟ الله وحده يعلم كيف يتدبران أمرهما الآن؟ فسألته: مَن هما؟ هل أنت متأكد من أنك هاتفتَ الرقم الصحيح؟ فرد الصوت: نعم، نحن متأكدون، بيد أن هذا يعني، بأننا لسنا متأكدين من أي شيء. ثم لا شيء. انقطع الاتصال. ربما هناك مشكلة في الهاتف. ربما هناك خطأ ما، أو أن حال شركة الهواتف يسير من سيئ إلى أسوأ. هذا ليس مستبعَد. لقد أصبح الأمر مكررًا إلى حد ما.

في الصباح التالي، تركتُ الأموال في صندوق حِساب البقالة برعاية العامل البوليفي، وساعدتُ العجوز على ارتداء ملابسه، وضعته في سيارة الأجرة وذهبنا لفرع البنك القريب من ميدان (لا لوث)، حيث يقوم بعملياته المصرفية، يقبض معاشًا ضئيلًا ويحتفظ بمدخرات محل البقالة المتناقصة بالتدريج. وبما أنني في الأيام الأخيرة، لم أجد الوقت ولا الصفاء الذهني لتولي أمور الحسابات، فلم أذهب إلى فرع المصرف لتلمس حجم العَجز. بعد أن غرق النهار في طبق حليب القط ونشر نفسه ليجف، بدت المدينة مغلفة بطبقة بيضاء لا تُحس. دخلت المبنى وسالتُ عن المدير المسؤول، السابق، بدين ومِن عُمري تقريبًا، كنت قد استشرته حول بعض الأمور في مرات سابقة. لقد أُحيلَ إلى التقاعد منذ قرون. هكذا أخبرتني فتاة الاستقبال وهي تشير إلى المدير الجديد، شخص يبدو أنه لم يبلغ حتى العشرين من عمره بعد. أحكمتُ وضع أبي على الكرسي ولاحظت كيف يدير

عنقه في محاولة مبهمة للتعرف على المكان. كانت المصابيح الفلورية تؤكد المظهر الحليبي لطابور لأشخاص أمام شباك المدير. ثمة فراشة محبوسة داخل المصباح الأنبوبي. كيف دخلت إلى هناك؟ شابَكَ العجوز كفيه على عكازه وثبت نظرته على ذقن المدير غير المرتبة، هناك فُتاتة خبز ملتصقة بذقنه. سألته عن حساب العجوز. رسم المدير علامة امتعاض وهو يُعاين شاشة حاسوبه، نقر نقرتين، وطلب منا الانتظار، نهض وألقى نكتتان عن فريق الكرة الذي يشجعه زميله الجالس بجواره، ذهب إلى حيث الطابعة، نظر إلى الساعة، وهرش بين فخذيه وهو ينظر في هاتفه المحمول، أخرج مخاطًا من أنفه، أخذ الأوراق، عاد إلى منضدته وقال: أُنظُر بنفسك حالة الحساب، الأمور سيئة، ها؟ أردتُ معرفة فيما إذا كانت هناك عملية تحويل مُنتَظَرة. أشار المدير إلى بعض الأرقام الخاصة بحسابات المياه والكهرباء، ثم تحويل واحد يجب سداده في الأول من كل شهر. ولا شيء آخر. إنه لصالح شركة ما، اسمها وكالة روزنبرغ المحدودة للموارد البشرية. لم تكن لدى المدير أية معلومات عن هذه الوكالة، سوى عنوانها، ولا يعرف حتى سبب تحويل هذا المبلغ إليها، إنه مبلغ مرتفع إلى حد كبير. ولكن لم يتم تحويله خلال الستة أشهر الأخيرة، لأن الحساب بلا سيولة. قالها وهو ينظر إلى العجوز الذي استمر على صمته الأصم، وهو يراقب يراقب فُتاتة الخبز البيضاء الملتصقة بلحية المدير السوداء. ها هو العنوان، قال المدير مادًا يده بورقة. كان قد تشكل خلفنا صف من المراجعين المستائين. تعالت همهمات معترضة على مستوى خدمات المصرف، الانتظار، هذا العجوز الذي لا يتحرك من مكانه، قلة الاحترام، العملاء المفضلين ثقيلي الظِل، انعدام اهتمام

الموظفين، تأخرت، يجب أن أذهب لآخذ أولادي من المدرسة، إنه لأمر سخيف، سأُغلق حسابي، لن أصل اليوم إلى موعدي، سوف أُصاب بنوبة، سأقتل أحدهم. اعتراضات يكررها يوميًا عُملاء المصارف في كل الطوابير في المدينة، يتم تناسيها في اللحظة نفسها التي يخرج فيها أحدهم من باب الفرع وتبتلعه مشكلات أخرى. ألقيتُ نظرة على الأصفار الكثيرة في حال الحِساب، بينما العجوز يغط في نومه، كم أحسده! أخبرتُ المدير كاذبًا، أنني سأحل مسألة الرصيد والشيك الخاص في القريب العاجل، ثم تصافحنا. لم أقل له شيئًا عن فُتاتَة الخبز التي على ذقنه.

على الرصيف رأيت ثور جاموس وحشي، ساكن. والناس يمرون بجواره كما لو كان الأمر طبيعيًا، وجود حيوان كهذا، في هذا المكان، في مركز مدينة جنوب-أمريكية، والأدهى أنه حيّ، بينما في الحقيقة هو عمليًا مُنقرض. اقتربت منه امرأة محملة بالعديد من أكياس التسوق، لكنهاَ فضلّت تركيز اهتمامها على كرسي ذي مسند ظهر عالي موجود بجواره، وهناك جهاز فونوغراف فوق الكرسي. حينها فقط، انتبهت إلى أن الثور موجود داخل واجهة العرض الزجاجية لمتجر التُحف القديمة، أمام فرع المصرف. ليس حيًا. كان بالحجم الطبيعي، والشَعر الأسود فوق عنقه يبدو وكأنه يهتز بفعل هواء مُروج تكساس. في البدء، تخيلت أنها هلوسة. لكن لا. كانت هناك مروحة كبيرة تحرك شَعره. كنت أسند العجوز من ذراعه، بإيقاع لا يتناسب مع شخص في حالته، ودخلت المتجر. لدي رغبة كبيرة في تصديق ما أراه، فركتُ جفنيّ بعقلتيّ إصبعيّ كي أمسح أثر الصباح الأبيض عن

عينيّ. سألتُ البائع إن كان الثور حقيقيًا. نعم بالتأكيد، قال البائع، إنه مُحنَّط، وهو قادِم مباشرة من أقصى الغرب، إنه من نوع نادر، وينتمي إلى قبيلة الكومانتشي، إلخ، إلخ. نظرتُ إلى وجه البائع لأتبين إن كان ينوي خداعي أو شيء من هذا القبيل. لم يبدُ لي مثيرًا للشك. هل ينتمي هذا الثور إلى زمن كواناه باركير؟ سألت. كواناه مَن؟ آه، بالتأكيد، كان يخصه، بالفعل كان يعيش في حديقة منزله الكبير هناك في أقصى الغرب، إلخ، نعم سيدي، ياله من منزل، ها؟ أنظر إليه يا صديقي، كان هذا آخر جاموس وحشي في «الفار ويست»، ومن هناك أخذوه إلى أحد ملاهي السيرك، باعوه لبوفالو بيل، نعم سيدي، هو نفسه، رجل اللجنة، بعدها، مع السلامة باي باي. انقرض، إلخ، ثور جاموس البوفالو الوحشي هذا -ياله من اسم عجيب، أليس كذلك؟- إنه شيء نادر وسعره فرصة، قال البائع، هل ستستغلها؟ نعم، قلت له، وأنا مندهش من تهوري، سوف أحمله الآن. أثناء تقسيم دفعات بطاقة الإئتمان، انتبهت إلى أنه، وفي غمرة انشغالي، اختفى العجوز. بحثتُ في داخل المتجر الممتلئ بالأشياء القديمة (على أية حال، إن مَتجرًا للتُحف القديمة، هو مكان مناسب جدًا لبقاء رجل عجوز فيه)، ولم أجده معلّقًا بين خيوط العنكبوت. خرجتُ بسرعة إلى الشارع، أراقب الحيوانات التي تتشكل بين الغيوم وتتحول إلى بشر.

كانت ريح المروج تشعث شَعر جاموس البوفالو، الذي ما زال يحتفظ بعينيه مفتوحتين على مصراعيهما دون أن تطرف بسبب المضايقة. بدا كما لو أنه يتحرك متعثرًا بخطوات غير متكافئة، فلم يكن يثني قائمتيه ولا يحرك رقبته كما تفعل الجواميس عادةً، عندما

تتحرك. لكن ذلك لم يمنع رُكاب الحافلة المزدحمة، المتوقفة بسبب إشارة المرور في ساحة جوليو برستيس، من مد رقابهم عبر النوافذ لتسديد نظراتهم نحو الحيوان المربوط بقوة على سقف سيارة الأجرة التي تقلنا. حتى مدمني مخدر الكراك المبعثَرين في الساحة، والغافلين عادةً عن أي تدخل في واقعهم المباشر، قاموا من الأرض وشرعوا بالعواء عند مرورنا. يبدون وهم ملتفين في ألحفتهم ونصف عراة، متخلين عن عُلبهم لتدخين الماريوانا، كهنود الكومانتشي بعد معركة خاسرة. لكن حربهم بدأت للتو، ولم يكن من الصعب التنبؤ كيف ستنتهي. يلاحقهم رعاة البقر أو ربما رجال الشرطة الذين يطلقون الرصاص المطاطي الآن، على عدم وجود نجوم فضيّة على صدورهم. تبدّل ضوء إشارة المرور إلى اللون الأخضر وخرج الحشاشون لمطاردتنا. يريدون منا إعادة الجاموس. أظن بأنني رأيت في المرآة، البعض يُصوّبون الأقواس والسِهام نحونا. لحسن الحظ أنهم لم يكونوا يحملون بنادق رشّاشة. ثم خرجَت من الزقاق الخلفي للساحة خيول تعدو. هل هم الفرسان؟ على كراسيهم، أنزَل رجال الشرطة العسكرية هراواتهم على ظهور المدمنين الذين تخلوا عن أسلحتهم وخروا على الأسفلت تدهسهم حدوات الجياد. بشكل ما، لم تكن هناك معارضة بين رجال الشرطة ومدمني المخدرات، ليس كما كان عليه الحال في الماضي، بين الجنود وهنود الكومانتشي. وباستثناء الخيول، اِتّبع الجميع أمرًا معتوهًا ما، سرعان ما سينتهي سَريانه. في اليوم التالي، سيعود كل شيء إلى طبيعته، باستثناء الخيول التي سيواصلون امتطائها كالمعتاد... ثم توقفَت سيارة الأجرة أمام محل البقالة وأطلقنا الجاموس من الحبال التي قيّدته واقفًا على سقف

السيارة. دخلتُ إلى المتجر كي آمر العامل بمساعدتي في حمله، وكم كان رعبي عند رؤيتي للبوليفي وقد تكاثر إلى عدة بوليفيين! كان هناك أحدهم خلف صندوق الحِساب، وآخر يضع الأسعار على المنتَجات، وآخر رابض بين الرفوف، وآخر ممسك بريشة التنظيف أمام البضائع التي تُباع بالجملة، وآخر يكنس الأرض، وآخر يغسل الحمّام. إذن فقد كانت شكوكي لها أساس منذ البداية. لم يكن بوليفي واحد وإنما كُثر. أطلقتُ صرخة رعب حقيقية، فاختفى البوليفيون الإضافيون في الشارع. وأومأتُ للوحيد الباقي، الذي كان يقف خلف صندوق الحِساب، (يبدو أنه البوليفي الأصلي)، وساعدني في حمل الجاموس إلى الجزء الأمامي من المَتجر. وبينما كنا نزفر تحت ثقل الحيوان، تمكنتُ من ملاحقة الوجه الخبيث للعامل من كثب، وجهه الهندي، وأظن أنني لاحظتُ ضحكة سُخرية، أو شيء من هذا القبيل. لا أفهم البوليفيين. وضعناه في مواجهة العامود بين الستائر. سيكون حارسنا. سيكون المتجر محميًا بالثور هناك. لن يدخل أو يخرج أحد الآن دون موافقتي. ولكن، تبيّن أن تلك الخطط كانت خاطئة منذ البداية.

عدتُ لتعليق المفتاح على المسمار بجانب الباب. بدت على العجوز علامات الإنهاك بعد كل تلك المِحن. أخذته إلى الحمّام وأعددتُ مناشفًا دافئة. غسلتُ قدميه، وهو مستند بيديه على رأسي، ضاغطًا على جمجمتي بأصابعه كما لو كان يختبر من أية مادة مصنوع. قضى العجوز حاجته بضجة... كأنها قصف ليليّ على لندن المحاصَرة، في فيلم قديم شاهدته عن الحرب. كان ينظر إليّ وهو يتأوه جالسًا في المرحاض، ونظرته تقول: ولكن، مَن يكون هذا

الذي يستند إلى إطار الباب صامتًا بينما أنا أتغوط؟ بعد أن نظّفته، وضعتُ المناشِف المبلّلة على رقبته وعلى كتفيه، وغطّ نائمًا لبرهة. قارنتُ بين الجلد الداخلي لذراعي مع جلده. تحت ضوء مصباح الحمّام الضعيف، كان للجلدين اللون نفسه: كنتُ أصير أكثر بياضًا، مثل العجوز تقريبًا. كنت على يقين من أنني أتحوّل إلى البياض، وتدريجيًا سأصبحُ مثل أبي، مثل شخص اضطررتُ إلى حمله حتى فراشه. كم هو ثقيل! ربما النوم يجعله أثقل، ولكن كيف؟ ورأسه تبدو فارغة؟ على أية حال، عليّ التأكُّد من أن العجوز سيبقى نائمًا طوال الليل، لأنني يجب أن أذهب إلى عملي في مركز الشرطة. كان من الصعب إيقاظه. وعندما نجحتُ في ذلك، قدّمتُ له، كالعادة، كأس الماء والقرص، تفحصهما بشيء من عدم الثقة. وككل ليلة، سألني عن ماهيّة ذلك، وأرضَته الإجابة كالعادة. عندما انتهيتُ من وضع الحفاضة، طلب مني أن أحكي له قصصًا عن الحيوانات. وحدّدها. كيف يستطيع تذكر هذه القصص، إن كنتُ أنا نفسي لا أتذكر منها أي شيء؟ كرّرتُ قَص «قضية النزهة الليلية». عدتُ إلى المخلوقة والسيدة إكس، وسائق سيارة الأجرة وكلابه الروت وايلر، إلى الفتى موزع الطلبات في البقالة الكورية الصغيرة. «نوكتوراما». لم يكن يرى في تلك الأسطورة أية عِبرة، يقترب منها كطفل، دون خوف، دون أن يرى فيها أية تعاليم مُضرة. إيسوب مخادع. بل كان الأمر عكس ذلك، وهكذا استعاد العالم توازنه، لأنه ليس هناك خير ولا شَر، ولا حرب ولا سلام، الجميع يمتلكون لون البشرة ذاته تحت الشمس، هنود أصليون وضباط ومدمنون ورجال شرطة، لا أحد يقتل ولا أحد يستغل أحدًا. باستثناء الدور الذي كانت تلعبه الخيول حتمًا،

دور المطيّة، وبدونها سيكون العالم مهزلة، فضاء بلا وعي، حافل بالأطفال والمخرّفين. تأخر كثيرًا في النوم. بعدها، عند الفجر، متأثرًا بالاهتمام الذي أبداه العجوز حيال الاستماع إلى القصص، ملأتُ كأس الويسكي، وأخذت حبتين من الإيفا-نوركس، وبقيت للحظات أنظر عبر النافذة إلى الثور في واجهة المتجر، في الطابق الأرضي، تحت ضوء العامود المحاط بالفراشات. بدا وحيدًا للغاية هناك في الأسفل، دون بقيّة القطيع. كان يتيمًا، فقررتُ نقله إلى الشقة. لم يكن صعود الدرج والحيوان على كتفي سهلًا أبدًا. وضعته على السجاد في منتصف الصالة. أراحني وجوده، ولوهلة، ظننت أنه سيقوم بحراسة العجوز نائمًا. سيمنعه من الخروج هنا وهناك في منتصف الليل، من التسكع في شوارع الحيّ، من الضياع. ينثر بدنه طبقة خفيفة من التراب على السجادة. تذكرتُ اسمه العلمي: بيسون، بيسون، بيسون. من أيّ نقود سأدفع لذلك؟ السجادة الخضراء تحاكي مروج تكساس. بيسون بيسون بيسون. بدا لي أنه يستطيع الرَعي هنا، ها هنا.

4

عالم الحيوان:
بورفيريا... أو اضطرابات وِراثية

1

عندما بلغَت كلاب الروت وايلر مستوى مثالي في صيد القطط في الغابة المجاورة للبحيرة، أدرك سائق سيارة الأجرة، أنه بحاجة إلى منافسين جدد، حيث صارت الكلاب لا تستغرق سوى لحظات خاطفة في اللحاق بالقطط، كما أكد في إفادته. يبدو أنها قد طوّرت مهارة الفريق الواحد في ممارستها للصيد، كل واحد منها ينتقي الضحية التي سيطاردها بمجرد إطلاقها من الكيس. لا يختار أي كلب طريدة الكلب الآخر ذاتها أبدًا، وإنما ينطلق جريًا، كلٌ خلف الفريسة التي اختارها. في كل ليلة مكتملة القمر، كانت الكلاب تُثبت بأنها قد أصبحت كماكينات مفترسة... وكأنها كلب واحد باثنتي عشر قائمة وثلاثة فكوك تحت إمرة سائق التاكسي. تتميز بانطلاقة مذهلة، وكان السائق فخورًا جدًا بها. شعور لم يُجربه من قبل أبدًا، لا يختلف كثيرًا عن شعور مدرب رياضي نحو لاعبيه، كما وصفه. وقاد ذلك السائق إلى التساؤل عما يجب أن تكون عليه الخطوة القادمة في تدريب كلابه. فقد استنفدت القطط دورها وطاقتها، بينما كلاب الروت وايلر، لا تزال متلهفة إلى تحديّات جديدة، تحتاج إلى حيوان أكبر لمطاردته، إلا أن سائق التاكسي لم تكن لديه أية فكرة عما يمكن أن يكونه ذلك الحيوان. ربما كلب آخر، ولكنه متشكك بإمكانية إيجاد كلبًا آخرًا يستطيع مواجهة كلابه الروت وايلر، فكان شعوره بالفخر يوازي شعوره بالغرور، عندها راح يبحث في المزارع الصغيرة، القريبة من الطرق التي كان يجوبها بسيارته، أثناء ساعات الفراغ من الدوام، إلى أن اكتشفَ مزرعة لتربية الكِباش، فظَل لفترة يدور حول حظائر

المزرعة، مراقبًا مهارة الكباش عند وطئها النعاج أو عند التناطح فيما بينها بغية إغراء الإناث. فكر السائق بأن الكِباش هي الحَل الأمثل. ذات ليلة، كان يشعُر فيها بالحماسة والشجاعة، غزا الحظيرة التي تبيت فيها الحيوانات، فقد لفت انتباهه كبش مهيب بقرنين.

قبل تلك النزهة في حديقة «نوكتوراما»، كانت المرة الأخيرة التي حاولت فيها السيدة إكس الخروج من المنزل بصحبة المخلوقة، هي في ليلة عيد الميلاد قبل عامين. في الفترة التي كانت تتنافس فيها الأحياء على تعليق أفضل الأنوار، كما أكدت في إفادتها. في الحقيقة، كان كل ذلك لا يمت بأية صلة لروح الميلاد المجيد، والسيدة إكس تعرف ذلك أكثر من غيرها. لا يتجاوز هذا الأمر أكثر من كونه صراع على الجائزة التي تمنحها بلدية المدينة لأفضل زينة لعيد الميلاد. حرب ميلاد حقيقية تتعارض تمامًا مع ميلاد الرَب. صراع حقير على المال، فسادٌ في القيم المسيحية. إلا أنها كانت، على كل شيء، فرصة مثالية للخروج والتنزّه. وإلا فما هو السبب الآخر الذي يمكنها اختلاقه لإقناع المخلوقة بالخروج من المنزل؟ كان ذلك سببًا وجيهًا. لو كان الزمن آخر، مثل وقت طفولتها، زمن سحيق، كانت فيه واجهات المحلّات تبقى مضاءة حتى ساعات متأخرة من الليل في الشوارع التجارية، وترتدي عرائس العرض فساتين السهرة المميزة، لكان بإمكانهما الخروج للتنزه بسلام وتأمل واجهات العرض الزجاجية ودمى نماذج العرسان آنذاك. لكن الناس اليوم، أصبحوا يخشون العنف، فهاجروا إلى الأسواق التجارية المركزية (المولات)، ولم يخطر لها قط، أن تصحب المخلوقة إلى أحد تلك الأماكن، مع أن بعضها يقبل بوجود

الحيوانات. وإلا لكانت تسلية لطيفة بلا شك، ولتمكنتا من شراء ملابس جديدة تحتاجانها بشدة. ولكنها فكرت، بأن تلك، مجرد رغبة تافهة أو ربما كابوس ما. قِلّة احترام حقيقية من جانبها. لأن عقدها مع الشركة الراعية يمنعها من الخروج تحت أي ظرف كان. في تلك الليلة، تمشيَتا في شوارع حي إيجينوبوليس ورأيتا مئات الآلاف من الأضواء تتلألأ مثل نجوم وكواكب السماء. لم ترَ المخلوقة شيئًا كهذا أبدًا. كان الناس يستغربون كثيرًا ذلك الظل المعمّم في ليلة ساخنة كتلك، لكن الوقت كان متأخرًا، وليس هناك الكثير من الأشخاص في الشارع. حينها، قامت السيدة إكس بشراء شطيرتي نقانق من كشك الزاوية، وجلستا على أول مسطبة فارغة وجدتاها تحت أشجار الصنوبر في حديقة بوينوس أيريس. كانتا تتضوران جوعًا بعد النزهة. أغرقت المخلوقة شطيرتها بصلصة الكاتشاب، فبدا فمها ملطخًا بالدماء. بعدها، ظهرت امرأة عجوز تُطعم قطط الحديقة. كانت تشتكي من أن أبناءها يختفون لأن أحد ما يطعمهم السم، قالت لهما بعض الكلمات اللطيفة، وعند اقترابها، رفعت بشكل مفاجئ، طرف قبعة المخلوقة كي ترى وجهها بشكل أفضل. إبتداء من هذه اللحظة، بدأت الأمور تأخذ منحى أسوأ. ارتعبت العجوز من المنظر وأطلقت صرخة. اقتربت نساء أخريات، كن يطعمن القطط، ليستطلعن ما يحدث. وخلال ثوان قليلة، تجمعت جمهرة صغيرة. كلهم يشيرون إلى البتر في أصابع المخلوقة، التي كانت قد نزعت قفازها كي تأكل، والتي ارتعبت هي أيضًا. الكاتشاب، الدم. قال أحدهم: إن هذا الشيء قد أكلَ أصابعه. عندئذ حملت السيدة إكس المخلوقة لأول مرة منذ أن عرفتها، وبجهد كبير استطاعت عبور الساحة، بينما تحاول المخلوقة

إخفاء القرحة المفتوحة في جبهتها المستندة على كتف المربية. في تلك اللحظة، وعند شمها رائحة الزهور القوية المنبعثة من المخلوقة، ظنت السيدة إكس، أنها ربما تكون قديسة.

بمجرد انضمامه إلى مجموعة الشباب في إبرشية القديس كيم تايغون، بدأ الشاب الموزِّع يشعُر برفض زملائه له في البقالة الكورية الصغيرة. كلهم، مثله، ينتمون إلى عائلات فقيرة. اتهموه بخيانة أصوله وأخبروه أنه ينافق الأثرياء، وأنه شخص وصولي، ولم يجدِ كثيرًا السبب الذي اختلقه، بأن صديقته الجديدة هي التي طلبت منه الذهاب إلى الكنيسة. قهقه الشباب وراحوا يتجنبونه، شرعوا بتطبيق قانون الجليد، كما يقال أو اعتيد أن يقال بين المراهقين. لم تتغير الأمور كثيرًا في هذا العالم. أنا نفسي عانيت من ذلك كثيرًا. أخذ الشاب موزّع الطلبات يشعُر بالبؤس. وحيد، بين جماعتين لا يشعُر بالانتماء إليهما. في الإبرشية، حان موسم بروفات الأغاني التي يتم تأديتها مع الأوركسترا في القداس، ووحده الفتى الموزع لا يجيد العزف على أية آلة موسيقية، بل والأسوأ أيضًا، أن صوته نشاز. في الحقيقة، هو لا يطيق تلك الأغاني الواقعة بين أغاني الجوسبل وأغاني السيرتانيغو المصحوبة برقصات البوب الكوري، فالموزِّع يفضل سماع أغاني الميتال في جهاز الـ إم. بي. ثري الخاص به، وفقًا لما أكده في إفادته. ولكن، بشكل ما، كان يرضيه قربه من الفتاة التي وقع بحبها، يشاركها المنبر واختيار المقاطع من نصوص الكتاب المقدس. بعدها، عندما تنتهي البروفة ويغادر الجميع في سياراتهم الفارهة، يسير الفتى الموزع وحيدًا باتجاه محطة الحافلات. في الطريق، يتوقف أمام البيت الكبير

في شارع (تلمود توراه)، ويبقى يراقب الظلال في النوافذ. كان الشاهد الوحيد على الحياة داخل هذا المكان، في حين ينام بقية سكان الحيّ. تمكن من رؤية العمل الليلي الدؤوب للسيدة إكس، صعودًا وهبوطًا على الدرَج لخدمة المريضة. في بعض الأحيان، تحملها السيدة إكس برقة، حيث تبدو وكأنها على وشك التَحَطُّم، وفقًا لإفادته.

مكتبة
t.me/soramnqraa

2

صار البيت الكبير في شارع (تلمود توراة) يجتذب الفتى موزع طلبات البقالة الكورية الصغيرة، مثل مدينة ألعاب ترفيهية تتقد أنوارها في ليالي أيام الأحد. وكان عندما يستقل دراجته خارجًا لتسليم الطلبات، يتوقف للنظر إلى نوافذ البيت منتظرًا ظهور المخلوقة، أما في النهار فلا يرى سوى الستائر المُسدَلة ولا شيء آخر. بدا القَصر محاطًا بصمت غير عادي، يعزله عن ضجيج متاجر الحيّ، كما لو كان هذا المكان غارقًا في نوم عميق ودافئ. ربما أن ذلك هو ما يجذبه إلى هناك، أثناء فترة ما بعد الظهيرة. في الشارع، بيوت أخرى من طابقين لا تختلف عنه كثيرًا، ولكن ثمة شيء غريب في ذلك البيت، لا يستطيع الشاب تحديد كنهه بدقة. حتمًا، لأنه يظل مغلقًا طوال النهار، على العكس من بيوت الشارع الأخرى، كما لم يتم إعادة طلاء جدرانه منذ أن تم بناؤه. انتبه الشاب إلى أن الخضراوات التي يحملها في سَلة الدراجة، قد بدأت تذبل، واكتسبت مَظهرًا غريبًا. وبينما هو في شَك، دفع الدراجة للانطلاق، بعد أن لمح اليهوديين

اللذين رآهما في المسرح المجهور. كان الرجلان يقتربان. في البداية، ظن بأنهما يتجهان نحوه، وكاد يهرع منطلقًا في الشارع الهابط، ولكنه اطمأن، عندما رآهما يقرعان جرس البيت الكبير، فانتظر للحظة حتى يُفتح الباب. حينها دخلا. ولم يتمكن المُوزّع من رؤية مَن فتح لهما الباب، وافترض أنها السيدة إكس. غاب الرجلان في الداخل نحو نصف ساعة، وفق إفادة الموزع، وكان هذا الوقت كافيًا كي تتلف الخضروات تمامًا، وهو ما كلفه استقطاعًا من راتبه، بالإضافة إلى توبيخًا شديدًا من صاحب العمل الذي هدده بالطَرد.

مع حادثة المزرعة، اكتشف سائق التاكسي، أن اصطياد قطط الشوارع في ساحة المصنع المهجور هو أمر أيسر بكثير القبض على كبش فحل. إلا أنه، وعلى الكدمات في أنحاء جسمه، وبعد وقت ليس بالقصير، استطاع السيطرة على الحيوان وتخديره. وضعه، كيفما اتفق، في صندوق السيارة. استغرق الأمر أسبوعين إلى أن تعافى الكبش من الإصابات التي ألحقها بنفسه داخل الصندوق الضيق، لأن السائق أخطأ في تقدير جرعة المهدئ، فاستيقظ الحيوان في منتصف المسافة. وما أن أطلق السائق الكبش في فناء المصنع، حتى راحت الكلاب تنبح، واستمر نباحها طيلة الأيام التي قضاها الكبش متجوّلًا يرعى في المصنع، منظفًا الباحة من الحشائش. وبما أنه أراد للكبش أن يتعافى سريعًا، قام السائق بشراء مُكملات غذائية من أحد محلات المُنتجات البيطرية. سأله البائع عن نوع الحيوان الذي سيطعمه، مدفوعًا بفضوله لمعرفة مصير تلك المُكملات، لكنه لم يحصل على إجابة. وهكذا استعاد الكبش عافيته، وسرعان ما أظهر عنفوانه السابق

الذي لاحظه سائق سيارة الأجرة في المزرعة. لابد وأنه بطلُ منافسات راعِيه أو شيء من هذا القبيل، فكر السائق إبان تقديمه إفادته، كان حيوانًا شجاعًا بالتأكيد. ليلة القبض على الكبش، كان سائق سيارة الأجرة يعمل، فلم يستطع نقل الضحية وكلاب الروت وايلر الثلاثة في رحلة واحدة، لذلك اضطر إلى نقل الكبش أولًا. وبما أن الحيوان أمضى وقتًا في فناء المصنع، فقد أصبح بإمكان السائق الاقتراب منه دون مشاكل كبيرة. في تلك الليلة، ربطه، ثم خَدّره ووضعه مرة أخرى في صندوق السيارة، ثم قاد سيارته حتى الغابة القريبة من البحيرة. هناك، أخرج الكبش من الصندوق وربطه بجذع شجرة. كان المكان مهجورًا، ولا يعتقد السائق أن أحدًا سيظهر في المكان أثناء ذهابه لإحضار الكلاب. قدَّرَ الوقت الذي سيستغرقه للعودة، بما فيه الوقت الذي سيحتاجه في المصنع والغابة، فوجده لا يزيد عن الساعة. بالطبع، قد يجد حيوان مفترس ما، الكبش مربوطًا وعاجزًا عن الحركة، ولكنه استبعَد هذا الاحتمال، فقد مر زمن طويل على انقراض الحيوانات المفترسة الكبيرة في تلك المنطقة، وهو ما يجعل التدريب في الغابة أمرًا مثاليًا. كان على الكلاب أن تتآلف مع بيئة مشابهة لنوكتوراما. ذهب السائق لجلب كلاب الروت وايلر التي كانت بانتظاره متحمسة. ومع ذلك، عند وضعها في المقعد الخلفي للسيارة، التزمت الكلاب الثلاثة الهدوء، كأنها تدرك مدى المرح الذي ينتظرها. في مرآة الرؤية الخلفية، لم تكن هناك، سوى ثلاثة ظِلال تلتمع عيونها في الظلام، وتعكس أسنانها الحادة أضواء أعمدة الإنارة عند المرور بمحاذاتها، بحيث يمكن للمشاة الذين قد يرونها، أن يظنوا بسهولة بأنها أطفال.

المعرض العالمي الأول لرسوم أوضاع نمر الثلوج - المشهد الثالث، والذي يبدو فيه نمر ثلوج اليافع والشجاع، مفتونًا بصوت البشر، يبدأ الحرب ضد أعدائه الكلاب

كان ياما كان، نمر ثلجي، وعلى عكس كل التوقعات، وقع في حب الصوت البشري. غادر الجبل الذي وِلد فيه، سعيًا وراء قبيلة رُحّل، وأصبح معتادًا على الزحف بين نباتات السهوب الخفيضة كي لا يتم اكتشافه. كان النمر يتغذى على بقايا الطعام الذي يتخلى عنه سكان المخيم، والحيوانات الصغيرة التي تحوم حوله كالأرانب البريّة والقوارض الأخرى. تضاعف جهده للاستماع إلى غناء المرأة صباح يوم دفن الطفل. عند حرق جثمانه، ارتفع صوت أُمه فوق الدخان والسُحب ممزقة قلوب جميع الحاضرين، بما فيهم الوحش. فعند سماع هذا الصوت، اعترف نمر الثلوح على الفور، بتفوق البشر، الذي لا يمكن إنكاره، على باقي الحيوانات الأخرى، على هشاشتهم الجسدية والأخلاقية. كانت هذه الكائنات الهشة المسكينة، ذات المزاج المُتقلب قادرة على الغناء بحزن غير عادي. لا شيء يمكن فعله أمام حزنهم. كان ذلك الغناء تأكيدًا على جمال لا يمكن إنكاره، أعلى من قمم جبال الألتاي اللانهائية التي جاء منها النمر، بل وحتى أقوى من سرعة الرياح وسطوع الشمس وصمود الأزهار. أسَرَت تلك المرأة بصوتها نمر الثلوح. ولكن، أتى الصيف ونقل البشر مخيمهم. بين دموعها التي لم تجف بعد، على فاجعتها بفقد طفلها، لملَمت المرأة خيمتها ووضعت ممتلكات عائلتها على ظهر بغلة. ثم

غادرت القبيلة الرحّالة المكان، فصُدِم نمر الثلوج الذي لم يكن أمامه من خيار آخر سوى اتباعها. غادر طبيعة الغابة الروسية، على ما أظن، التي انتمى إليها دومًا، وألقى، من بعيد، نظرة أخيرة على قمة الجبل الذي وِلد فيه. كان عبور السهوب هو الاختبار الأصعب الذي واجهه في حياته. قساوة الشمس وجفاف السَهل. ياه، كم كان ذلك صعبًا! لم يكن هناك أي شيء يأكله، فكان عليه أن يتنازع مع قطيع كلاب القبيلة، على بقايا الطعام التي يتركها البشر. وعلى امتداد الطريق، قضى نمر الثلوج على العديد من تلك الحيوانات التي يعدّها أقل منه شأنًا وأكثر صخبًا، والتي تمثل همهماتها النقيض للصوت البشري. يمزِّق بضربة واحدة من مخالبه فك الواحد منها، ويلتهم تلك الكلاب التي لم تنجح بالفرار منه. كان يكرهها لأنها عكس الفهود، لا تهاجم أعدائها من أجل اللحم وإنما من أجل العظام. تلك الحيوانات البائسة ترى كوكب الأرض العظيم مجرد عظمة كبيرة بلا نخاع، لذلك فهم يقاتلون ضد نمر الثلوج. يحتقرون لحمه ولا يريدون سوى مص عموده الفقري كما لو كان بوظة مُجَمّدة. ولكن، لا يمكن عدّهم مُنافسًا بالنسبة لنمر الثلوج، لا يا سيدي. حربه ضد الكلاب، كانت هي الحرب الأولى في حياته وبداية توديعه لطفولته.

3

كان تفكيرها في مسألة النزهة الليلية في حديقة الحيوانات راجعًا إلى كون السيدة إكس تدرك تمامًا أن هذه هي الفرصة الأخيرة التي

ستشاهد فيها المخلوقة القمر. بإمكانها تخمين مصير مريضتها لأنها بين يديها. خطّطت لكل شيء. كانت السيدة إكس مهووسة بقراءة سِير القديسين، كما أفادت في شهادتها. فحياة القديسين موضوع رائع لم تمل منه قَط. كائنات مبارَكة أخرى عانت، مثل المخلوقة، من أمراض رهيبة. قديسون عانوا من البرص مثل داميان مولوكاي، أدولف أوسنابروك أو الملك بالديون. تذكرَت السيدة إكس كلمات أيوب: «أَنَقْبَلُ الْخَيْرَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَالشَّرّ لاَ نَقْبَلُ؟» ولكن في الماضي، كانت هناك قديسة واحدة فقط تعاني من مرض مماثل لمرض المخلوقة. اسمها بورفيريا، مِثل اسم المرض. ولن يقوم الفاتيكان بجعلها قديسة لأنه نسيها، مع أن الناس يجلونها. كانت سوداء البشرة، عاشت في المناطق الداخلية من ولاية ميناس جيرايس في القرن السابع عشر، وقامت راهبات كرمليات بتبنيها وتربيتها. ولكن قبل أن تصل إلى الدير، في بلدة أورو بريتو، هامت في الجبال والحقول المفتوحة. كانت تسير ليلًا فقط، لأنها لا تتحمّل ضوء الشمس، وتنام في الكهوف المظلمة أثناء النهار. لم تكن تتحدث. ربما كانت يتيمة أو أنها ابنة عائلة من العبيد قاموا بتربيتها في الغابة، دون أي تواصل مع الحضارة. كانت بشرتها سوداء مغطاة بجروح وندبات قيحيّة لا تندمل أبدًا. كان شعرها خشنًا وطويلًا، متناثرًا على كل جسدها، باستثناء فتائل قليلة مُبعثَرة على رأسها الكبير، ووفقًا للرواية المعروفة، قامت هي نفسها ببتر عقلات أصابع كفيها وقدميها من شدّة الألم. اكتشفتها الراهبات وهي على وشك الموت على أيدي السكان الذين عثروا عليها بين الصخور المحيطة بالمدينة. أرادوا رميها في المحرقة: يقولون أنها الوحش الذي يدمر أبقار وخنازير المنطقة التي وجدوا جثثها بلا

دماء. تمكنت الراهبات من إنقاذها من غضب الفلاحين واخفائها في دير في الجبال، حيث يقمن بتربية الحيوانات. هناك، بعيدًا عن أنظار الجهلة، حاولوا علاجها. في ذلك المكان الخفيّ، عاشت بورفيريا ترافقها راهبة شابة واحدة، تعتني بجراحها. أُصيبت الراهبة بالذعر، متفاجئة بصمود القَرح أمام العلاج، وذات يوم، عندما أخذتها إلى البئر القريب، رأت الراهبة بورفيريا تصرخ بمجرد أن تعرض جسدها للشمس. في ذلك اليوم، فقدت أنفها وأجزاء من أطراف أُذنيها، ولم يبق منها سوى جلد محروق. وفي غضون أيام قليلة، بدأت تظهر على جسدها تقرّحات أشد فظاعة، لم تر مثلها الراهبة من قبل على الإطلاق. بعدها، تمت معالجة الفتاة بكمادات من الأعشاب وشحم الخنزير، وصارت تساعد في العمل في الحقل، ليلًا فقط. بالإضافة إلى ذلك، كان لوجود بورفيريا في المزرعة تأثيرًا غريبًا على الحيوانات: انقلبت عاداتها النهارية، وراحت تبقى مستيقظة حتى وقت متأخر. لم تكن الحيوانات تنام تقريبًا. وفي الفجر، عندما يتم فتح باب الحظيرة الخشبي الثقيل، تظل الأبقار والخنازير والدجاجات ساكنة بلا حراك أمام المنزل، كما لو كانت مُنوَّمة. زادت إنتاجية المزرعة بشكل كبير. أعطت الأبقار الحليب بوفرة ووضعت الدجاجات مئات البيضات واكتسبت حيوانات الجر قابليات ضخمة. بدا للراهبة الشابة ذلك النمو مخيفًا. البعض الآخر من الحيوانات، يظهر ميتًا في محيط المزرعة، وكانت تلك الوفيات تُعد كجزء من نظام التعويضات، قسم من الحيوانات فيه، تنمو وتُنتج بشكل يفوق الطبيعي، بينما تظهر جثث البعض الآخر، الأضعف، في الوديان، بلا دماء وحناجرها مذبوحة. يدل بروز العظام في الجثث الجافة، وتصلب أجفانها المفتوحة،

على أن الحيوانات كانت مستنفدة عند موتها، بفعل الأرق. من غير المعلوم، فيما إذا كانت تلك الظواهر قد حدثت بالفعل، ولا إن كانت بورفيريا موجودة حقًا. لم يتم العثور على رفاتها في الكنيسة الأم أنطونيو دياس، في بلدة أورو بريتو، حيث شاهد قبرها. ومنذ وقت قريب، عندما فتحوا المقبرة لإخضاعها للتشريح والوقوف على حقيقة المرض الذي كانت تعانيه، لم يجدوا عظامها. ومع ذلك، ما زال المزارعون يقدسون القديسة بورفيريا ويذكُرونها باسم الخصوبة، ولكن، كما لو لم يكن لها أي وجود أبدًا. اختفى اسمها من حوليات الكنيسة.

في منتصف نوكتوراما، انتبهت السيدة إكس إلى أن القمر يختبئ تدريجيًا وراء السُحب الداكنة. لم تكن هناك توقعات بسقوط أمطار تلك الليلة. كانت قد أخذت احتياطها بالتحقق من هذا الأمر، إلا أن السماء تُنذر بوشوك حدوث عاصفة. نهضَت من على الحجر الذي كانت ترتاح عليه عند حافة الطريق، وبحثت عن المخلوقة. لثانية، شعَرت بالدوار، وفي تلك اللحظة، لامَت نفسها على التهائها القصير. لكن المخلوقة كانت وراءها، هادئة تمامًا، تراقب بتركيز المنطقة في المنتزه، حيث يقع قفص نمر الثلوج. كانت قد أكلت شطيرتها كلها، وهو ما أرضى مربيتها، وتبدو كما لو كانت تنصت إلى صوت بعيد يصعب تمييزه، أو ربما تراقب بإعجاب، تأثير الرياح على أغصان أشجار السِبيبيراس. تحسست السيدة إكس كتفها الأيسر، فالتفتَت المخلوقة، كما لو كانت تخرج من حلم. أظهرت أسنانها. تلك الابتسامة، أقلقت السيدة إكس، والتي سرعان ما وضعت جسدها

حائلًا بين المخلوقة ونظرات أفراد المجموعة، متظاهرة بتنظيفها بمنديل. بسبب حالتها المرَضية، كانت أسنان المخلوقة فوسفورية وتلتمع حين تبتسم في الظلام. كان المشهد غريبًا وجميلًا إلى حد ما، لكنه غير مرغوب فيه في تلك اللحظة: لم ترغب السيدة إكس في إثارة شكوك أعضاء النزهة الليلية. انحنَت وضبطت وضع القبعة على رأسها، لكنها لم تقم بذلك في الوقت المناسب: ابتعدت فتاة شابة عن المجموعة، مشدودة نحو البريق المفاجئ والمتقطع لشيء بدا كمصباح يدوي سيء الاشتعال، فاقتربت منه. وربطت هذا التألق بأسنان ذلك الكائن المعمم الذي كان يبتسم على ما يبدو. ثم عادت الفتاة بعد إلى المجموعة ولم تقل شيئًا لصاحبها. لكن كفها كانت ترتجف عندما لمست كفه. قدمت السيدة إكس عصيرًا للمخلوقة، ارتشفته دفعة واحدة بواسطة الشفّاطة، وهو ما أرضى المربية. كان كل شيء سيكون على ما يرام، قالت المربية ذلك في إفادتها، أو هذا ما ظنته حينها. حثت البيطرية المتحمسة المجموعة على استئناف السير داخل الغابة، كان عليهم أن يتوجهوا نحو أقفاص الحيوانات المفترسة الكبيرة.

في طريق عودة سائق التاكسي إلى حديقة الحيوانات، كان الصوت الوحيد المسموع، هو نغمات سيمفونية (بريمبير نوكتورن) التي تصدح من داخل السيارة المتحركة على الطريق. وما عدا ذلك، فقد كان كل شيء هادئًا ووديعًا. وأثناء مراقبته للكلاب عبر المرآة الخلفية، فكر السائق في زملاء المهنة، وكيف هي حياتهم منظمة، لديهم زوجات وأطفال، ملابسهم مغسولة. الروتين المُستعبِد لرب

الأسرة. الحركة العشوائية في وجودهم، هي التي أتاحت لهم اتخاذ مهنة سائق سيارة أجرة. وبغض النظر عن التجوال العشوائي في المدينة، لم تكن أمامهم آفاق أخرى. كانوا يعرفون جيدًا ما يريدون. أو، إن لم يكونوا يعرفونه، فهم قادرين على إخفاء ذلك بشكل جيد. أبناء يحملون شهادات جامعية. زوجات هادئات، أو ربما بلهاوات بفعل بعض أدوية الأعصاب أو بسبب المُسلسلات. الشرب حتى الثمالة في عطل نهاية الأسبوع. بطولة كرة القدم الإقليمية في النصف الأول من العام. بطولة كرة القدم الوطنية في النصف الثاني من العام. عشيقات، واحدة أو إثنتان، ربما. كل شيء يمكن توقعه سلفًا. ليس لديهم أي اهتمام بالفنون، أو بالموسيقى الكلاسيكية. ليس لديهم أية فكرة عمن يكون جورج بيزيه أو إريك ألفريد ليسلي ساتيه، وبالطبع ليس لديهم أدنى فكرة عن أن عملًا مسرحيًا للكلاب يتطلب سيناريو معين، وأنه عند فتح الستارة، ستكون هناك عظْمَة. البعض يمتلك كِلابًا في بيته -وهو أمر يصعب تصديقه بالنسبة لسائق- أو حتى قطط. لكن الحيوانات الأليفة تعجبهم لأسباب خاطئة. بمرور الوقت، يدرك الأزواج والزوجات أن الحُب الذي كنّوه لبعضهم البعض، منذ بداية العلاقة، قد انتهى. أو ليس الأمر كذلك بالضبط: إنه لا ينتهي دائمًا، بل فقط يتغيّر. يتوقف عن كونه محبة خالصة، ويتحوّل شيئًا فشيئًا إلى كراهية: هكذا تصمد الزيجات. ثم تأتي الحيوانات الأليفة. حيث تكون فائدتها، سَد الفجوة بين الأزواج، فقط. يصلون إلى العلاقة وهم يقدمون جرعات كبيرة من الحُب غير المشروط. وعندما يتحول الزواج إلى قضية خاسرة، تكره الحيوانات الأليفة شريك مالكها. هكذا هو الأمر. دائمًا، للأسباب الخاطئة. إنهم يحتقرون القدرة

الموسيقية للكلاب. لا يفهمون كيف أن الكلاب تفعل كل شيء من أجل الموسيقى. أن القطيع يتحرك في جماعة، كما لو كان يستجيب لتناسق مقطوعة موسيقيّة. لا يعلمونهم هذا، وإنما يظهرون لهم القسوة وحسب. لا يعترفون بالعنف كفضيلة مطلَقة فيهم.

4

في تلك الليلة، قرر الفتى، موزِّع طلبات البقالة الكورية، أنه لن يعود إلى البيت. بعد قداس الساعة الحادية عشر في إبرشية القديس كيم تايغون، فقد الحافلة الأخيرة بسبب تأخره في مراقبة حركات الظلال في نوافذ المنزل الكبير. سيجبره هذا على البقاء في الشارع حتى الفجر، لذلك قرر التعرف على منزل شارع (تلمود توراة) من الداخل. لكنه لم يكن يعرف السبيل إلى ذلك. وليس من المعقول أن يقرع جرس الباب الرئيسي ويطلب من السيدة إكس السماح له بالمرور. بعد ظهر ذلك اليوم، قام بتسليم الطلبات إلى المنزل. لاحظ الشاب الموزع، في الآونة الأخيرة، أن الطلَبات قد انخفضت أو توقفت تقريبًا. لذلك كف عن تسجيل الأشياء المطلوبة، وضم أشياءً أخرى إلى الطلَب. لا يعلم تحديدًا، لماذا فعل ذلك! كالعادة، بدأت المُربية بالحديث. لم يكن دائمًا على استعداد للدردشة معها، لكن هذا المرة، كان الأمر مختلفًا، بدأ باستعراض اللغة الإنجليزية التي تعلمها من خلال استماعه إلى أغاني فرق موسيقى الميتال. أوضح للسيدة إكس، أنه لا يتعين عليها الدفع، حيث أن مالك البقالة قد اكتشف خطأً

في فواتير الحسابات السابقة، وتبيَّن أن لديها رصيدًا فائضًا. اعتذر عن هذا الخطأ. بعد أن ظنت أن الأمر يرجع لسوء فهم لغوي، غيرت السيدة إكس الموضوع وسألته، إن كان لديه صاحبة. ففي نهاية الأمر هو فتى لطيف ولا يمكنه أن يكون عازبًا. حينها أخبرته أنها كانت متزوجة. قبل عدة سنوات مضت. فجأة بدأت السيدة إكس بالانفتاح مع الشاب الموزع، كما لو كان أحد معارفها، يبدو أنها كانت بحاجة إلى التحدث مع شخص ما، كما قال الشاب في إفادته. كذبَت على الصبي. ظن بأن السيدة كانت وحيدة، على كِبر سنها، بينما هو ليس وحيدًا، ربما لديه العديد من الأصدقاء. أجاب الشاب بنعم، أنه يحب صديقته كثيرًا وأنها جميلة جدًا، بل هي فائقة الجمال بالنسبة له، وأن العمل يحتل جل وقته، ويود لو يرى صديقته أكثر، لكنه لا يستطيع أن يفعل ذلك دائمًا. انتهز الفرصة ليسأل السيدة فيما إذا كان صحيحًا أن طفلًا عجوز يعيش في المنزل. قال أن كل سكان الحيّ يقولون ذلك. في الواقع، كان الفتى الموزع قد رأى بالفعل ظل المخلوقة الصغيرة من خلال النافذة في الليل، عندما كان يمر في طريقه إلى بيته. حين سمعت ذلك منه، ظلت السيدة إكس صامتة. نظرت إلى الفتى ثم شكرته، بالكاد مادّة يدها بالبقشيش. ثم دخلت إلى البيت وأغلقت الباب. شعر الفتى بالحرج، لهذا السبب لم يكن يظن أن السيدة إكس ستفتح له الباب إن هو رن الجرس. بالتأكيد لن تفتح له. عندها التف حول المنزل الكبير وقفز فوق السور الخلفي، كما اعترف. كان عليه أن يرى المخلوقة من قرب، مهما حدث، سوف يفعل ذلك تلك الليلة نفسها. وأثناء تحققه من عدم وجود كلب حراسة في المكان، اكتشف الفتى نافذة مخلوعة مائلة تؤدي إلى القبو، فتمكن من الدخول بعد لوي المقبض.

كانت الحجرة مظلمة وبإمكانه شم رائحة الخردة القديمة المكدسة هناك. التصقت بوجهه خيوط شِباك العنكبوت بينما هو يتخبط باحثًا عن الدرج. ذكره هذا المشهد بمقطع فيديو لفريقه المفضل لأغاني الميتال. عندما وصل إلى بداية الدرج الصاعد إلى الطابق الأعلى، قام بإيقاف جهاز الموسيقى في أذنه وسار في ممر انتهى في غرفة مظلمة أخرى يخرج منها أثر ضوء خفيف. لا بد وأنها شموع مشتعلة، فكر الشاب، ثم شم رائحة ورود نفّاذة جدًا. وعندما وصل إلى هناك، رأى السيدة إكس برفقة المخلوقة. كان ظَهراهما في مواجهته، يشاهدان التلفزيون. بقى فتى التوصيل متخفيًا. وفقًا لتفسيرات المُربية، كانتا تشاهدان، للمرة العاشرة، تسجيل برنامج عن نمر الثلوج الذي يعيش في حديقة الحيوانات المتروبوليتانية. كان الحيوان قد فقد رفيقته، ومنذ ذلك الحين ظهرت عليه عدة اضطرابات سلوكية ناجمة عن الاجهاد، هذا ما قاله البرنامج من بين أشياء أخرى بدت سخيفة للفتى. حينها رن هاتفه الخلوي. في تلك اللحظة، التفتت المخلوقة نحو مكان الفتى، لكن تلك الالتفاتة كانت بطيئة بحيث بدت لا نهائية، حادة، مثل حركة عقرب الساعة وهو يحتفي بمرور الثواني، مما جعل الفتى يتخيل بأنه، عندما تنتهي الالتفاتة سيكون لهذه المخلوقة وجه كوجهه، وجه فتى كوري. عندئذ خرج راكضًا من حيث أتى، دون أن يتمكن من رؤية أي شيء... ولا حتى الأسنان التي تلمع في الجوف المظلم لغطاء رأس أحمر.

المعرض العالمي الأول لرسوم أوضاع نمر الثلوج - المشهد الرابع، والذي يرتدي فيه نمر ثلوج، وهو جائع يوشك أن يموت، ملابس إنسان ويغادر صوب أراضي جديدة.

كان ياما كان، نمر ثلوج أمضى شهرين زاحفًا عبر الصحراء. لم يرد أكثر من تتبع الصوت البشري الذي أسَره. تلك الأغنية اللانهائية ذات الحزن الهائل، تخرج من داخل عربة مغطاة، ترقد فيها صاحبة الصوت، غارقة في الحزن بعد فقدها لابنها الذي مات بسبب المرض. لتتبعها، كان على نمر الثلوج مواجهة قطيع الكلاب التي تسير خلف القافلة. كم مقت عبيد البشر هؤلاء، الكائنات الساذجة، هؤلاء الجوعى البلهاء. لكنه أيضًا، لا يمكنه التباهي عليها ببطن ممتلئة. لا يا سيدي. في بعض الأحيان، كان زئير بطنه يفزعه. كما لو أن نمر ثلوج آخر يعيش في أحشائه. حينها، كان يزحف بين الأحراش والشجيرات الجافة بسبب الصيف، ويلتهم البقايا التي يجدها، يصارع الحيوانات التي تتغذى على الجيف والقمامة، ويأكل الفئران التي لا تستحق زيارة بطنه. لكنه يحتاج إليها، الفئران. ليس هناك خيار آخر. في برد الليل، كان يسمع نمر الثلوج القابع في داخله يتلهى بالفئران. ذلك الصوت البشري الذي يغني، أصبح هو مالكه الوحيد الآن، وكان أقوى من إرادته بكثير. من وقت لآخر، كان يسمع أيضًا كلمات جده، بشكل تدريجي متباعد، وبالكاد مسموعة، يُخبره أنه يرتكب خطأ وأن هذا الخطأ سيكون قاتلًا، كما كان بالنسبة له. لكن نمر الثلوج بات أصمًا ويواصل سَد أُذنيه. بدأ الشتاء بإظهار علامات قدومه. فكر النمر، أنه

وبسبب ضعفه، قد لا يبقى على قيد الحياة حتى أول تساقط الثلوج. لم يعد يهمه شيء سوى الصوت البشري، هذا الصوت الفريد. غناء هذا الصوت البشري هَدهَد أول ليالي الصقيع. حينها، اقتربت القبيلة الرحّالة من إحدى البلدات. كان ذلك مكانًا يعرفه نمر الثلوج، من خلال القصص القديمة التي رواها له جده وأعمامه. إنها بلدة صائدو نمور الثلوج. شَعر النمر الشاب بالوهن أكثر. راح الطعام يشح. ظل لعدة أيام لا يجد أي شيء يأكله، ولا حتى جرذ حقير. وفي ليلة من ليالي العاصفة الثلجية، ظهرت الحيّة. لا يدري إن كانت قد جاءته في الحقيقة أم في أحلام تنقلها الرياح. الأفعى نفسها التي نصحته باتباع القبيلة الرحّالة، التي أقنعته أن هذا هو مصيره. خطر في ذهن النمر ابتلاع الحيّة، لكن، مجرد الفكرة، قلَبت له معدته. تقيأ قليلًا من الصفراء، واستعد للاستماع إلى ما تريد الحيّة إخباره به. لكنها لم تقل شيئًا، واكتفت بتأمله لبضع لحظات، بعيون تملأها الشفقة. لحظتها، فقد نمر الثلوج الوعي. وفي أحلامه، رأى نمر ثلوج بائس، رأى نفسه يحترق بالنار في محرقة وسط دائرة كبيرة من العربات. وأمامه، صاحبة الصوت البشري، كانت تغني بطريقة حزينة جدًا. ومع أن النيران كانت تضيء الإثنين، إلا أنه لم يستطع رؤية وجه المرأة، رأى ظلها الذي استهلكه المرض وحسب، يزداد شحوبه أكثر فأكثر، يزداد تضاؤله أكثر فأكثر، حتى اختفى تمامًا. ثم عاد نمر الثلوج إلى غابته المتجمدة. أمضى أيامًا دون أن يأكل، لكن روحه بقيت فارغة، ليس بسبب نقص الطعام، وإنما بسبب غياب الصوت البشري. مع كل زقزقة عصافير ومع كل هدير رعد تردده قمم جبال الألتاي البعيدة، كان نمر الثلوج يريد سماع المرأة تغني. في ليلة ثلجية، وجد جثة رجل. كانت سليمة

وكل شيء حولها متجمد. رأى بقايا نار لم تكن كافية لتدفئته. تمكن نمر الثلوج من تفحصه من قرب، نظر في عينيّ الرجل. فرأى أفظع شيء على الإطلاق. تجمد الرجل بفعل الرياح الجليدية التي ألقاها الجبل على العالم في الليلة السابقة، دويّ يهوي من قمم جبل الألتاي على المنحدرات محولًا كل شيء يمسه إلى جليد. لوهلة، فكر نمر الثلوج في نزع جلد الرجل وارتدائه والعودة للعيش مرة أخرى مع الصوت البشري. اقترب أكثر من تلكما العينين الزرقاوين الجليدية، ورأى أن هذا لم يكن تعبير رجل، بل إنه وجه الموت. عندما استيقظ نمر الثلوج، كان يقبع في قفص. فقد قبض عليه صيادو البلدة، كانوا يقدمون له الطعام بوفرة. خلال بضعة ليالي، كان في سجن عائم غريب، أكبر حتى من القفص الأول. لم تنفعه كل تلك الأطعمة، فقد كان يعاني من الغثيان طوال الوقت، ويتقيأ كل ما يتناوله. تسافر معه حيوانات أخرى. كان السجن يتأرجح على أكبر كتلة مياه تخيلها النمر على الإطلاق. كانت سفينة تعبر المحيط الشاسع، لا أرض في الأفق يمكن أن تستقر عليها العين. وفي الليالي، لا شيء يبقى سوى غناء الحيتان الحزين.

5

كانت تلك، هي المرة الأولى التي يمضي فيها، فتى التوزيع، الليل في الخارج. كان مستلقيًا على مقعد في حديقة (آلوز) يفكر في المخلوقة. لماذا ترتدي قبعة ومعطفًا للمطر داخل المنزل؟ لماذا ترتدي

قفازات إن لم يكن الجو باردًا إلى هذه الدرجة؟ كان على وشك رؤية وجهها، لكنه فزع من البرنامج الذي تشاهدانه على شاشة التلفزيون. ذو موسيقى تصويرية مكررة، مرعبة مثل أغاني الميتال التي يحبها. لم يعد أمامه من خيار سوى قضاء الليل في الخارج. لكن المشكلة كانت في المدمنين واللصوص الذين يجوبون المدينة. سوف يقضي والداه الليلة قلقين. لكنه لا يستطيع انتظار أول حافلة في الصباح والعودة إلى البيت ثم الذهاب إلى العمل دون تأخير. قرر فعل الآتي: سينتظر ظهور الشمس ثم سيتصل بأمه. سيخترع أية كذبة. يمكنه أن يقول لها بأنه أمضى الليلة مع صديقته. ولم لا؟ أية صديقة؟ ستسأل أمه. سيستغل هذه الكذبة للتفاخر أمام زملائه في العمل. لقد قضيت الليلة مع صاحبتي، سوف يقول. كانت حجة عظيمة. نعم، لقد تم اتخاذ القرار. في تلك الليلة ذاتها، وبعد أن أمضى الصبيحة والظهيرة في رواية الأكاذيب الرومانسية، ذهب الفتى إلى مجموعة شباب إبرشية القديس كيم تايغون، من أجل التغيير. لم يعره أحد اهتمامًا: لم ينتبه أحد أنه كان يرتدي ثيابًا مجعدة، كشخص قضى ليلته في الشارع. بعد ملاحظة اهتمامه المتزايد بالفتاة، كف شباب المجموعة عن تحيته. كما لو أن الفتى الموزع لم يكن موجودًا بالنسبة لهم. سوف ينجز مهامّه تحت إشراف المبشر، لكنه لم يتبادل أية كلمة مع بقية الشباب. الفتيات أيضًا يسخرن منه: ضحكن من ثيابه التي تشبه ثياب القراصنة. لكن الفتى لم يكن ينتبه لشيء آخر سوى فتاته. وبينما كانت الفتاة تقرأ في المايكروفون بعض الفقرات من إنجيل متى، كان هو يستمتع بالتفكير فيما ستفعله إن هما أمضيا الليلة معًا. أثناء القداس، وعندما أدركت الفتاة ما يحدث للشاب، شَعرت بالشفقة عليه: لم تكن موافقة

على كل تلك الإهانات، تظن أن هذا السلوك لا علاقة له بالعقيدة المسيحية. عندها قررت حماية الفتى من ضراوة خصومه المراهقين. دعته إلى قراءة النصوص معها وأحاطته بالاهتمام. لم يستطع الفتى أن يصدق حظه: فبعد الكوابيس التي جاءته على مقعد الانتظار في محطة الحافلات (كوابيس متعلقة بجهة خاطئة وسيارة بدون سائق)، ستكون هذه هي ليلته الرائعة. ما أن بقيا وحدهما، وبينما كان الآخرون يبحثون عن آلاتهم الموسيقية في القبو الواقع في الجزء الخلفي من الكنيسة، فسر الشاب بريق شفاه الفتاة الرطبة بالرغبة في ممارسة الجنس. وبينما هي مستمرة في قراءة النصوص، فقَدَ الشاب السيطرة على نفسه. وضع يده على نهدها الأيمن وأخذ في تقبيلها وضمها من خصرها بذراعه الأيسر. ثم أمسك برقبتها وغطى فمها من الخلف وسحبها حتى غرفة خزانة الكنيسة. هناك، سيطر على يدي الفتاة بضربات من يده، ثم فقد عقله ولكمها في فمها الذي نزف بغزارة. خلع سرواله ومزق تنورة الفتاة بحركة واحدة، كما شهدت الفتاة في إفادتها. من المؤكد أنه استطاع أن يرى، وهو شبه ميت من السعادة، الوهج الأحمر للحم بين شعيرات عانتها السوداء. في تلك اللحظة، أطلقت الفتاة صرخة مخنوقة. حضر الشباب إلى غرفة الخزانة، جاءوا بصدد توصيل قيثاراتهم بمكبرات الصوت التي في الصالة المجاورة. وحالما أدركوا ما كان يحدث، بدأوا برَكل الفتى الذي لم يقاوم: كانوا أكثر عددًا. كسروا أضلاعه ركلًا، وفقد عددًا من أسنانه بفعل الضربات. تأثر النظر في عينه اليمنى. إلا أنه فضل عدم تقديم بلاغ، حاله كحال الفتاة، التي لم تتهمه بمحاولة اغتصابها. كان فتى التوزيع الكوري، هو الوحيد الذي سمع شهادة السيدة إكس ورأى المنزل

الكبير من الداخل، عندما كان ما زال مفروشًا بالأثاث، ومن هنا تأتي أهميته بالنسبة للقضية.

سرعان ما أدرك سائق التاكسي أن الكباش، مثل الكبش الذي حصل عليه في المرة الأولى، لم تكن كثيرة العدد في المنطقة كالقطط. في المرة الخامسة التي حاول فيها سرقة كبش آخر، أطلق عليه أحد مزارعي حي (آتيبايا) من رصاص بندقيته دون أن يصيبه. وصل السائق إلى تلك المنطقة بحثًا عن فريسة صيد لكلابه الروت وايلر. لكن المزارعين الذين انتبهوا إلى السرقة السابقة، بدأوا بتعزيز الأمن، فقد أثار اختفاء الحيوان الأول، وهو فحل للمعارِض الزراعية، قدرًا كبيرًا من عدم الثقة. اضطر السائق، لبعض الوقت، اللجوء إلى قطط ساحة المصنع المهجور، قليلة العدد بالفعل. لكن الكلاب أظهرت نوعًا من عدم الاهتمام، من المؤكد أنها لم تشعُر بالحماسة. أكد السائق في اعترافه. وبعد إبادته لجميع قطط المنطقة الشرقية، استحضر الرؤيا التي أتته بعد فترة وجيزة من أول مرة نهشت فيها كلابه قطًا. في فجر أيام العمل في الأسبوع، عندما لا يتلق الكثير من المكالمات، راح يتجول في شوارع مركز المدينة، في حي (فيلا بواركي) و(الشانزيليزيه) و(سانتا سيسيليا). جولات لانهائية حول ميدان (أروشي). رأى مشهدًا من العاهرات ومتحوليّ الجنس في الشوارع المظلمة، مدمني مخدر (الكراك). ظل يراقب، ويدون ملاحظات في ذهنه، يسجل بيانات، يتعرف على أوجه وأجساد. وذات ليلة، عندما رأي الضرب الذي تعرض له أحدهم أساء دفع خدمة جنسية، استنتج أن العاملين في مجال الجنس متحدين جدًا،

بالنسبة إلى الفكرة التي طرأت في ذهنه. استبدل حقل بحثه وبدأ يتجول في جادّة (ريو برانكو) وما فوقها، في أرجاء المنطقة المعروفة شعبيًا باسم (كراكولاندنيا) [أو (سوق المخدرات)]. راقب رقصة الأجساد الملفوفة ببطانيات كريهة الرائحة. لهب ضارب إلى الحمرة يتصاعد من أنابيب التدخين المصنوعة يدويًا. تقوم الشرطة بقمع بيع المخدرات في وسط المدينة. رسم خرائطًا للأماكن التي ينام فيها المدمنون. راح يتبع صبيًا لا يزيد عمره عن سبعة عشر عامًا تقريبًا. لم يتدهور بشكل كامل بعد، ولكنه، على ذلك، كان هشًا إلى حد كبير. ثم استبعد الفكرة، ظن بأنه لن يكون في مستوى التحدي. عندها ظهر في المنطقة رجل أكبر، كان قويًا وله لحية طويلة رمادية، أجبره مصيره على الخضوع للمخدرات. كان عنيفًا. يسرق الأضعف منه. اغتصب فتاة مدمنة من المجموعة. شهد سائق التاكسي كل ذلك عِبر نافذة سيارته المتوقفة في أكثر الزوايا عتمة. من محله هذا، تمكن من مراقبة كل ما هو مضاء. بدا الأمر كسينما منحرفة. هذا الرجل يتعارك في الشوارع من أجل المتعة. فقرر أنه سيكون الهدف: المتشرد العجوز. اختطفه ذات ليلة، وهو نائم في نفق تحت ممر (شارع العرائس). ولتحقيق هدفه، لجأ إلى المخدر ذاته، الذي أعطاه للكباش. لكن وزن المتشرد العجوز كان أثقل بكثير من كبش. كان طويلًا وله عضلات قوية. قام السائق بالاختيار الجيد. رماه في صندوق السيارة وتوجه نحو الغابة التي تحيط بالبحيرة. لم يكن هناك الكثير من الوقت لتبديده. ترك المتشرد العجوز مكممًا ومربوطًا إلى شجرة، كما ترك الكباش. ومع كمية المخدر التي حقنه بها، لم يكن هناك أدنى خطر من استيقاظه. ثم ذهب إلى المتنزه، في ساحة المصنع المهجور في

المنطقة الشرقية. أخذت الكلاب بالنباح بالفعل، حال وصوله إلى تجمع الدور التي تقع على بعد مئة متر من بيته. عندما وطأت إطارات السيارة بلاط الطريق الضيق المؤدي إلى البيت، ازداد نباح الكلاب. كانت تعرف، وتنتظر تلك اللحظة. نباحها المختلط باهتزاز عضلاتها التي كانت تنقبض وتنبسط، كان أشبه بموسيقى نقية. لا، لا، بل كان سيمفونية حقيقة، كما أكد السائق في إفادته.

بينما تطن أذناه وهو ممدد على الأرضية الباردة لحجرة مخزن كنيسة القديس كيم تايغون، رأى فتى توزيع طلبات البقالة الكورية الصغيرة، صورًا تتكرر في ذاكرته من البرنامج التلفزيوني الذي كانتا تشاهدانه، السيدة إكس والمخلوقة، في المنزل الكبير. في الليلة السابقة، وبينما هو يحاول أن يحبس أنفاسه كي لا تلاحظا وجوده، رأى من خلال مخبأه، هالة الضوء التي تنبعث من الشاشة نحو الصالة المعتمة. وصوت الراوي العميق يقول أن نمر الثلوج قد تم اصطياده في قرية آسيوية بالقرب من جبال ألتاي الذهبية في روسيا، وتم نقله إلى حديقة الحيونات في ساو باولو. كان حيوانًا غير عادي، يصعب تكيّفه مع الحبس. في حديقة الحيوانات تنتظره أنثى. وفي البرنامج التلفزيوني، التقوا بطبيبة بيطرية شابة، أكدت أنهم والعالم أجمع، ينتظرون بشغف ما سيسفر عنه أول تزاوج بين نمور الثلوج الأسيرة. بين لحظة وأخرى، كان فتى التوصيل يستجمع شجاعته، كي يمد رقبته ويراقب سلوك المتفرجتين. لكنهما كانتا جامدتان: ظلان ثابتان أمام شاشة التلفاز البراقة. تابع راوي البرنامج كلامه: لم تتلق الأنثى بشكل جيد وصول الذَّكر، وانعزلت في عمق الكهف المخصص للزوجين

في حديقة الحيوانات. على ألعاب الغزل التي مارسها الذَكر، والذي نفذ المهمة التي انتظرتها منه الطبيبة، إلا أن الأنثى لم تبد أي اهتمام بشريك قفصها. في شهادة أخرى، أكدت الطبيبة أن الأسر يغيّر تمامًا من عادات الحيوانات، وهذا بالتأكيد ما حدث للأنثى. على الحالة السيئة للذَّكر عند وصوله إلى الحديقة جريحًا ويعاني من سوء التغذية الشديد، إلا أنه تعافى في وقت قصير. بالنسبة لبعض من تابعوا من كثب محاولات نمر الثلوج الفاشلة، (الذي أطلق عليه عالِم أحياء مَرِح، تسمية «عاشق الثلوج»)، كالطبيبة البيطرية على سبيل المثال، فإن تلك الرقصة كانت كالحياة نفسها. بحسب رأيها، حيث أنها، منذ فترة قصيرة، فسخت خطوبة تعيسة: كل تلك المعاناة تعكس بشكل كامل الفشل المحتوم للحُب. استمر التقرير، ووصف الراوي باعتدال محسوب ومهني، خبر موت الأنثى. تدهورت حالتها المكتئبة وتوقفت عن الأكل. ماتت بعد حوالي ستة أشهر من وصول الذَّكر إلى الحديقة. هل تنتحر الحيوانات؟ تساءل عندها الراوي، مبالغًا في الأداء أمام مشاهدتيه الصامتتين، المخلوقة والسيدة إكس، بينما تعرض الشاشة صورًا لقطيع من الجاموس البري البوفالو يرمي بنفسه من أعلى جرف. ثم وصف صوت الراوي انتحار قوارض اللاموس النرويجية، التي تُلقي بنفسها على شكل مجموعات، من أعلى الجروف، في مياه المحيط الأطلسي، وتواصل السباحة نحو العمق وصولًا إلى نقطة معينة في المحيط، وهناك تغرق. بالعودة إلى نمر الثلوج، أدرج البرنامج مراحلًا مختلفة من السلوك اللاحق للحيوان. بدأ سيئ المزاج، سريع التقلب. وكان في البداية عنيفًا. لجأوا في التعامل معه إلى أقدم مسؤول عن رعاية الحيوانات في الحديقة

لإطعامه، وعلى خبرته، فقد انتهى به الأمر مجروحًا. ظل الحيوان يزأر ليلًا ونهارًا، مثيرًا خوف الزائرين، ثم اختفى في داخل كهف (نوكتوراما) الذي تم نقله إليه. بمرور الوقت، راح يكتسب عادات ليلية تمامًا. ولا يمكن رؤيته إلا خلال النزهات التي يتم تنظيمها مرة واحدة في الشهر، عند اكتمال القمر. وحتى في الليل، كان من الصعب رؤيته، لأنه يقوم بتمويه نفسه في الزوايا أو يستلقي على أعلى فروع الشجرة التي تتوسط قفصه. كانت الطبيبة البيطرية تخشى حدوث الأسوأ. ثم حدث. بما أن الذكر كان قد اختفى عن أنظار الجميع منذ أسبوع، طلبت البيطرية مساعدة مسؤول الرعاية، ودخلا معًا إلى الكهف، مسلحين ببنادق السهام المهدئة والمشاعل. كان من المستحيل رؤية أي شيء في الداخل. بعد عشرين دقيقة من المشي، أدركا أن المكان أكثر عمقًا من ذي قبل. اكتسب الممر الصخري الطويل عشرات الأمتار من العمق. ثمة علامات على الحائط تشير إلى أنه تم حفرها. نظرا إلى بعضهما البعض في صمت ودهشة. عَثرا على نمر الثلوج تحت صخرة في نهاية الكهف. كان الحيوان يلهث مختنقًا وعيناه تبرقان في الظلام. ممدّدًا على بركة من الدماء، وعندما سمع صوت الطبيبة رفع رأسه. خمّنت الطبيبة أن الدماء هي دماء نمر الثلوج، لكنها لم تستطع رؤية جروحه، بسبب وضع الحيوان. وحين اقتربت، رأت أن النمر قد التهَم قائمتيه الأماميتين، وكان يلعق الجروح المدماة.

5

الطَبّاع:
عُثة مائلة للحمرة

أدى الهجوم الذي تعرض له سائق التاكسي إلى توقف الاستماع إلى أقوال المُشتبه بهم في الساعات الأولى من الصباح. عندما سمع مأمور مركز الشرطة يقول أنهم قد ضحوا بكلابه، استدعى الأمر ثلاثة ضباط لاحتوائه. بعد اخضاعه، قاموا باعطائه مهدئًا واقتادوه إلى الزنزانة. كان الموظفون في حالة إثارة، لكن ما أثار جنونهم جميعًا هو وصول المخلوقة. بالكاد رأيتها تدخل من الجانب الخلفي للمبنى. كانت داخل صندوق بالكاد يكفي لكلب متوسط الحجم أو ربما طفل عمره عشرة سنوات. يحملها أربعة من رجال الشرطة بجهد. وكان الغرض من الصندوق هو حمايتها من ضوء الشمس مع أن الشمس لم تبزغ بعد. تم البحث عن المخلوقة على مدار أيام إلى أن وجدوها في ممر جانبي بعمق الكهف في حديقة الحيوانات. كانت بجوار جثة نمر الثلوج. شعر الجميع بالاحباط، لأنهم لم يتمكنوا من رؤيتها محبوسة كما كانت، في غرفة معزولة ونوافذها مطلية بالأسود. لم يسمحوا لي بالخروج من العمل إلا بعد مرور تلك الفضيحة ووصول كاتب الطباعة الخاص بنوبة الفترة الصباحية. على أية حال، لم أستطع الاستمرار في الخفارة: كان عليّ الذهاب للاعتناء بالعجوز. من المستحيل الوثوق بالعامل البوليفي أو أحد أبناء عمومته، الذين يُفترض بأنهم قد وصلوا إلى المدينة في الليلة السابقة، والذين، بلا شك، ينامون بين رفوف البقالة في تلك اللحظة. بما أنه ما زال هناك وقت، قبل أن يزول تأثير المسكن عن العجوز ويستيقظ، قررتُ تجنب المترو والعودة سيرًا على الأقدام، عبر جادّة الشانزليزيه. في الظلام الدامس. تحت جسر شارع سيلفا بينتو، رأيت كُتلًا تخرج من أكوام القمامة المتناثرة على الأرض المفتوحة بجوار قضبان سكة القطار. شعرت بخمول، كنت

قبل مرحلة الأرق، أربطه بالنوم. وضعت يدي في الجيب الداخلي لسترتي كي أتناول زجاجة عقار الإيفا-نوركس. لم يكن موجودًا. قمتُ باعإدة فرز ذهنيّ، لجميع الأماكن، في مركز الشرطة حيث كنت أثناء الخفارة، من أول طاولة القهوة حتى الحمّام، من مكتب مأمور القسم حتى مكتبي. لم أستطع تذكر فيما إذا كنتُ قد تركتُ الزجاجة في أحد تلك الأماكن. أصابني اضطراب، هوس، بارونويا. ماذا لو عثر أحد ضابط الشرطة على زجاجة الأمفيتامين المُنشِّط بين أشيائي؟ بدأ النعاس يغلبني أكثر، وصرتُ أرى كل شيء غائمًا أكثر، تضاعفت الكُتل الخارجة من أكوام القمامة وظهرت لها أذرع، ولم أتمكن من معرفة إن كانوا بشرًا أم لا. من يستطيع؟ منظرهم ذكّرني بشيء يشبه عثة كبيرة بأجنحة مفتوحة. في تلك اللحظة، كنت بحاجة إلى حَبتين من الإيفا-نوركس، معًا ممزوجتان بجرعة من الويسكي. أسرعتُ الخطى تاركًا الحشرة خلفي. ولكن، في منتصف الطريق، استحوذ عليّ جنون الارتياب، فعدتُ إلى مركز الشرطة. بزغَت للكُتل عيون تلمع في الظلام. يمكن رؤية لهب القداحات المشتعلَة وصوت أنابيب التدخين التي يتم مصها بشراهة.

عندما وصلت إلى مركز الشرطة، قالت لي عاملة التنظيف وهي تكنس الرصيف، أني مجنون، وما الذي أفعله هنا، وأبي العجوز، مَن سيرعاه المسكين، إلخ. لم أُجبها وذهبتُ مباشرة إلى مكتبي، لكنني لم أجد الزجاجة. قمتُ بتفتيش صناديق القمامة في الحمّام. لا شيء. انتهزتُ فرصة أن رئيس القسم الخاص بالفترة الصباحية لم يصل بعد، وألقيتُ نظرة على مكتبه، لكن دون جدوى. في الممر،

طلبَ مني طَبّاع الفترة الصباحية، منتهزًا فرصة وجودي، ووجهه لا زال منتفخًا بفعل سُكر الليلة السابقة، أن أساعده في تسجيل مَحضَر سرقة، وآخر عن إصابة جسدية جسيمة، وآخر عن وفاة أحدهم. قال لي شرطي: «أيها العَبد»، عَبد الليل، اذهب واخلد إلى النوم يا عَبد الشرطة، استفد من وقت فراغك يا أخي. رردت عليه بابتسامة حزينة وذهبت. هذا الغبي لا يعرف قيمة محاربي الكومانتشي. عند الباب سألت المُنَظِّفة إن كانت قد وجدت على الأرض زجاجة حُبوب، دواء لارتفاع ضغط الدم، أوضحت لها. أجابت بالنفي. كانت رائحة جثث الكلاب الملفوفة في الأكياس السوداء في مرآب مركز الشرطة لا تطاق. سألتها إن كان موظفو «مركز السيطرة على الأمراض حيوانيّة المنشأ» سيأتون لحرقها، أومأت بكتفيها دلالة الجهل. غادرتُ المكان مجددًا. أشرقت الشمس، لا بد وأن العجوز على وشك الاستيقاظ. بدّد الضوء الكتل على الأرض المفتوحة. في الصباح الباكر يعود حي (البووم رتيرو) إلى الحياة ويستحوذ عليه التجار الكوريون الذين يتجاذبون أطراف الحديث أمام أبواب متاجرهم، في حين يذهب اليهود المسنون الباقون في الحي إلى الكنيس للصلاة والدعاء لرفع الإيجار قريبًا على الكوريين. ثم يحتل البوليفيون الشوارع. كل سكان مدينتي (سانتا كروث دي لا سييرا) و(لا باث) مجتمعون، يُصلّون للإله إيكيكو، كي ييسر لهم الحصول على المال السهل والعودة إلى بلادهم، ولكن، في الواقع، كل ما ينجحون بفعله هو أن يستغلهم الكوريون الذين يُدينون بالإيجار لليهود.

أرى تحت تأثير فقاعات النوم التي بدأت تطفو أمام عيني. بدأ

الكوريون والبوليفيون بالتضاعف، واختفت المراهقات الكوريات بتنانيرهن القصيرة وكتبهن المدرسية تحت أذرعهن في فراغ المترو المظلم. رجال بوليفيون يحملون أطفالًا على أذرعهم، يقفون على النواصي بينما تعمل نساءهم في ورش الحياكة السرية للكوريين المُسنين الذين يبصقون البلغم في مجاري التصريف. فقاعات النوم تخرج من البالوعات. تنفجر في وجهي كفقاعات الصابون. فقاعات من الضوء تغطي زاوية التقاء شارع (براتش) مع شارع (ترش ريوش). كنت بحاجة لإيفا-نوركس، تُرى هل نسيته في الشقة؟ كان ذلك من المحتمل جدًا، لأنني وقبل ذهابي إلى عملي الليلي كان النعاس قد غلبني لبضع لحظات، في الصالة، محتضنًا جاموس البوفالو، وحتى أنني، في بداية الحلم، كنتُ راكبًا على الجاموس الذي حلّق فوق الحيّ، ورأيت تحتي اجتماع اليهود يوم الأحد في البليتزل القديمة، كما استطعتُ رؤية أمي تتأبط ذراع أبي ومعهما الدكتور غلاس، كان صباحًا، كانوا يضحكون ويغنون بصوت مرتفع نشيد الأمميّة الإشتراكية. يبرز صوت أمي من بين الأصوات الأخرى، والرجال والنساء يتمايلون حولهم، بعد ذلك، تسبب صوت حاد أطلقته أمي، في شل حركة البوفالو الطائر، فسقط في وسط الساحة على الرؤوس المعمّمة بالطواقي والكيباه، فتفجّرت رؤوس الساهين الذين لم ينتبهوا لوجود جويّ آخر خارج نطاق الإله. لو أنهم ارتدوا خوذات بدلًا من الكيباه لكانت أكثر فاعليّة وحماية. من المستحيل معرفة ما إذا كان ذلك قد حدث فعلًا، لأنني، وطوال أسبوعين كنت أحلم وعيناي مفتوحتان. عندما انتبهت، كنت أقف أمام منزلي. كعادتهم، تأخر البوليفيون في فتح ستائر مَحل البقالة. شعرتُ بوخزة في صدري.

ضوء الدرج ما زال مشتعلًا، وبدا كل شيء طبيعيًا. وخزة أخرى، أقوى. ربما تكون نوبة أخرى من الهوس والبارانويا، أو فقط، بداية أزمة قلبية.

كان باب الشقة مفتوحًا والمفتاح منسيًا في القفل. لم يفعل جاموس البوفالو أي شيء لمنع العجوز من الخروج، بل والأسوأ من ذلك، (في الأرض، تحت بطنه، كانت هناك كومة صغيرة من نشارة الخشب تغطي كل خضرة السجادة تقريبًا). لقد تعرض لنزيف حاد. كانت الشراشف مبعثرة في الغرفة ولم تبق سوى علامة جسد العجوز عليها. كان القماش باردًا. بحثتُ عنه في جميع غرف الشقة. وجدت في المطبخ زجاجة الأمفتامين المنشط: فارغة، لم يتبق لي فيها أية حَبة لمحاربة النوم. بجانب الزجاجة كوب فارغ. بحثتُ عن الحبوب في صندوق القمامة وفوق سطح ماء المرحاض. لا أثر. توقفت أمام الجاموس في الغرفة وسألته بصوت خفيض عما يجب عليّ فعله الآن. لم يجب، مع أن عينيه كانتا تنظران إليّ. لاحظت أن هناك المزيد من نشارة الخشب على سطح السجادة: لم يكن الحيوان بحال جيد أبدًا. لم أنتهِ من دفع ثمنه بعد وها هو مُصاب بالنمل الأبيض. هبطت الدرج دون القلق بشأن صرير الخشب ولا بعمل النجارة اللانهائي للنمل الأبيض تحته، ضغطت على الدرجات بقوة، مثيرًا كل الضوضاء التي استطعت، حتى قفزت على الرصيف. لم يمنعني أحد من الخروج بحثًا عن العجوز، على أنني، لوهلة، تمنيت أن تظهر أمي في الممر وترفعني من الأذنين حتى السماء كعقاب. ما زالت ستائر المحل مغلقة، ولم يكن أحد هناك في الأفق

سوى مالك محل وجبات البولغوغي الكورية في الجانب الآخر من الشارع، رجل كوري كئيب الوجه، يبيع لحم الكلاب المشويّة لمواطنيه. هل هو الكوري نفسه أم آخر؟ ربما يكون ابنه، أو حفيده، أو ابن اخته، أو أخوه، فكلهم متشابهون. كنت أعرف أنه لا يتحدث لغتي، لكنني عبرت الشارع وألححت عليه أية حال، سألته بصوت عال إن كان قد رأى العجوز، فقط الكوري يمكنه رؤيته خارجًا. هل رأيت أبي يخرج؟ ها، أيها الكوري الملعون؟ هل رأيت يهودي عجوز يهبط الدرج في الجانب الآخر من الشارع ويذهب وحده؟ ها، يا ابن العاهرة؟ لوّح الكوري بيديه لتهدئتي وأشار بسبابته إلى جانب في الشارع، قائلًا بلغته، إذهب، إذهب، ذَهب أبوك يمينًا، لكن كيف يمكنني أن أثق بشخص لا يتحدث لغتي، برجل يشوي لحم الكلاب ويبيعها للآخرين؟ لم يكن لدي خيار آخر. على ناصية الشارع التالية، لم يكن هناك أي أثر للعجوز، فقط حشد من الكوريين والبوليفيين، ولا يهودي واحد، مراهقات كوريات بتنورات قصيرة غريبة الأشكال، ويبتسمن، بوليفيون من كل الأحجام، بوليفيون قصيرون، بوليفيون أقزام، بوليفيون صغيري الحجم، بوليفيون متوسطي الحجم، هذا فقط، لأنه لا يوجد بوليفيون طويلي القامة، لكن، كان هناك الكثير منهم، بالإضافة إلى كوريين في محلات الملابس الخاصة بهم، في ورش الخياطة، في مطاعمهم، يأكلون أطباق البانتشان الكورية وأطعمتهم المصنوعة من لحم الكلاب، بينما لا أثر للدكتور غلاس ولا للعجوز، وتحوّلت منطقة البليتزل إلى مفترق طرق عادي، لم يعد فضاء الحي يفوح برائحة مخبوزات دقيق الجامتز اليهودية، بل برائحة الكلاب المشوية، والبولغوغي والبانتشان، انقرض محارب

الكومانتشي وجاموس البوفالو، لم يعودا يعيشان هنا، وإنما في محمياتهم الطبيعية في أوكلاهوما وهيجينوبوليس، واختفى العجوز. إن كان قد تناول كل محتوى زجاجة الدواء، فلابد أن يكون قد سقط في أحد الأزقة، لن يكون بإمكانه السير بهذه الحالة، حتى وإن نشَّطته أربعون حبة من الإيفا-نوركس: ربما يكون ميتًا، يا إلهي، أو ربما تم نقله إلى أحد المستشفيات العامة ويلفظ أنفاسه الأخيرة بجانب أفراد صامتين مثله، متسولين أو معدمين، لا يعرفون أي قصة عن الحيوانات يقصونها على العجوز، فيما قلبه يوشك على الانفجار. بدأت أسمع صوت أنين الكلاب الحيّة في فرن الشواء، فكرتُ أن العجوز، ربما يكون قد ملَّ من سماع القصص والنوم، لهذا تناول كل زجاجة الإيفا-نوركس، للاستيقاظ بدلًا من النوم.

عند دخولي إلى شارع (تلمود توراة) رأيت العجوز من بعد، واقفًا بمواجهة منزل كبير. كان الشارع خاليًا، وكل ما يمكن رؤيته هو ظل بائعة، منعكسًا على زجاج واجهة طويلة لمحل مازالت مصابيحه مُطفأة. انتفخت منامة العجوز البيضاء بفعل الرياح التي تهب من الناصية، فبدت هيئته كسارية فضفاضة لعلم سفينة على وشك الرحيل. تُرى ما وجهته؟ فكرتُ في السائرين نيامًا، الذين يخرجون ليلًا، يقضون النهار واقفين ويستيقظون في الليلة التالية. لذا فهم لا يعرفون الوقت أبدًا، والأيام تمر أسرع بالنسبة لهم، تمر مزدوجة، يومان يومان. سرتُ نحوه ببطء، حريصًا على ألا يراني. لم أرد إخافته، لكنني كلما اقتربت، أدراكت، من خلال تعبير وجهه، ألا شيء يمكن أن يخيفه بعد. هذا ما تقوله عيناه وفمه الذي أظهر

أسنانه. يلهث وهو يؤرجح جذعه مع دفعات الرياح. ظَل مادًا ذراعيه إلى الأمام، في محاولة غير مجدية، للوصول إلى شيء كان قد هرب من بين أصابعه. تذكرتُ اختفاءاته الليلية في طفولتي. أين كان يذهب وقتها؟ على نسيانه للاشياء، إلا أن العجوز قد اعتاد على تكرار بعض عاداته المتجذرة، كان الأمر كما لو أن دماغه يمتلك مسالكًا معروفة يرغب في العودة إليها والسير فيها مرة أخرى، دائمًا، المسارات نفسها في الغابة، حيث تمثل الأشجار معارفه الأخرى، الأقل اعتيادًا، يغطيها الضباب، وشيئًا فشيئًا لا يتبق سوى المسار الذي يسلكه دومًا، لا غيره، يتجه العجوز إلى الفراغ، يدخل في غابة مغمورة بالنسيان. راقبتُ المنزل الكبير حيث ركّز اهتمامه. منزل قديمًا جدًا، عرفته منذ أن كنت طفلًا. كان كل أطفال حي (البووم رتيرو) يقولون أنه مسحور. ذات مرة، رأيت الدكتور غلاس يخرج منه: لابد وأنه قد انتهى للتو من زيارة أحد المرضى. لشدة رعبنا، لم يجرؤ أحد على المرور من شارع (تلمود توراة)، الذي كان يسمى آنذاك (توكانتينس). كنا نفضل الالتفاف حول كتلة المباني المحيطة كلها كي نتجنب هذا المكان، حينها كان الشارع مزروعًا بأشجار صفصاف باكية كئيبة جدًا، إلى حد أنها كانت تبكي فعلًا في الليالي المُمطرة. شعرت بتجمد معدتي عندما تعرفت على الرقم 905 عند مدخل المنزل الكبير. كان هذا هو المبنى الذي يجرى التحقيق بشأنه في قضية (النزهة الليلية). وجدوه فارغًا، بلا أثاث ولا أية أغراض أخرى. عليه شريط أمني لمنع المرور، فقد سدّت الشرطة الأبواب والنوافذ. لحظتها، لم أفهم كيف لم أقم بالربط بين العنوان الذي ذُكر مرارًا في المحاضَر (معلومة أفرغها الروتين من أي معنى؟) وبين هذا المنزل الكبير. أمسكت العجوز من

ذراعه بحرص. كما أفعل دائمًا، حتى من قبل أن يتضح مرضه بوقت طويل، منذ أن كنتُ طفلًا. نظر إليّ دون أن يتعرف عليّ، وعاود مراقبة نوافذ القصر المغلقة. كان يبحث عن شخص لم يعد يتذكره. ثم فتح فمه المغطى باللعاب، كما لو كان على وشك الكشف عن حقيقة مخفية كتمها لفترة طويلة، ولكن لم تخرج من فمه سوى همهمة جوفاء، تشبه طقطقة سلك كهربائي مقشوط يوصل بمصباح.

لطالما تساءلت، من أين أتت فكرة أن المحتضرين يرون حياتهم كلها تمر أمام أعينهم؟ ففي نهاية الأمر، مَن عاد من الآخِرة كي يُخبر بما رآه لحظة وفاتِه؟ إن العمر الناضج هو تعاقب النسيان الذي يتفاقم كلما تقدمنا في العمر: في البداية لا نعرف أين نحتفظ بمفتاح السيارة، بعدها لا تصبح لدينا أدنى فكرة عن أين وضعنا جواز السفر، وعندئذ ننسى تواريخ دفع فواتير مهمة وأحداث لا يجب أن نضيعها، تختفي أشياء، تتلاشى التزامات، تختفي الذكريات في دُرج خفيّ ما، أو في فراغ الذاكرة. لا يتبقى سوى هذا الأمل الذي نغذيه يومًا بعد يوم: أننا في اللحظة الأخيرة سنتذكر كل شيء لنكون قادرين في النهاية على الرحيل بكامل وجودنا، وليس مع القطع والخِرق التي رافقتنا خلال السنوات الأخيرة. ما حدث هناك، أمام عينيّ العجوز، بدا أشبه بفتح بوابات سَد، وتسبب في تفاقم الصمت الذي غرق فيه منذ المرة الأولى، التي لاحظتُ فيها أنه تجنبني في الشارع دون أن يتعرف عليّ، عندما كنت صبيًا، منذ أن ظهر هو نفسه في طفولته، مِن اللا شيء، بين المهاجرين اليهود الروس على ظهر السفينة التي غادرت من بريمن إلى سانتوس، منذ البداية (لأنه تقريبًا لم يكن يتحدث)، منذ

ذلك الحين، الحقيقة هي أنه لا أحد، باستثناء الدكتور غلاس وأمي، استطاع معرفة ما إذا كان مجنونًا أم لا. عندما انتهت الدار الصغيرة لسينما الذكريات من عرض حفلاتها الصباحية وعروضها الأولية المعادة، فقد العجوز وعيه. هناك، واقعًا على الأرض، بدت عروق معصمه أكثر زرقة من أي وقت مضى. لم يكن جلده أبدًا أبيض كما هو عليه في هذه اللحظة. سوف تنفجر عروقه في أية لحظة وتصبغ العالم بلون أزرق قاني، كالسماء المرصعة بالنجوم، وستغطي البقع البيضاء الأرض بعاصفة ثلجية هائلة. قستُ نبضه. كان على وشك نوبة قلبية. حملته وبدا لي أخف وزنًا. إن تذكُّر حياته كلها في لحظة، كما لاحظتُ في اعترافات المجرمين، جعله أخَف. همس لي العجوز طالبًا مني أن أحمله. قال أن المستشفيات مخصصة لأولئك الذين ما زال لديهم وقت، إحملني إلى المنزل. حملته بين ذراعي في شوارع (البووم رتيرو) المهجورة. لم يعد أحد يمشي فيها غيرنا. أين ذهب البوليفيون والكوريون؟ هل عادوا إلى منازلهم؟ عندما كنت أمشي، لاحظتُ أصابعي تلمس جلد أبي، لاحظتُ البقعة الناعمة والواضحة التي تبقى على الجسد عندما تخفف الأصابع من الضغط، وها قد أصبحنا أبيضين نحن الاثنين، لم يعد هناك أي تباين بيننا في تلك اللحظة. كانت عيون العجوز تصطاد حيوانات في السحاب، وأظن بأنه كان ينظر، مرة أخرى، إلى الواجهات القديمة للمباني المهدّمة، في حيّ (البووم رتيرو) إبان شبابه، الواجهات التي تعود من خلال عينيه لترتفع من جديد وللمرة الأخيرة.

أمام محل البقالة، وجدنا أخيرًا العامل البوليفي. لم يكن وحده.

ستائر المتجر لا تزال مغلقة وأمامها عائلة كاملة من البوليفيين من كل الأحجام والجنس. مدرّج نموذجي، فيه بوليفي أكبر حجمًا في الوسط، هو البوليفي الخاص بنا، تعرفت عليه بفضل الاختلافات التي تميزه عن الآخرين الموجودين هنا، وفلاحة بوليفية بملابسها التقليدية وقبعة المزينة بوردات جانبية، وتحمل على صدرها طفلًا بوليفيًا، أظن بأنه يمكننا أن نطلق عليه هكذا، صغير جدًا، ملفوف في أقمشة ملونة ويمص سنبول ذرة فيما يغطيه اللعاب. بجوار الزوجين، هناك أربع أو خمس بوليفيين أصغر حجمًا (كان عددهم لا يُحصى)، كل الوجوه متشابهة جدًا، وثمة صفة مميزة واضحة فيهم، كلهم يبتسمون لي وللعجوز، يبتسمون لنا بفرحة حقيقية. أي أن البوليفي الخاص بنا، لم يكن في الحقيقة واحد فقط، إن صورة الجميع واقفين هناك، تبدو صورة عائلية مثالية لم يغب منها أحد: على عكس الصورة المعلقة على جدار منزلنا، في هذه الصورة كل الأدوار مُمَثّلة، الأم، والأب، والأبناء، وسوف يحب العامل البوليفي أن يتم التقاط صورة لهم مع حقائبهم الجلدية في أيديهم، لكنني أنا أيضًا، كانت يداي مشغولتان، ولم استطع أخذ الكاميرا التي يمد يده بها لي، وهو يشكرني بالإسبانية (كم فاجأني أن أفهمه!)، قال: شكرًا، أنا سعيد للغاية، شكرًا لكم على كل شيء، بفضل كرم العجوز وعملي في محل البقالة تمكنت من جمع المال، المبلغ اللازم لسداد الدَين، دَين مسؤولة ورشة الحياكة التي أتت بهم إلى هذا الحيّ للعمل، قال، وهم الآن (خلاص، ممتاز)، وبصدد العودة إلى أرضهم، إلى السهل، إلى مدينة (سانتا كروث دي لا سييرا)، قال البوليفي مبتسمًا، تنتظرنا الحافلة، شكرًا، حتى أنه كان لديه أموالًا متبقية، بما فيه الكفاية، وينوي، عاملنا البوليفي،

البوليفي الأول والوحيد، إنشاء مصنع لمعالجة البطاطا في شراكة مع أبناء عمومته، قال، وهم كثيرون، كلهم يشبهونني، كلهم عمال، أكد البوليفي وهو يودعني مع عائلته، سلامًا كاملًا: كان أطفاله مثل فريق كرة قدم، وحتى أصغرهم كان يرتدي قميصًا للفريق البرازيلي ويحمل كرة قدم: وداعًا، أراكَ لاحقًا، شكرًا، شكرًا لك. غادروا. كان لدى البوليفي، الذي لم يكن يمتلك أي شيء على الإطلاق، شيئًا لم أكن لأمتلكه أبدًا. فكرتُ في بركة أن يكون للمرء عائلة يشبه فيها الجميع بعضهم البعض. قال أن اسمه هو فليسبرتو أيمارا. هكذا، فجأة، ولديه اسم أيضًا، هذا البوليفي.

أثناء صعودي على الدرج، سمعت رنين الهاتف بشكل متكرر. يبدو أن الديون في طريقها للإعفاء، باستثناء، ربما، دَين ذلك الجاموس الواقف على سجادة غرفة المعيشة. وضعت العجوز في فراشه، وبما أن الهاتف مستمر في الرنين بإصرار، ذهبت إلى حيث الجهاز وأجبت. فكرت في الأشياء التي تتخلى عن معناها عندما يختفي شخص ما، في الغيارات الداخلية لشخص ميت، المحشورة في درج الخزانة. كان الصوت الأجش نفسه، كما في المرة السابقة، صوت مألوف، وتقريبًا حميم في هذه المرحلة. قال بأنه سمع بزيارتنا إلى البنك لاستيضاح مسألة الوكالة، وكالة روزنبرغ المحدودة للموارد البشرية. قال بأنه يشكر موقفي، ولكن، على أية حال فأنه قد تم حل المشكلة بالفعل، ربما بالشكل الأسوأ، كما عرفت. على ذلك، ما زال يريد التحدث معي لإنهاء العمل كما يجب، قال. كان يتحدث هكذا، كما لو أن شخصًا من القرن الماضي يتحدث معي مباشرة عبر

الهاتف، بهذه النبرة البيروقراطية والتعابير العتيقة. كما لو أنه يعرفني منذ فترة طويلة. طلبتُ منه العنوان وحدّدنا موعدًا لذلك المساء. لمع شبح أمي المؤطر تحت أشعة ضوء الصباح الذي غزا الشقة. كل شيء في الصورة، المرآة، الخزانة، زاوية السرير الزوجيّ في الخلفية، طرف الستارة من قماش الفوال الذي يغزو طرف الصورة، اختفى معها. بحثت في أفق غرفة المعيشة عن الأثاث والأشياء، التي حتى وقت قريب، كان يمكن رؤيتها في الصورة المغطاة بالضوء، وحينها فقط، بعد أن راقبتُ لسنوات بدقة تفاصيل الصورة، أدركتُ أن الغرفة المنسوخة في الصورة لم تكن الغرفة التي أنا فيها الآن. لم يخطر ببالي قط أنه بعد زواجهما، عاش والداي في مكان آخر خارج هذه الشقة. يمكن أن تتغير الأشياء، لكن ليس هيكل الغرفة ولا موقع النوافذ. وقد أُلتُقِطَت هذه الصورة في مكان آخر. حينها، ومع تحرك شعاع الضوء وانحرافه، عادت غرفة الصورة للظهور، استطعت أن أرى في الصورة تفاصيل نافذة الخلفية، الصفصاف الباكي، الشجر الذي يبكي بالفعل في شارع (تلمود توراه) عندما كان لا زال يطلق عليه اسم (توكانتينس) كما تشير الملحوظة على الظهر. عندها، تذكرت القصة التي أخبرني بها الدكتور غلاس عن الاختفاء المؤقت لوالديّ في نهاية حمل أمي، خلال العام الأخير من الحرب العالمية الثانية. هل لم يولد الطفل أبدًا أم أنهما تخليا عنه؟ والخروج الليلي للعجوز، هل كان له أية علاقة بهذا السر؟ لكن، أي سِر بالضبط؟ إن تعاقُب نوبات السعال التي جاءت من الغرفة، لم توضح أي شيء، وإنما تعقد كل الأمور أكثر.

ربما كان عمري عشرة أعوام أو أحد عشر. كان ذلك في ظهيرة

اليوم الذي أهداني فيه الدكتور غلاس الكتاب عن كواناه باركير والكومانتشي. في ذلك الصباح، كنت قد ضربت زميلًا في المدرسة نعتني بـ(سارارا). قبل أن أُغادر العيادة مع والدتي، سحبني الطبيب من ذراعي. وأخبر أمي (التي كانت في ذلك الوقت مجرد شابة سوداء جميلة) أنه نسى أن يقيس طولي ووزني. قال أن الأمر مهم لملفه الطبي، فهولاء الأطفال يبالغون في تناول الأطعمة، وعندما يعودون يكون طولهم أكثر من مترين. يجب مراقبتهم، قال. لحظتها لم أفهم ما يريد، لأنه كان قد أخذ قياساتي بالفعل. بعد أن عاد لغلق الباب، رفعني الدكتور غلاس من الإبطين ووضعني على شرشف السرير النقال المعطر، السرير النقال ذاته الذي سيشنق نفسه عليه بعد أربعين سنة. رمش الدكتور غلاس بعينه الزرقاوين التي أعلاها سوطان أبيضان سميكان، ودون أن يطلب أذني، بدأ يفحص جلدي بعناية، الإبطين، خلف مؤخرة العنق، فروة الرأس، الفخذين والشرج، عجبًا، وهو ما جعلني أشعر بالإحراج الشديد، استمر حتى أخمص القدمين وراحات الكفين، مع الأوساخ المتراكمة بين الأصابع، أوه، أعرف أنه مجرد فحص جسدي جيد، وبعد ذلك، جاء دور الأسئلة، كثيرة. أراد الطبيب أن يعرف ما إذا كنت أشعر بالحكّة أو شعَرتُ بها أحيانًا، عندما كنت أمضي، على سبيل المثال، يومين بدون استحمام، حسنًا، هل تظهر لك في تلك الظروف بقعًا حمراء على جلد الذراعين أو الظَهر، يا صغيري، ألا تشعر بالحَكّة والرغبة في نزع جلدك بالفرشاة أو الدخول في برميل مليء بحمض الكبريتيك، ألا تشعر بأي من هذا أيها الفتى العزيز؟ عندها بالكاد كنت استطيع أن أكون فكرة عما يتحدث عنه، لأنني كنت أعرف أن عدوًا لباتمان قد ذاب نصف وجهة

بفعل الحمض، لكنني لم أفهم ما كان يحاول الطبيب إخباري به، ولا أظن أنه يعرف كذلك، لأنه بعد أن تفحصني مباشرة، اعتذر قائلًا أنه مُنهكًا وأن الأمر ليس سهلًا، وأنه يمضي ليالي كاملة في عيادات المستشفى المركزي للأمراض المُعدِية، في شارع (الملازم بينا)، من أجل مكافحة هذا النوع من الأمراض، قال، بالإضافة إلى ذلك، يجب السيطرة على وباء الجدري. حينها أعاد لي الدكتور غلاس ملابسي، مكررًا عليّ مسألة تعبه، زر قميصي وفتح الباب ودفعني من كتفيّ برفق نحو أمي التي نهضت قلقة، وداعًا. كانت ترتدي بدلة لونها أزرق فاتح، وقفازات بيضاء، والتي بفعل التضاد اللونيّ، جعلت جلد وجهها المستند على يديها يبدو أكثر قتامة. عند الخروج، أعطاني الدكتور غلاس الكتاب عن الكومانتشي، وأخبرني أنني سأتعلم من خلال تلك الصفحات كل شيء، مما يجب معرفته عن الهنود الحمر، زملائي.

أحد الأمور التي سألني عنها الدكتور غلاس بعد ظهر ذلك اليوم، هو السبب الذي جعلني أتعارك في المدرسة. أخبرته أنني كنت أسير مع أحد الزملاء في الشارع عندما ظهر العجوز في الناصية الأخرى. كنت قد أشرتُ إلى والدي، وقلت لزميلي، أنظر، ها هو أبي، أنظر كم هو كبير وطويل وقوي. ولكن عندما رآني العجوز، عبر إلى الجانب الآخر، فقال لي زميلي أنني بالتأكيد مخطئ، وأن هذا الرجل ليس والدي، لا يمكن أن يكون والدي، لأنه ليس لنا لون البشرة نفسه. حينها نعتني بـ(سارارا) فضربته وسقطنا معًا على الأرض. رَبّت الدكتور غلاس بيده الضخمة، يده البيضاء، على شعري الأحمر الكثيف

المجعد. ونصحني ألا أقلق بهذا الشأن، وأن كل شيء على ما يرام، وأنني يجب أن أتعلم من أمي وأحاول أن أكون سعيدًا مثلها، وربما أن أغني كما اعتادت هي أن تغني عندما تطهو، أغني بهذا الصوت الجميل الذي أغوى العجوز إلى درجة أنه تزوج بها، دون حتى أن يأخذ بالحسبان، ما يفكر به مجتمع الحيّ، عن مسألة أن يتزوج يهودي ببرازيلية، بل وسوداء. لا تخجل من شَعرك الأحمر وجلدك الأسود، قال الدكتور غلاس، ونعم، سَدّد ضربات جيدة إلى أي طفل يتلفظ بهراء عن بشرتك الحمراء، يا محارب الكومانتشي الشجاع، هذا ما قاله لي. ثم أوضح لي، أن كلمة (سارارا) هي كلمة جميلة جدًا، وأنها جاءت من الهنود، ليس من هنود الكومانتشي، وإنما من هنود التوبي، (سارارا)، وتشير إلى شيء مثل حشرة ليلية، لونها يميل إلى الاحمرار، عثة، نوع من الفراشات الليلية القانية. اكتشفت حينها أن كلمة (قاني) تعني أحمر وبدت لي جميلة، عثة قانية، حشرة ليلية حمراء. لا أظن أن هناك شيء يمكن أن يعرّفني بشكل أفضل. لدي انطباع أن هذا هو أنا: عثة حمراء. حشرة ليلية لونها ضارب للحمرة والسواد. قارض اللاموس الذي يغرق في المحيط. كومانتشي ألقت جواميسه بأنفسها إلى الهاوية.

أوقفت أفكاري. انتابت العجوز نوبة سعال قوية، أعقبها اختناق جاف. كان لزامًا عليّ أن أُخفف من ألمه. وعلى أن ضوء الصباح الذي يأتي عبر النافذة يضيء الجاموس والسجاد الأخضر تحته، بحيث بدت الغرفة مشمسة وكأنها مرعى من مراعي تكساس، إلا أنه، بجانبها، تغرق غرفة العجوز في الظلام وتفوح منها رائحة مرهم وجوارب ووعاء لم

يتم تفريغه. ولدتُ بعد عشر سنوات من اختفاء والديّ إبان الحمل الأول لأمي. حينها كان عمر كلاهما أربعين عامًا، وعندما تشكل لديّ الوعي اللازم، شعرتُ أن والديّ يمكنهما أن يكونا أجدادي، وهو ما كانوا عليه، إلى حد ما، لأنه لم يكن لدى أبدًا أجداد. حسنًا، ربما الدكتور غلاس يُعَدُّ جَدًا، بهداياه واهتمامه كلما ظَهر في البقالة أو نتقابل في أنحاء الحيّ. لهذا بدا لي غريبًا أنه لم يرحب بي عندما رأيته خارجًا من المنزل الكبير في شارع (توكانتينس)، اليوم (تلمود توراة). كان الوقت عصرًا بعد موعد العيادة. أنا متأكد من أنه رآني في ذلك اليوم، لكنه، أسرع الخطى واختفى في الشارع التالي، تاركًا تحيتي تضيع في الهواء. فكرتُ أنه ربما كان مشغولًا بإحدى مغامراته العاطفية، لأنه أرمل. بعد ذلك بسنوات، عندما عدتُ محطَّم القلب من مغامرتي الصهيونية، دعاني الدكتور غلاس إلى بعض كؤوس البيرة، وأخبرني أننا يجب أن نتحدث في يوم من الأيام. وبانتحاره ضاعت قصة لم تُحكى. أظن أن الأمر يتعلق بذلك المنزل الذي كان في السابق بيتًا للدعارة. توقف سعال العجوز. ظل في السرير مغلق العينين، لعاب جاف حول فمه وصولًا إلى ذقنه، حيث عضلاته الرخوة والفك السفلي البارز إلى الأمام، يتيحان تخمين تعبير ملامحه المستقبلية. جذب انتباهي ضجيج مكتوم في الصالة، فتوجهت إلى هناك. على السجادة الخضراء، بدأ الجاموس بالتحرك، تمدد سنامه بفعل حرارة الشمس، جعل رأسه يتأرجح من جانب إلى آخر، ويرتفع ويهبط. كان الجاموس يتحرك متحمسًا لأشعة الشمس الآتية من النافذة. ثم اندلقت من بطنه كمية كبيرة من نشارة الخشب التي قرضها النمل الأبيض فغطت سطح السجادة الخضراء: تمدد كل جلد الجاموس

مع اهتزاز مفاجئ، تقوست قوائمه التي لم تعد قادرة على تحمل كل هذا الضغط، انهار الحيوان. جثة فارغة وحسب، تتدفق منها الأحشاء التي خرجت منها حشرات من جميع الأنواع. انتهت مأدبة الطبيعة. كان هذا هو الموت الثاني للجاموس، انقراضه الأخير. نهايته. همهمة العجوز المبحوحة أعادتني إلى الغرفة. كانت عيناه مفتوحتان، ثابتتان على السقف. التفتَ نحوي وطلب مني أن أقص عليه بعض حكايات الحيوانات. أخبرني بقصة اختفاء الجاموس يا بُني، سألني ثم كرّر، أخبرني بنهاية تلك القصة التي تعجبكَ كثيرًا يا ولدي. تخيلته راكضًا مع الجاموس الذي لم يفلح في منعه من الخروج، بل سهل هروبه في النهاية. يا بُني، قال لي: يا بُني.

6

عالم الحيوان:
عِظام وشرايين

1

أخفى سائق سيارة الأجرة سيارته عند منعطف شارع ميغيل استيفانو، قبل مدخل (نوكتوراما). ترجل، نظر في جميع الاتجاهات وتأكد من أن أحد لم يره. ففي ذلك التوقيت، كما استقصى وأيقن، توجد فقط، الطبيبة البيطرية المسؤولة عن النزهة الليلية. يعلم أن حراس الغابة نادرًا ما يقومون بدوريات في هذا الجزء من الحديقة ليلًا. ثم توجه إلى داخل الفروع التي تغطي السور الحديدي وتأكد من أن الفجوة ما زالت هناك. لم يكونوا قد أصلحوها بعد. ظلت الكلاب صامتة في المقعد الخلفي للسيارة. تنظر إلى مالكها بوداعة. قال السائق: كانت كأوتار كمان جاهزة للعزف. في الطرف الشمالي من حديقة الحيوانات، على بعد كيلومتر واحد من هناك، أبعدت البيطرية بعصاها فروع الأشجار كي تسمح للسيدة إكس والمخلوقة بالمرور. تفحصت الطبيبة الوجه المُخبأ وراء القبعة الحمراء، لكنها لم تستطع رؤية أي شيء. هذا كائن غريب، أكدت مشدّدة على ذلك في إفادتها. كانت الشابة الزائرة وخطيبها وراء المخلوقة، التي توقفت فجأة لثانية، كي تشم آلام كل تلك الحيوانات المحبوسة، محوّلة وجهها نحو الاتجاه المقابل للرياح. ارتاب الشابان بشأن ماهية المخلوقة. همست الفتاة في أذن خطيبها شيئًا يتعلق بالأسنان الفسفورية التي تلمع في الظلام، كانت الفتاة آمنة، وهو ما أكدت عليه مرات عديدة في إفادتها. سألها خطيبها فيما إذا كانت النزهة لا تروق لها. لكنها لم تُجب. استمروا بالسير حسب الطريق المرسوم، داخل نباتات (نوكتوراما) الكثيفة. ذهبوا باتجاه قفص نمر الثلوج. كان القمر المكتمل ينير

الطريق كأضواء الاحتفالات. أما في الخارج، فقد أخرج السائق كلاب الروت وايلر من السيارة. دارت الكلاب الثلاثة في المكان، تشممت العشب الرطب وعبّرت عن الإثارة بصوت خفيض. بال أحدها على جذع شجرة ساقطة، وتبعه الإثنان الآخران. تأكد السائق من الساعة في يده. لقد بدأت النزهة الليلية منذ ساعة. كانت تلك هي اللحظة. سار نحو السور. تبعته كلاب الروت وايلر في صمت. عند وصولهم إلى حدود الحديقة، وسّعَ السائق الفجوة في السياج، وقطع الأسلاك الصدئة باستخدام مِلقَط قوي حمله معه. أظهرت الكلاب علامات نفاد الصبر. تتدحرج على الأرض وألسنتها ممدودة إلى الخارج. تتشمم الحقل ثم الهواء، تتعرف من بعد، على رائحة المخلوقة التي تشممتها في بطانة مقعد السيارة. وحالما أصبحت فجوة السياج واسعة بما يكفي لمرورها، أطلق السائق كلابه الروت وايلر إلى داخل (نوكتوراما).

بعد عشرين دقيقة، حين وصلوا إلى الفسحة الخالية من الأشجار، والذي تبعد خمسمائة متر عن نمر الثلوج، شاهدت المجموعة الأولى القمر الضخم والتماعات البريق الفضيّ لقمم الأشجار المحيطة بشكل دائري. كانت النجوم تتلألأ والقمر يغطي المدينة. بعد لحظة الانبهار، أرعبتهم الصرخة التي أطلقتها الطبيبة البيطرية. ففي منتصف الدائرة، ترقد جثث ستة طيور كبيرة. كانت من طيور الروحاء التي تعيش طليقة في (نوكتوراما). رقابها الطويلة ممزَّقة بفعل عضات يخرج منها الهواء الذي ما زال دافئًا. إثنان منها كانت منزوعة الرقاب. إن ظروف الهجوم الذي قضى على هذه الطيور تبدو غير واَضحة للوهلة الأولى. حول الجثث الخامدة، على العشب، هناك القليل

من الدماء المسكوبة، لكن الجروح في رقاب الضحايا كانت عميقة. قليلة هي الحيوانات المفترسة التي يمكنها أن تتسبب باصابات كتلك، ربما قط كبير، لكن الطبيبة البيطرية فضَّلت التزام الصمت. أصاب أعضاء المجموعة الذعر والتشوّش. ووصف أحد الرجال الطبيبة البيطرية بأنها غير مسؤولة لأنها قادتهم في رحلة خطِرة. وهدّد آخر بالشكوى ضد إدارة الحديقة، أمام مكتب رئيس البلدية وأمام الدولة، أمام الجمهورية. اشتكت الفتاة لخطيبها من الوجود غير المرغوب فيه لهذه المخلوقة بين المجموعة. لم يسمعها أحد باستثناء السيدة إكس. لم تتحسن الأمور عندما حاولت البيطرية الاتصال بشرطة الغابة عبر محطة الراديو واكتشفت نفاد بطاريتها. بعد فحص الجثث، قرروا المضي قُدمًا في أقرب وقت ممكن. فهناك، بالقرب من قفص نمر الثلوج، يوجد ملجأ يمكنهم الاحتماء في داخله، كما أخبرتهم البيطرية. ستبقى المجموعة هناك، بينما تفكر هي في وسيلة أخرى للتواصل مع الحَرس. عاد أعضاء المجموعة للاصطفاف، دون أن يتوقفوا عن الشكوى، تاركين للسيدة إكس -التي حافظت على هدوءها طوال الوقت- وللمخلوقة، المكان الأخير في الصَف.

كان السائق جالسًا على الجذور البارزة لإحدى شجرات الجاكراندة في منتصف الغابة، يستمع إلى الموسيقى. صوت الأوراق والفروع التي تحركها الرياح يمتزج بصوت الأرض التي تطأها الكلاب التي تختفي في الظلام. سريان العصارة وهي تغذى الألياف الصامتة للأشجار. وهالة القمر المكتمل تُصدر موجات من الضوء والغازات، تترك علامات في السماء حين تصطدم بالأضواء الكهربائية للمدينة

وتشكل تضادًا لونيًا معها. تتكاثر البكتريا في حفلة جنس جماعي على الجلد. يكتسب تنفس كل فرس نهر، نمر، وحيد القرن، ضبع، فيل، ابن آوي، فأر، إيقاعًا موحدًا مع نغمة انتظار مستسلمة. صدمة جرائم القتل الأولى تقترب من ذروة الحركة الأولى. التسلسل. الملاحظات. تراتبية مُحكَمة ومُخطّط لها، بحثًا عن ظهور ما، غير متوقع. الصدفة. كانت طرق (نوكتوراما) تلمع في ذهن سائق التاكسي، كما لو كانت مضاءة بواسطة مِنظار كبير داخل فضاء فَلكي. وكلاب الروت وايلر الثلاثة كنغمات حرة في تلك القطعة الموسيقية، حيث الحركة المشوشة جريًا وراء الدماء، إنها المُحَرِّك الحقيقي لهذا العمل الأوبرالي. وهكذا، عاد كل شيء إلى مكانه. الوحشيّة إلى ما هو وحشي. دور الضحية للإنسان. النهاية الحاسمة للأسر. التجلي. نحن حيوانات مسكينة، لا نملك سوى أسنان، قال في إفادته. حشا السائق مخزن الذخيرة في مسدسه 38، فانضم إلى السمفونية، الصوت المعدني للتروس عند دقها. لكل شيء نريد أن نفعله، الخير أو الشر، لا نملك سوى الأسنان، كرّر في داخله. نهض السائق. يدور كدوار الفضاء الليلي حول رأسه. سار عشرة خطوات نحو الغابة المغلقة، فانضَمَّ إلى المعزوفة صوت قدميه وهي تدوس على الأوراق الجافة. لا شيء سوى الأسنان. لحظتها، بدأ السائق يسمع النغمات الموسيقية لحلَقات زُحل وهي تصطدم بالنيازك.

2

عندما وصلوا إلى المخبأ القريب من المنطقة المخصصة لنمر

الثلوج، حاولت الطبيبة البيطرية طمأنة الزائرين. كانت قلقة بشأن الخطيبين. لا توحي لها الشابة بالثقة. إنها غير متزنة وتؤثر على سلوك الآخرين. ينتمي جزء من المجموعة إلى الجمعية التي ترعى نشاطات وأبحاث حديقة الحيوانات. كان هناك عدد من الرجال الذين لا يروقون لها، من يعدون أنفسهم محسنين لكنهم لا يستطيعون إخفاء غطرستهم الخاصة بالارستقراطيين المتميزين، أناس يطالبون بأن يتم إخراجهم على الفور من هذا الوضع. الفتاة وخطيبها أبناء متبرعين مهمين، ويتصرفون بذُعر. تشتبه الطبيبة البيطرية بأنهم قد تناولوا المخدرات أثناء النزهة. كانت هناك لحظات، عندما توقفت المجموعة لفترة وجيزة، ابتعد فيها الإثنان عن المجموعة. ربما دخنا الماريجوانا أثناءها، كما أكدت الطبيبة في إفادتها. سوف تأخذ المَحكمة شكوكها بالحسبان. شعرت البيطرية أن الفتاة ستتسبب لها بمشاكل، كما لو أنها لم يكن لديها ما يكفي من المشاكل لحلها. أشارت لها الفتاة أن ثمة شيء ما، غير طبيعي، في تلك الصغيرة المُعمَّمة، تلك المخلوقة العجيبة التي ترافقهم في النزهة الليلية. ربما تحت تأثير المخدرات، قالت أن أسنان الصغيرة كانت فسفورية. تلمع في الظلام. وأكدت أنها قد انتبهت لذلك قبل نحو نصف ساعة، عندما كانوا بصدد عبور المنطقة الأحلك في الغابة. تفضل الطبيبة البيطرية أن تُنسب تعليق الشابة إلى حالة من الاجهاد. أو ربما إلى الماريجوانا؟ حاولت تهدئتها، لكن أعضاء آخرين في المجموعة سمعوا ادعاءاتها. وسوغت الطبيبة بأن سلوك الطفلة لا يشوبه أي شيء استثنائي، بصرف النظر عن حقيقة ارتدائها لمعطف أحمر واق من المطر مع غطاء للرأس وقفازات جلدية، وهو الأمر الذي ربما يرجع لخوف شديد من قِبل مربيتها.

على أية حال، كان الجو باردًا. كما أن الطفلة خجولة، وظلت طوال الوقت في حضن السيدة التي كانت تعاملها بتفاني كبير. بالإضافة إلى ذلك (لم تستطع الطبيبة البيطرية تجنب ملاحظة هذا الأمر)، كانت السيدة تتحدث بالإنجليزية فقط مع مخدومتها. حينها، تذكرت دون أن تعرف السبب، أن المدربين يستخدمون اللغة الإنجليزية للتواصل مع كلابهم. بعد الاستماع إلى شكاوى الخطيبين وطمأنة المجموعة بأنهم جميعهم، سيكونون خارج الحديقة خلال بضع دقائق، خرجت الطبيبة للبحث عن الهاتف الموجود في حائط ممر المخبأ. وهو جهاز لا يستخدمه العمال إلا نادرًا. كان يحدوها الأمل أنه ما زال يعمل. إنهم بحاجة ماسّة إلى سيارتين جيب، من سيارات شرطة الغابات، للخروج من منطقة وجودهم في (نوكتوراما).

أثناء توجهها نحو الهاتف، فتحت الطبيبة البيطرية خزانة الطوارئ وأخرجت منها بندقية محملة بالسهام المهدئة. ولدى فعلها ذلك، تذكرت اليوم الذي اصطادت فيه، هي وموظف الرعاية، نمر الثلوج داخل الكهف. تذكرت الجروح الفظيعة في قائمتيه. وداعَته الغريبة. بدا كما لو كان ينتظر شيئًا أكبر لا يمكن تصوره. على مدار أسابيع، شعرت الطبيبة بالغَم والقلق. فلم يحدث لها أبدًا، منذ أن عملت في المستشفى البيطري، أن رأت مثل هذا الاكتئاب الشديد في أحد الحيوانات الأسيرة. كما هو معروف، قد يؤدي الحبس، أو الأمومة، أو حتى عدم التوافق بين أزواج من أنواع آتية من مناطق مختلفة، إلى حدوث تغيرات جذرية في سلوك الحيوانات. كانت تظن، في البداية، أن هذا ربما كان السبب وراء رفض الأنثى لنمر الثلوج الآتي من جبال

الألتاي الذهبية، بينما هي في الأصل من شمال الصين، لكن موت الأنثى المفاجئ، وكذلك البتر الذاتي للذَّكر، كانت من الظواهر التي تتجاوز قدرتها على الفهم. تذكرت البيطرية البرنامج التلفزيوني الذي تحدثت فيه عن الحزن الهائل لنمر الثلوج، ومدى شعورها بعدم الارتياح في تقديم شهادتها. وهو ما كان في نهاية الأمر غريبًا، لأنها ومنذ بداية مسيرتها المهنية، كانت تشعر بالارتياح أمام الكاميرات. وفي الواقع، كانت تتوق سِرًا، أن يكون لها ذات يوم، برنامجها التلفزيوني الخاص بها، مثل برنامج كوكب الحيوان. كان الجميع يقولون لها بأنها تمتلك الجاذبية المطلوبة، وبشكل خاص، عندما ترتدي ملابَس السفاري كاكيّة اللون. ولكن، في تلك الليلة، لم تؤدي بدلة الصيد سوى إلى تفاقم الإحساس بأنها مُخادِعة ومخيّبة للآمال تمامًا. ثمة شيء لم تستطع الكشف عنه في البرنامج التلفزيوني، لأن إدارة حديقة الحيوانات منعتها من التطرق بالحديث عنه علانية. أثناء معالجتهم للنمر في العيادة، اكتشفت الطبيبة البيطرية أن عِظام الجروح المجدوعة قد اكتسبت لونًا ضاربًا للأحمر. وبعد إجراء عدة اختبارات لتشخيص المشكلة، توصلوا إلى أن نمر الثلوج، مُصاب بفشل في وظائف الكبد، منعته من معالجة الإنويمات المسماة بالبورفيرين. ولهذا كان مُفرط الحساسية من الضوء، فلاذَ بالكهف طوال النهار. ونتيجة لذلك، تحوّل لون فَروه إلى الحُمرة وبدأ يسقط عنه. لم تكن هناك سِجلّات سابقة لهذا المرض في فصيلة السِّنَّوريات. كان الأمر... كما لو أن نمر الثلوج يَتحَلَّل. لقد تحول إلى عُثة حمراء، إلى حشرة ليلية قانية اللون وتعيسة.

3

في وقت سابق، عندما بدأت البيطرية بالعمل في حديقة الحيوانات، كانت مسؤولة عن الأبحاث المعقدة في مختبر الوراثة، وهي مسؤولية كبيرة مقارنة بعملها المتواضع الآن كمرشدة في (نوكتوراما). بطريقة ما، كان عملها ليلًا وبعيدًا عن زيارات الجمهور التقليدي، بمثابة انتقام فرضه المسؤول، وهو عالِم منافس، كان على علم بالطموحات التلفزيونية للطبيبة البيطرية، وما تبعه من اهتمام واعتراف بها. ربما كانت تستحق عقوبة أسوأ. كانت عالمة صارمة ذات تكوين علمي رصين، لكن للأسف، فشهادة الدكتوراه لا يمكنها تعويض النقص في الشخصية. أتوا بها من إحدى الجامعات الأمريكية بهدف البحث في مسألة وجود وباء في الحديقة. أثر الوباء المجهول على الحيوانات الليلية، فقد انتابت الذئاب والخفافيش، على سبيل المثال، عادات سبات عجيبة، بحيث يختفون تمامًا. في البداية، فكرت الطبيبة البيطرية بأن الحيوانات كانت تتقاتل فيما بينها، وقد خرجت عن حدود (نوكتوراما)، ولكن بعد مرور وقت، وجدوها. خرجت الذئاب التي تعيش في أقفاص مثل نمر الثلوج، خارج الأسوار والمناطق المحدّدة، وليس هناك طريقة لتفسير هجرتها الغامضة. لا أحد يعلم كيف عبرت القضبان. تظن الطبيبة البيطرية أن أنثى نمر الثلوج قد عانت من خَرف مماثل. وبما أنها لم تعثر على إجابات لما حدث، فقد تمت إحالتها إلى وظيفة مُرشدة، ولم تستعيد معنوياتها ومكانتها قليلًا، إلا بعد أن أنقذت نمر الثلوج من أعماق الكهف الذي كان قد عزل نفسه فيه، وأيضًا عندما اكتشفت لاحقًا، المرض الذي أصابه. ومع ذلك، وقبل

أن ينقلها المسؤول إلى النزهات الليلية، كانت البيطرية قد رَبطت بين تفشي الوباء الذي استهلكها هي والحيوانات الليلية، وبين وصول نمر الثلوج إلى الحديقة.

كان الزوار في داخل الملجأ، ينتظرون بفارغ الصبر عودة الطبيبة البيطرية. يسمعون خطوات سريعة بين أوراق الأشجار في الخارج. لم يكن المكان الذي يوجدون فيه سوى مستودع لتخزين أدوات البناء والحدائق. لا يمكنهم البقاء طوال الليلة هناك. ليس في ذلك البناء الخرساني البارد أي مقعدًا لتجلس عليه السيدات، ولم يكن آمنًا في هذا الظرف. ولا شيء سوى باب عادي يفصل بين الممر الذي يختبئون فيه وبين العتبة المظلمة للغابة. كانت السيدة إكس جالسة في زاوية معزولة وفي حضنها المخلوقة الصغيرة، تشعر بالإرهاق الشديد، ولم تعد قادرة على حملها بعد الآن. الآخرون مصدومون بسبب الوضع الذي هم فيه، ويتحركون كما لو كانوا جسدًا واحدًا يذرع المخبأ من طرف إلى آخر. تجمع الرجال والنساء حول الشابين، يراقبون المخلوقة النائمة في أحضان المربية. تتشابك الأصوات التي يرن صداها عندما تصطدم بسقف المخبأ المنخفض. لم تكن السيدة إكس لتفهم ما يقولونه، حتى لو سمعته، لأنها كانت تُصلي. ما كانت تتخيل أبدًا أن هذه النزهة ستتسبب بكل هذه المشاكل. أي نوع من الحيوانات قد فتك بتلك الطيور؟ فقط الرب يعرف الإجابة، كما أكدت في اعترافاتها. كانت المخلوقة هادئة إلى درجة أنه لا يمكن ملاحظة ضربات قلبها. حينها شَعرت السيدة إكس بالحنان الشديد، رغبت في مداعبتها وأن تحك لها أذنيها مثل الكلاب، مع أن المخلوقة

لم يعد لها أُذنين. شعرت بالرغبة في إخبارها أن كل شيء سيكون على ما يرام، وأنها ستكون سعيدة قريبًا. لكنها خشيت من إيذائها، لذا لم تفعل شيئًا. قالت في إفادتها، أنها على يقين من أن عمل التقوى الأخير سيحررها من أي عذاب. في تلك اللحظة، انتبهت السيدة إكس إلى الاضطراب الذي ساد بين بقية أفراد المجموعة. أراد الرجل الأكثر غطرسة، الخروج وحده إلى الغابة. قال إنه يحتاج إلى التبوّل، ولن يفعل ذلك أمام الجميع. بدأت زوجته في النحيب، وتوسلت به ألا يذهب، لأن الجميع في نهاية الأمر، سيتعين عليهم فعل الشيء نفسه، عاجِلًا أم آجلًا. تجاهلها الرجل وخرج دافعًا إياها جانبًا. وضعت السيدة إكس جسد المخلوقة برفق على مفرش الأكل، وذهبت لترى ما يحدث. في الخارج، كان الرجل واقفًا موليًا ظهره نحوهم، نصفه مختبئ بين أوراق الشجر. كان بإمكانهم سماع تأوهاته والصوت الخافت لدفقات البول الساقط على الأرض مُختلِطًا بضجيج الأمطار. ضعفُ تدفق البول، جعل الرجل يفكر بأنه يعاني من مشاكل في البروستاتا. عندها فقط، وبينما كان الرجل يقترب من المجموعة، لاحظت المربية تعبيرات وجوه الآخرين. أحنى الرجل جذعه وهو يرفع سَحّاب سرواله. ثم، فجأة، أطلق صرخة مكتومة، واختفى في ظلمة الغابة، تسحبه قوى غير مرئية.

عندما عادت إلى الركن الذي تركت فيه المخلوقة نائمة، لاحظت السيدة إكس أنها لم تعد هناك. فقدت زوجة الرجل المختفي وعيها، وحاول البعض إفاقتها. حام الآخرون في دوائر في الممر خافت الإضاءة. أخفضت السيدة إكس أجفانها، حفزت ذهنها وعادت

للصلاة، فالصلاة، بالإضافة إلى تهدئتها، تساعدها على شحذ حواسها في المواقف غير المستقرة. ليس لأنها تعرضت لموقف مشابه في السابق، لا يا سيدي. لكنها واجهت بعض الاختبارات. نعم، فاللحظات السابقة على موت مرضاها، على سبيل المثال، كانت لحظات عصيبة. وعندما كان الأقارب الحاضرون يُظهرون حدادهم المسبق المفعم بالافتعال، بغية إخفاء اهتمامهم بالميراث وحسب، كان الموقف أشد إرهاقًا. وعلى العكس، عندما يتعلق الأمر بمسنين تخلت عنهم عائلاتهم، يكتسب الانتقال ملامح ليّنة، كما ينبغي أن يكون في نهاية الأمر، وينتهي بالصمت عندما يتوقف الرنين، بمجرد إيقاف اشتغال الأجهزة. كم من المرات قامت بذلك بدافع الشفقة؟ لا تستطيع التحديد. وتأسف لأنها لم تقم بذلك مرات أكثر، وأنها لم تستجب لنظرات المسنين المتوسلة، حين كانت تمنعها أجواء الهستيريا المحيطة. في تلك الحالات، كانت شاهدة على الموت المؤلم للمسنين، يخنقها العجز وأنين النائحات الكاذب. يتأخرون كثيرًا في الموت، كان موتهم بطيئًا، والألم يدمر أجسادهم، بينما تحيط بهم زوجات الأبناء البغيضات، والأصهار الغدارين، والأبناء غير الأوفياء وغير المحبين، والأزواج والزوجات الخَوَنة، كما أكدت في إفادتها. لهذا السبب، لم ترغب قط في تكوين عائلة. تتذكر جيدًا وفاة والديها. عزاؤها أنها ساعدتهما. لذا لم تتزوج ولم تُنجب. لأهميّة رسالتها. تُهدئها تلك الأفكار. فتحت عينيها ورأت المخلوقة. كانت واقفة مولية ظهرها في نهاية الممر. في البداية، لم تستطع السيدة إكس تمييزها، ولكن بمجرد أن تعودت عيناها على الظلام، توجهت نحوها، وتدريجيًا بدأت تتعرف على هيئة قبعتها ومعطفها الأكبر منها

بخمسة أضعاف. تأكدت تمامًا من هويتها، عندما رأت عينيها التين كانتا تطرفان في الظلام. لم تفهم السيدة إكس كيف للمخلوقة أن تظل واقفة بعد كل هذا.

4

بعد لحظة من التردد، وضعت الطبيبة البيطرية الهاتف على أُذنها وتحققت من انقطاع الخط. لقد خرج الوضع عن السيطرة. لابد وأن أمرًا جللًا قد حدث، والآن، لا تدري ماذا عليها القيام به، وهي لا تستطيع استدعاء رجال الشرطة. كانت تحلم بتقديم برنامج تلفزيوني عن الحيوانات، لا أن تشارك في أحد برامج تلفزيون الواقع الغريبة. لم تكن مستعدة للاعتناء بهؤلاء الأشخاص. هل يجب عليها التفكير فقط في نفسها؟ على أية حال، يجب عليها الاتصال برجال الشرطة وهو ما لا تستطيع فعله بدون راديو ولا هاتف، قالت في إفادتها. تظن بأن موت طيور الروحاء، لا يمكن أن يُعزى إلى أحد الحيوانات المفترسة في المنطقة. فلا يمكن لنمر الأصلوت أن يرتكب مثل هذه المذبحة، ليس في تلك الظروف، وليس ضد مجموعة بهذا العدد من طيور الروحاء الكبيرة. لو تمكنت من التواصل في الوقت المناسب مع رجال الشرطة، ربما سيختارونها كبطلة للحلقة، وهكذا ستحظى ببرنامجها التلفزيوني في نهاية الأمر. وربما سيسمحون لها باستئناف أبحاثها. فتحت الباب الصغير، والتفت حول الحائط الخرساني الطويل للمخبأ، مبتعدة عن المجموعة. في نهاية الممشى وبجوار

المنطقة المخصصة لنمر الثلوج، فوجئت بجثة الرجل الذي كان قد خرج للتبول. تمتد ذراعه اليسرى خارج الدغل، كما لو كان الفائز في مسابقة سباحة على الأرض الموحلة. سقط المطر غامرًا الوديان بعكس التوقعات الجوية لتلك الليلة. بحثت البيطرية بارتباك عن نمر الثلوج من بين القضبان، ولكنها لم تَرَ سوى الظل المعتم على الصخور داخل الكهف. ربما كان هناك في الأعلى، في مكان ما، مترقبًا، ومنتظرًا لحظة موته وحسب، أو ربما التهم نفسه أخيرًا، مرة واحدة وإلى الأبد. أسندت عقب البندقية على الوحل وقلّبت الجثة بجهد. كانت فيه إصابات في الرقبة، مماثلة لإصابات طيور الروحاء. حين نهضت، فكرت البيطرية فيما يتعيّن عليها فعله لإخراج الجميع من هذا المكان في أقرب وقت ممكن. كان هناك درب شبه منسي، يؤدي إلى مخرج الحديقة، ولكنه مليئ بالعقبات. قد تتأخر السيدة التي تحمل الطفلة الغريبة أكثر من ساعة في اجتياز هذا الطريق، أما بمفردها فيمكنها القيام بذلك في خمسة عشر دقيقة. جعلها هذا تتخذ القرار، ودلفت إلى الغابة. لم تستطع التوقف عن التفكير في أظافر هذا الرجل المتسخة بالطين.

لا تسمح عزلة الغابة بتوقع المطاردة. بعد مئة متر من السير، تعرفت البيطرية على الطنين فوق الصوتي لصافرة كلاب. توقفت لحظة لتتأكد، فلم يبق لديها أي شك، لأنها كانت تملك أداة مماثلة لتدريب كلبها من فصيلة بوردر كولي. يمكن لهذا الصوت أن يسافر لمسافة كيلومترات، والشخص الذي يتحكم به، يمكن أن يكون في الجادّة التي تمر أمام (نوكتوراما). لم يكن تدريب الكلاب في تلك

الساعة من الصباح يبدو معقولًا، ناهيك عن كون المكان بعيدًا، لذا فمن المؤكد أن المدرب لديه سيارة وربما هاتف خلوي، وهو ما يضمن إنقاذ المجموعة. وقد يكون شُرطيًا يُدرب كلبه. استأنفت السير بعزم. لم تركض، لأن احتمالات خطر الإصابة كانت كبيرة. وأثناء اجتيازها بجهد بعض الأشجار الساقطة، رأت كُتلًا تتحرك بين غابات الخيزران التي تحد الطريق. قامت بتفحص العتمة بمساعدة المصباح الكاشف. شعاع الضوء المنعكس على ماء البرك يحدث أطيافًا. تستحيل الرؤية بوضوح، استمرت بالمشي. غطت الغيوم القمر، وظنت البيطرية أنها شاهدت ظلًا ضخمًا يمتد عبر قمم الأشجار. سمعت خطى خفيفة، بالكاد تمس سطح البرك، وحفيف لهاث متصاعد يأتي من كل الجهات. كل ذلك الطنين يشكل موسيقى غريبة. عدَّت أن خطر الإصابة لم يعد له ما يسوِّغه، فانطلَقت راكضة، ركضت بكل قوتها. غاصت قدماها في الوحل: في عِدة مناسبات رأت أفاعي، تلتف في خيالها، حول ساقيها. في هرولتها تلك، لاحَقتها الكُتل لتشعُر بمزيد من الفزع في كل متر. زادت زخات المطر. تفادت جذع شجرة أوقعته الرياح. غمرت هرمونات الإندورفين جسدها، وشَعَرت بما يشعُر به الثعلب حين تطارده كلاب الصيد.

تبع سائق التاكسي كلابه الروت وايلر الثلاثة في تقدمها عبر حديقة الحيوانات. كل خطوة تشكل نغمة نوتة موسيقية. يسيل لعابها فوق البرك. شعرها القصير الأسود ينزلق بين الفروع المدببة، وكأنها شفرات حلاقة مُرهفَة. ترك الصافرة وراقب جثث طيور الروحاء في الوحل. لاحظ ثقوب الأسنان في الرقاب الطويلة. اختفت الكلاب بين

الشجيرات. التقط عصا من فرع ملتوي وتابع السير. دخل إلى الطريق الذي يسير فيه الزوار. يمكن رؤية آثار المجموعة على الأرض. أطلق صفيرًا مكتومًا وقصيرا، فظهرت الكلاب واحدًا تلو الآخر في المنحنى الموجود في الأمام. كانت كلاب منضبطة واستجابت لحنان سيدها بطاعته. عيون حمراء في نهاية النفق الزراعي. الأنفاس الثقيلة لأفواهها تُغيّم الهواء. أشار السائق بيده اليمنى وأطلق صفيرًا متقطعًا وآخر أطول. انطلقت كلاب الروت وايلر راكضة جنبًا إلى جنب عبر الطريق، دون حتى أن تتلامس، وصولًا إلى المكان الذي لجأ إليه الزوار. إنها تتبع رائحة الجلد الميت والمراهم التي تغطي جسد المخلوقة. الكافور. العكبر، صمغ النخل. رائحة الزهور. تذكر السائق ذلك المتشرد الضخم. كانت تلك جولته الأولى في لعبة الصيد البشري. «صيد الغزلان» هو اسم مقطوعة موسيقية لمورين. كان المتشرد قويًا وتطلب مجهودًا. لم يستسلم بسهولة. مَثّل تحديًا كبيرًا لكلابه. عندما عاد السائق إلى الغابة بجوار البحيرة، كان الرجل يستعيد وعيه. ولم يبق من الوقت سوى ما يكفي لفك أربطته فقط، عندها استيقظ الرجل مرعوبًا. كنوع من الاجراء الوقائي، أبرَز السائق له مسدسه. ولم يظهر على الرجل أي رد فعل، إلا عندما لاحظ وجود الكلاب الثلاثة صامتة في المقعد الخلفي للسيارة. لم تتوقف أسطوانة القرص المضغوط عن إصدار نغماتها، لكن المتشرد لم يسمعها، لأن قلبه كان ينبض بقوة شديدة جدًا، وبصوت عالٍ يصم الآذان. كانت تلك هي مساهمته الأولى فقط، في سياق تنامي القطعة الموسيقية.

5

على حدود المسار المغطى بأوراق السراخس والنباتات المتسلقة داخل (نوكتوراما)، ظهرت حيوانات سامّة تطارد الطبيبة البيطرية في هروبها. زخات المطر تضرب وجهها وتُلحق بها الأذى كوخز الإبر. لا شيء يُوقف عدوها، وهي تراقب، من طرفيّ عينيها الكُتل التي تطاردها، وبدأت تتعرف فيها على الحيوانات المريضة التي عالجتها في مختبر حديقة الحيوانات. لقد قامت بالتضحية بتلك الحيوانات... فكيف يمكن أن تكون حيّة؟ تتساءل في داخلها وهي تركض، عندها أغلقت عينيها (مغامِرة بالسقوط وكسر أحد عظامها)، كما لو أنها أرادت للذئاب والخفافيش أن تختفي أو فقط أن تنقلها ذهنيًا بعيدًا عن هذا المكان. أما الحيوانات، فعلى العكس من ذلك، بدت أكثر وضوحًا في ذاكرتها، وتساءلت من أين أتت بالشجاعة لتتولى أمر هذا الوباء؟ وإلى أين سيأخذها طموحها؟ (تتمنى، الهروب من الحديقة، على الأقل)، وما معنى ما يحدث؟ هذا إن كان للسلوك البشري من معنى. حتى الحيوانات لم تكن كاملة، أو مثالية، وهي الآن تدرك ذلك. لم تعد تطرح في ذهنها أية صورة مثالية عن الحيوانات، كما هو معتاد بين الأطباء البيطرين. المثالية أو الكمال أسطورة لم يعد لها مكان في هذا العالم: فالوحوش البرية لا تمارس الادعاء. لهذا السبب كانت مهووسة بالعمل في التلفزيون. لنشر اكتشافها: الحيوانات تسير نحو الموت وهي مثل البشر على وعي بذلك. لا خلاص لسكان هذا الكوكب: فالعدوان الذي كان يقتصر فقط على الكفاح من أجل البقاء، تم استبداله بالعنف غير المسوَّغ. والحيوانات الآن متأكدة من أنها

ستموت، وأن أفضل ما يمكنها فعله هو أن تجعل البشر يموتون قبلها.

لم ينطق أحد داخل المخبأ، لبعض الوقت. كان الجميع حزين، كل واحد في ركنه، لا شيء يُسمَع سوى صوت البكاء المكتوم لزوجة الرجل الميت. تركت الفتاة يد خطيبها وقالت أن عليهم الذهاب للبحث عنه. يجب عليهم استجماع الشجاعة الكافية للتصرف كبشر. التصرف كبشر، كررت في إفادتها. كبشر. كان الصدى داخل المخبأ كبيرًا، وكأنها نطقت تلك الكلمات أكثر من مرة، أكثر من مئة مرة. أخذ خطيبها يدها وأخبرها أنه سيرافقها. بدا للفتاة أن تلك الإيماءة هي أكثر أهمية من أي دليل على الحب أظهره لها من قبل، وخرجا معًا تحت العاصفة. في البداية، لم يعرفا أين عليهما البحث. اختراق الغابة المظلمة أم متابعة السير في المساحة المفتوحة حول المخبأ؟ في المطر والظلام، ندم الشاب على اندفاعه. لم يرد أن تظن خطيبته بأنه جبان. يمتلك والد خطيبته نصف الحيّ الذي يقطن فيه. يريد الزواج بها، لذا قرر أن يواجه الموقف. على أية حال، لا بد وأن البيطرية قد هاتفت رجال الشرطة بالفعل. هل هم في الطريق؟ تساءل. في الواقع، أن البيطرية قد اختفت منذ نصف ساعة. والمفروض أن تكون قد عادت. قرر الشاب ألا ينبه المجموعة حول هذا الموضوع، لأنه قد يؤدي إلى تفاقم حالة الهلع. البيطرية لديها خبرة كافية، على صغر سنها (كم كانت جذابة!)، وستتخذ الخطوات اللازمة كي يخرج الجميع من هذا المأزق. عندها قرر الشابان الالتفاف حول حائط المخبأ من الخارج لمعرفة ما يمكن أن يجداه. في الانحناءة الأولى، وجدا جثة الرجل ملقى على ظهره تحت المطر. عيناه المفتوحتان تواجهان المطر دون

أن ترمشان. لقد اكتسب، تحت ضوء القمر، لونًا قرمزيًا غريبًا. بدت وكأنها درجة سُمرة اصطناعية. رأى الشاب القتيل، وأعاد النظر في كل ما يهمه في الحياة. إنه لا يحب خطيبته إلى هذه الدرجة.

راحت المرأة تصرخ بمجرد أن اقتحم الخطيبان باب المخبأ وهما يسحبان الجثة الموحِلة. أمام كل هذا اليأس، فكرت الشابة بأنها ربما لن تشعر بالشيء نفسه، إذا ما تم إخبارها بنبأ وفاة خطيبها. منذ بعض الوقت، كانت قد سئمت منه، وشكّكت أكثر من مرة في مشاعره تجاهها، وهي التي كان يكلفها دائما، على الاستسلام للمشاعر دون التفكير بأنها محل طمع [في ثروتها] من قِبل الشبان. لم يكن الأمر مختلفًا مع هذا الشاب، هذا عدا ظنها بأنه فاشل، حسب قولها. خارج المخبأ، لم يُظهر الشاب سلوكًا رجوليًا إلى درجة كبيرة، وكان عليها هي أن تتولى زمام الأمور، كما أوردت في إفادتها. لم ترد أن تكمل بقية حياتها مع أي شخص: بالتأكيد لن تفعل ذلك. حينها، متجاهلة بكاء الأرملة أمام جثة زوجها، التفتت الفتاة نحو الطفلة النائمة في حضن السيدة إكس، كائن آخر غريب الأطوار، تلك المرأة العجوز، لكنها تُقسم بأن السيدة كانت إلى جانبها، في اللحظة التي تم فيها خطف الرجل واخفائه داخل الغابة. فإذا كانت السيدة وحدها بجوارها تراقب المشهد، إذاً أين كان هذا القزم الصغير ذو المعطف الأحمر؟ تساءلت في إفادتها. تذكرت الشابة أنها قد سألت هذا السؤال عندما حدثت الحادثة، وأنها أدارت رأسها لفحص الزاوية التي كانت تحتلها المرأة العجوز والطفلة، وانتبهت أن تلك الأخيرة لم تكن موجودة.

6

عندما سارت الشابة نحوها بحزم، تأكدت السيدة إكس أن هذه النزهة الأخيرة للمخلوقة كانت فشلًا ذريعًا. ومع ذلك، حرصت على عدم ايقاظها، حولت وجه المريضة نحو صدرها وغطته بمعطف المطر. على أنها كانت هناك في حضنها منذ فترة طويلة، إلا أنها لا تبدو نائمة، وإنما في سبات عميق. كان تنفسها غير محسوس. قاست نبضها قبل أقل من عشر دقائق: يزداد ضعفًا بالتدريج. إنه غير محسوس تقريبًا. توقفت الشابة أمامها فجأة، ووضعت قبضتيها المغلقتين حول خصرها. أرادت أن تعرف أين كانت هذه الطفلة حين تم مهاجمة الرجل. نظرت إليها السيدة إكس من الأعلى إلى الأسفل وشعرت بالأسف، أن هذه الشابة ليست بمريض ميئوس من شفاءه تحت رعايتها. بعد أن خطرت لها تلك الفكرة، ندمت وقامت برسم الصليب، وضمت بقوة أكثر جسد المخلوقة الخامل. لكن الشابة أصرّت وانضم صاحبها للتحقيق. أرادا معرفة السبب وراء ذلك المعطف الذي يغطيها تمامًا وتلك القفازات. يظنان أنها غريبة للغاية، تمامًا مثل الوضع الذي كانوا متورطين فيه، وأنه من غير المعقول ألا يكون لها علاقة بما يحدث. في تلك الحظة، ردت السيدة إكس: ليست سوى شخص هش ذهب للتنزه في حديقة الحيوانات، لا شيء أكثر من ذلك. كان حلمها رؤية نمر الثلوج. رَجَتهما أن يوقفا أسئلتهما فورًا، لأنها غير مناسبة في لحظة سيئة كهذه. لقد تم قتل رجل. مريضتها ليست على ما يرام، لكن الرب سيرعاها. غير مقتنعة بحجج السيدة إكس، فقدت الشابة السيطرة، وقالت أنها رأت عينيّ المخلوقة الحمرواتان مثل عيون الحيوانات

المفترسة. الأسنان التي تلمع في الظلام. كانت على يقين، لم تكن تهذي. ثمة خطأ كبير في تلك المخلوقة. كانت أول من استخدم التعبير «مخلوقة» في التحقيقات. عندما رأى سيل اللعاب من طرفي شفتي خطيبته وهي تصرخ، شَعر الشاب بالخجل. التزم الصمت، وقرر إنهاء العلاقة بمجرد انتهاء هذا الوضع. كان هذا كثيرًا بالنسبة له، كما أكد في إفادته، ولكن ليس بالنسبة لخطيبته التي هاجمت السيدة إكس وسحبت قفازيّ المخلوقة بعنف. حينها رأى جميع الحاضرين أيدي المخلوقة التي لم يبق فيها سوى السبابة والابهام، وأن بقية الأصابع لم تعد موجودة، لأنها قد تفسّخَت وسقطت.

كانت البوابة الرئيسية لـ(نوكتوراما) مغلقة بالسلاسل، ولم تجد الطبيبة البيطرية حلًّا سوى القفز من أعلاه. وبينما هي تتسلق القضبان وتصغي إلى الاهتزاز المعدني على طول السياج الذي اشتد بفعل وزنها، كان الشيء الوحيد الذي تفكر فيه، هو الظلام الكثيف وراء ظهرها. كان لديها شعور وشيك بأن وحشًا مجهولًا سيظهر من هناك في أية لحظة، وسيسحبها مجددًا إلى الغابة. لكن لم يحدث شيء ولم تستطع تصديق ذلك عندما لامست قدماها الرصيف الخارجي. إذن لم يكن فيلم لسبيلبيرغ؟ هل هي آمنة الآن؟ عليها أن تساعد الآخرين حالًا. تتذكر أنه ما زال هناك هاتف عمومي في إحدى زوايا جادّة (ميغيل استيفانو)، ولكن أيّ زواية من الزوايا؟ هل عليها التحدث أولًا مع الشرطة أو مع إحدى قنوات التلفزيون؟ عبرت الجادة وعيناها تعتادان على أضواء الأعمدة الصفراء. بعد الذهول المبدئي، تذكرت صافرة الكلاب التي سمعتها داخل الحديقة. بحثت عمن قد يكون

هناك، لكنها لم تر أحدًا. كانت العاصفة على وشك أن تهدأ عندما وجدت الهاتف. اتصلت برقم 190 لأنها لم تكن تحفظ عن ظهر قلب، أي رقم من أرقام البرامج التي تبحث عن الإثارة. بدأت الشرطة عملها بعد المكالمة، وبدأنا نحن بتلك الإفادات. بتلك القصص حول الحيوانات. حينها أخبَرَت الطبيبة البيطرية متلعثمة، موظفة استقبال المكالمات بما حدث. هاجم حيوان مفترس زائري (نوكتوراما) في تلك الليلة. وصلَت الشرطة بعد دقائق قليلة، يرافقها فريق الصحفيين الذي عادةً ما يشارك المدمنين الرصيف أمام مركز شرطة 77 في الحيّ. بعد تفصيل ما حدث، وجدت البيطرية الوقت لإزالة الوحل الجاف من على وجهها ولوضع المكياج الذي أعارته إياها إحدى المراسِلات الصحفيات. وبابتسامة مهنية، تحدثت عن ظِلالٍ طائرة، وعن أجنحة ضخمة طاردتها عبر الحديقة. عن عيون دموية في الدروب الضيقة المظلمة. عن بطولتها في إنقاذ الضحايا من براثن الحيوانات المفترسة. عن الرحلة الصعبة عبر الغابة ووسَط العاصفة، وعن الحقيقة الخاصة بالوحش التي اضطرت للكشف عنها. في عينيها يمكن رؤية سطوع الجنون، والذي أصبح أقوى وأقوى، ورأت نفسها بالفعل، بحجم أصغر ولامعة على شاشة التلفزيون.

انتظرت الكلاب الثلاثة بلا حراك إلى أن وَصل سيدها. حينها رأى سائق التاكسي ظل رجل في مقابل الحائط الأسمنتي للمخبأ. يتبول، ونصف جسده بين الأشجار. دون أن تنبح، لاحظت الكلاب حركات الرجل المنشغل بالبحث عن سحاب بنطاله، بعد أن نفضَ عضوه. واضح أنه رجل مهذب، لأنه حتى وهو في حالة خطر وملابسه

مبتلة بالمطر، اهتم بشأن آخر قطرة بول والتي تنتهي دومًا في السروال الداخلي، القطرة المشؤومة. مما لا شك فيه، أنه يعاني من سرطان البروستاتا. همّ الرجل بالعودة إلى المخبأ، وفي صمت، بحركة واحدة من يده، أمر السائق بالهجوم. لم تكن هناك مقاومة، على عكس ما حدث مع المتشرد. لا جديد، فقط أسنان يليها الاستسلام واهتزاز الخطوات التي تغرق بشكل محموم في الوحل. كان المتشرد خصمًا جديرًا. نعم. أولًا، كي يهرب من كلاب الروت وايلو الأصغر سنًا والأكثر اندفاعًا، غاص في البحيرة. تردد الكلب لحظة، ثم ألقي بنفسه في المياه. رفيقاه، الأكثر خبرة، اكتفيا بتشجيعه بنباحهم كي يبتعد عن الشاطئ. بلا تخبط مذعور، وصل المتشرد إلى قطعة من الخشب في قاع البحيرة الموحل ورفعها فوق رأسه، ناظرًا بدقة إلى رأس الحيوان الذي كان قد وصل إليه تقريبًا، سباحة. لم يُبد الكلب أية إشارة على أنه قد أصيب بجروح، وأصّر بغضب لا يمكن لجمه، وهو ما أدى في النهاية، لتقويض دفاعات خصمه وأجبره على تبني استراتيجية جديدة. دون أن يفقد فرع الشجرة، تمكن المتشرد من الخروج إلى الشاطئ المقابل، قبل أن تخمن كلاب الروت وايلر الأخرى مناورته. كان ينوي تسلق شجرة بأسرع ما يمكن، متجاهلًا فرضية أن يطلق السائق عليه النيران. لكن الأشجار في هذه المنطقة، كانت عبارة عن شجيرات، وأشجار صنوبر ذات أفرع عالية للغاية، بحيث لا يمكن الإمساك بها. لم يكن لديه خيار آخر سوى استخدام الجذوع كدروع، ذات كفاءة مشكوك فيها، ولكن، وعلى جهوده، تمكن الكلب الأصغر سنًا، في بضع ثوان، من عضه في حلقه. النغمة الأخيرة في تلك المقطوعة الموسيقية (دو كبيرة)، هي صوت الشِريان السباتي... وهو يَنقطع.

7

خرجت الأمور عن السيطرة في المخبأ. أصبحت الشابة المالكة الحصرية لإرادات الآخرين وأغرَت أتباع آخرين. حتى صديقها تراجع في قناعاته. كانت السيدة إكس واقفة محصورة قبالة جدار الممر، وتحمي المخلوقة بصدرها. وعلى خلاف بقية المجموعة التي تضايقها، ظلت صامتة. لم يكن هناك مجال مناسب للحوار في هذا المكان، كما حدث في المرتين السابقتين، عندما ذهبتا لمحل تناول الوجبات السريعة، وفي جولة الاستمتاع برؤية أشجار عيد الميلاد الضوئية. عزمت السيدة إكس على إخراج المخلوقة من هذا المكان بأسرع ما يمكن، وأخذها إلى حيث نمر الثلوج، حتى تتمكن المسكينة أخيرًا من استكمال دورة حياتها. أقلقها ألا يكون هناك ما يكفي من الوقت لذلك، حيث أنها لا تشعر بنبض المخلوقة، وتنفسها أصبح أقل وضوحًا. وهكذا، محاصَرَة قبالة الجدار من قبل الحشد الصغير، بدأت بالاقتراب من المَخرَج. ولكن، في لحظة تردد أثناء حسابها للمسافة التي تفصلها عن الباب، انتزعت الشابة وخطيبها جسد المخلوقة الهامد من بين ذراعيها. لم تعد للسيدة إكس من قوة بعد كل تلك الساعات من المشي. عندما وضعا المخلوقة على الأرض، استيقظت، بدت في حالة ذهول، ونظرت إلى كفيها المبتورتين، المعروضتين على مرأى من أعين الجميع. بدا كأنها تتساءل أين قفازيها. وغير مكتفية بما حدث، أزالت الفتاة الشابة القبعة عن رأسها. لا أحد توقع ذلك. لم يكن للمخلوقة أنف: ليس في مكانه سوى التجويف الأنفي فقط. لون أحمر قاني حل محل بياض

العينين، ولا يمكن تمميزه عن القرنية. صمدت على رأسها بضعة شعيرات شعثاء المظهر كشَعر الغوريلا. هناك جروح مبعثرة في أنحاء بشرتها الصفراء الجافة. وفي وسط جبينها، جرح مفتوح، كأنه عين ثالثة تم انتزاعها باستثناء مقلة تفيض بالقيح. كانت الشابة أول من نطق بكلمة «الوحش». بعدها، قام شخص آخر بتكرارها. وعندئذ كرروها كلهم كجوقة. واقعة على الأرض، رفعت السيدة إكس ذراعيها للدفاع عن المخلوقة. وحش، وحش، وحش، وحش. تراجعت المخلوقة إلى عمق الممر الذي يؤدي للخروج. اختفت ندباتها في الظلمة، لا يُرى منها سوى معطف المطر الأحمر وحذاء المطر الموحل. لمعت عيناها في الظلام قبل أن تخرج. ثم اختفت في الظلام وهي تعرج.

كانت الساعة الثانية صباحًا. الجميع مُنهَك، مستلقين على البرك في المخبأ، خائفين من الموت. أبقت الأرملة رأسها مائلة علَى كتف الفتاة الشابة التي كانت بالكاد تتحملها. يشبه وضع جثة الزوج في وسط المشهد، منظر مصطاف نائم على الشاطئ وتغطي وجهه طبقة كثيفة من كريمات واقي الشمس. باختفاء المخلوقة، تحولت السيدة إكس إلى هدف لهجمات الجميع. الكدمات تغطي جسدها. كانت الإصابات الأكثر خطورة بسبب الفتاة وخطيبها. كما هو معروف عن الرحماء والجبناء، تبين في النهاية أن الشاب كان عنيفًا للغاية. بقعًا أرجونية سببها أولئك الأبناء والبنات والأمهات والآباء وأبناء الأخوة والأعمام والعمات، قالت السيدة إكس. والزناة والقتلة والخُطاة من كل صنف. تسبب بها أولئك، البشر. كما تسببوا بها مسبقًا للرجل المقدس في طريق الآلام. حجارة وعصا وبصاق.

كان ذلك أفضل ما يمكن أن يقدموه من أنفسهم، جوهرهم نفسه. لا يرقون إلى مستوى قديستها الصغيرة، لا يصلون حتى إلى مستوى أصابع قدميها الفاسدة. كانوا متوحشين، دمرتهم الخطيئة والقسوة. كانوا تحت الأرض، سقطوا ودفنوا. والقديسة بلا أنف، ولا أصابع القدمين واليدين؟ بلا أذنين، بلا حياة تقريبًا. أين هربت؟ إلى الغابة؟ كيف يمكنها أن تظل واقفة على قدميها بعد كل السم الذي وضعته السيدة إكس في شرابها؟ جرعة أعلى بكثير من تلك التي كانت تقدمها لمرضاها الميئوس من شفائهم، لأولئك العجائز في مستشفى مانشستر، وحتى لأبويها، ومع ذلك، لم تؤتِ الجرعة مفعولها. تلك الكمية فقط، لا يُفتَرض أن تسمح بهامش للخطأ ولو بنسبة صفر في المئة. ومرضاها السابقين كانوا عجائز ضعفاء. عدَّت السيدة إكس أن كل تلك المقاومة هي من عمل الرب. لقد كانت حقًا قديسة. حينها تذكرت: تعرف أين هي المخلوقة. ليس بإمكانها الذهاب إلى مكان غيره. لابد وأن الضربات في الرأس قد شوشتها. ربما لا تفكر بشكل متماسك. هل أخطأت في تقدير الجرعة المخففة في الأطعمة؟ وقفت السيدة إكس مستندة بظهرها على الجدار كي لا تفقد الوعي. تدور الأرض بسرعة كبيرة جدًا. لم تستطع أن تفسر كيف خطرت لها تلك الفكرة المجدفة. فعلى عكس الجميع، هي لا تعتقد أن الأرض تدور. بمجرد أن وصلت إلى الفسحة الخالية من الأشجار، دون أن يراها أحد، رأت السيدة إكس القمر خلف المطر الذي لم يتوقف عن الانهمار. وهي لا تصدق أيضًا، أن أقدام الإنسان قد وطأت القمر. ليس على ذلك القمر الذي في السماء، هذا مستحيل. كل هذا كان كذبة. أنا أعتقد فقط في الرحمة، كما اعترفت. في الرحمة الآلهية،

وفي مهمتها بممارستها بضمير. إن السماء مكان الرب وليس البشر. فكر السائق في طريقة لإخراج المجموعة من المخبأ. ربما يجد هناك خصومًا بمستوى كلابه، أناس لديهم ضمير فني جاد، قادرون على المشاركة في إنجاح هذا العمل الموسيقي المتنقل. أظهرت الروت وايلر علامات نفاد الصبر. تحوم حول المنطقة بانتظار أن يخرج أحدهم. يبدو أنها تختبر صلابة الأرض، مثل الراقصين وهم يسخنون أجسادهم قبل العروض. مكرّرة، أجسادهم تعكس صورة أشباح سوداء على الجدران، كانوا ستة كلاب، لا ثلاثة فقط. الآن تبدو ضخمة وأفواهها هائلة ومُهَدِّدة. كان الصمت مطبقًا في الحديقة كلها، وتبدو الموسيقى المتقطعة على وشك التوقف، مثل شبكة الأصوات في الغابة. في ظل وجود حيوانات مفترسة، كانت الكلاب تلتزم الصمت. خرج السائق من تحت الأشجار وظهر في منطقة الضوء الأصفر لعامود النور أمام المخبأ. يحمل بندقية الصيد التي وجدها في الغابة، بعد أن رمتها الطبيبة البيطرية أثناء فرارها. كان السلاح محمل بالسهام المهدئة، ولكنه يملك مسدسه الـ38. فكر في اقتحام المخبأ وإطلاق النار عشوائيًا. من شأن ذلك أن يخيف بقية المجموعة، مما سيجبرهم على الخروج إلى الغابة. سوف تعود الموسيقى، الآن، ودون انقطاع، حتى النهاية. وتخرج كلابه من حالة التوقف والانتظار. من بين الفتحات الشبكية للمياه الغزيرة التي تسقط عِبر قنوات السقف، رأى سائق التاكسي مَن سيوفر عنه العمل. منع الهجوم بلفتة. فضل أن يقترب قافزًا في برك المياه، وأن يقيّم من كثب، قدرة رد فعل الخصم. هكذا تعرّف على السيدة التي أحضرها إلى الحديقة مع المخلوقة ذات الوجه المشوّه. أبقى كلابه في حالة تأهب وتبعها

ابتداء من عتبة الأشجار على الجانب الآخر، في منطقة الأقفاص. ما أن التفت حول زاوية الجدار الإسمنتي الطويل، توقفت السيدة إكس. لم يفهم السائق السبب. ربما تستطيع رؤية شيء لا يستطيع أن يراه هو من مكانه. واصل تقدمه في الخفاء حتى لمح المشهد. حينها، رأي ما تتأمله السيدة إكس: المخلوقة واقفة وذراعها متشبثتان بأعمدة السياج. كانت قد تخلصت من عبائتها الحمراء. أمامها كان نمر الثلوج على قائمتيه الخلفيتين، كان مخيفًا أكثر من كلابه الروت وايلر وأطول من رجل. تعرّف المخلوقان المَعوقان على بعضهما تحت سطوع البرق الذي أضاء السماء والأرض.

المعرض العالمي الأول لرسوم أوضاع نمر الثلوج - المشهد الخامس، والذي يحفر فيه نمر ثلوج، مُسِن ووحيد، طريقًا في الكهف العميق، للعودة إلى الجبل الذي وُلِد فيه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

كان ياما كان، نمر ثلوج، هو الأخير من نوعه. وبما أنه لم يعد يحتمل عزلة القمم الثلجية التي ولد فيها، راح يجوب في العالم. ضاع بالتأكيد، عندما عشق الصوت البشري. من أجله عبر المحيط داخل قفص كبير يهتز. تحدوه فرصة إنقاذ جنسه من الانفراض. استوعب هذه المهمة كأمر لا يمكن زحزحته من كل قوى الكون، وهو ما يدفعه لتكريس نفسه لهذه المهمة، ولكنه في الواقع، يخفي الحقيقة الرهيبة، وهي أنه ليس أكثر من سجين، والأسوأ من ذلك،

سجين عاشق، بل والأسوأ، سجين عاشق لم يكن حُبه حُبًا متبادلًا، وهذا هو أكثر السجون تحصينًا. بمرور الوقت، دفعته هذه النكبة إلى القيام بالحركات الدائرية والدائمة نفسها للفهود المحبوسة، وبدأ في تدوير عضلاته المتوترة حول محور جاذبية غير مرئي يوجه مصيره. وشيئًا فشيئًا، اكتسبت حركة مقلتيه نشاطًا، طابعًا إيقاعيًا، يتوقع نهاية صامتة، تختفي فيها مجرات كاملة وتعود للظهور مع كل غمضة عين. لقد قاده عشقه للصوت البشري إلى حتفه. لكن ثمة مَخرَج، دائمًا هناك مَخرَج ما، على أن هذه الكلمة يتم خلطها في بعض الأحيان مع كلمة النهاية، وليس مع إمكانية الهروب. كائن آخر فقط، مشابه له، عانى من الآلام نفسها، يمكنه أن ينقذه. أن يحيط محور الجاذبية الخاص به، بمدار متموج ومرن، يتحوّل بالتالي، إلى رقصة متحدة المركز تسعى إلى الجذب من خلال الدوائر، بالقوة ذاتها التي من شأنها أن تحرره من عقوبة مراقبة العالم إلى الأبد عبر القضبان. ودارَ أيامًا، ودارَ ليالي، دارَ أيامًا وليالي، ودارَ ودارَ ودارَ مثل عُثة ضاربة للحمرة حول مصباح مضاء. ولكن لم يحدث شيء. لا أحد يسمعه. لن يغادر هذا السجن أبدًا. حينها دخل نمر الثلوج يائسًا كهفه وبدأ بالحفر. كان ينوي الوصول من خلال الكهف إلى الجانب الآخر من الأرض، والعودة إلى المكان الذي وُلد فيه، إلى جبال ألتاي الذهبية... والموت هناك. حفَر أيامًا، وحفَر ليالي، وحفَر أيامًا وليالي وحفَر وحفَر وحفَر. وأثناء القيام بذلك، أقنع نفسه بأنه يحفر قبره بنفسه. وبعد الكثير من الحَفر، خارت قواه وسقط جاثيًا مُستَسلمًا. عندما أغلق عينيه، تمنى ألا تنفتحان مرة أخرى. كان أمله الأخير: أن عينيه لن تنفتحان أبدًا، وأن يبقى إلى الأبد في ذلك الظلام الخامِد، الدافئ،

الصامت، تحت الأرض. نعم، لأنه بالنسبة لنمر الثلوح الذي عشق الصوت البشري، كان الصمت نوعًا من العقوبة أيضًا. ولكن، كما هو الحال في الحكايات، لم يكن يعرف بأن جهوده قد أحدَثَت أثرًا، وأن ذلك الدوران العنيد حول نفسه، بالإضافة إلى الحَفر المثابر، أسفرت عن رقصة القوة التي يمكنها أن تنقذه في نهاية الأمر. عند دورانه حول نفسه، تمكن من جعل الأرض تلف وتعيده إلى مكانه الأصلي. سمع أحدهم نداءه. وهذا الشخص هو أنتِ، يا فتاتي، ستقومين في تلك الليلة بإنقاذ نمر الثلوج. في تلك الليلة سوف تُغنين له.

7

الطَبّاع:
مملكة الحيوان

رائحة لحم محروق تغزو مركز الشرطة رقم 77. قرر عاملو «مركز السيطرة على الأمراض حيوانيّة المنشأ» حرق الكلاب هناك، في موقف السيارات، لأن أجسادها كانت قد تعفنت بالفعل. لابد وأن الجيران مستاؤون لعدم دعوتهم إلى الشواء. ولا سائق التاكسي كان سعيدًا أيضًا، والدليل صراخه في زنزانته. قام الأغبياء باضرام النيران في الجثث دون إخراجها من الأكياس السوداء، فأغرق دخان البلاستيك السام المبنى من الداخل. يصرخ السائق أكثر وأكثر. إنه يائس، غاضب بسبب التضحية بكلابه. يتصرف كما لو كانوا قد قتلوا أطفاله. تهز عاملة التنظيف رأسها حزينة. استغل رجال الشرطة الفرصة للخروج وإصدار المزيد من الدخان، ينفثونه من سجائرهم في الخارج، وبالأيدي الأخرى يمررون علبة الدخان من أحدهم إلى الآخر. في تلك اللحظة، كانت أيديهم حرة، لا يوجد أحد ليطاردونه. في الأيام القادمة سوف يتفرق المدمنون، الذين احتلوا (كراكولانديا) بعد أن يتم طردهم من قبل الشرطة، في أحياء أخرى. ما أن يرونهم، سوف يطلب السكان من الشرطة إخراجهم من شوارعهم النظيفة. عندئذ فقط، يمكنهم التنزه بسلام في الشوارع مع أطفالهم المربوطين بأحزمة. بعدها، سوف يعود المدمنون إلى هنا. وسوف يخرج رجال الشرطة من جديد إلى الشوارع. وسوف تبدأ من جديد، لعبة القط والفأر القديمة. سوف ينام الجميع لبعض الوقت هانئين، باستثنائي أنا الذي لم أنم لمدة أسبوعين أو ربما أكثر، والخيول التي سيستمر الرجال بامتطائها. ألتزم بروتيني الخاص بعثة مائلة للحمرة، بحشرة ليلية. أنظر إن كان هناك شخصًا قريبًا، أنا وحدي. فحتى عاملة النظافة قد خرجت أيضًا. أغتنم الفرصة لابتلاع قرصين من الإيفا-نوركس

مع بعض من الويسكي الذي أُخفيه في دُرج المكتب. لا أستطيع، ولن أستطيع النوم. لابد لي من الانتظار حتى الصباح. حتى يولَد النهار كما يقولون، على أن هذا اليوم سوف يولَد مَيتًا. الدخان الأسود الخاص بحرق جثث الكلاب، يجعل من المستحيل الاستمرار في داخل المكتب، لذلك أخرج لأتمشى حول البنايات القريبة، بينما مأمور القسم في نوبة الخفارة يعتنى ببعض الأمور. في الشارع، أشاهد الخفافيش على الشجرة المقابلة والصحفيين النائمين في السيارات وعلى الرصيف المقابل للمبنى. عند رؤيتهم، أحصر في عقلي بعض الحيوانات ذات العادات الليلية، ذكَرتهم للتو الطبيبة البيطرية في المقابلة التي أجرتها للتلفزيون: حيوانات من فصيلة القطط، مثل القط الجبلي، نمر الأصلوت، قط النمر، أسد الجبال، نمر اليغور، قط البامباس، الذئب ذو العرف، حيوان الكِنكاج، البومة، طائر البوتو، الأوروتاو الشائع، تلك الخفافيش، الضفادع، العلاجيم، المراسلين، الظربان، يد عارية، يد أخرى عارية، خمس أو ست أيادي عارية، عدة أيادي عارية مُقَشَّرَة، الدُب الأسمر، الذي إضافة إلى كونه ذي عادات ليلية، فهو وحيد، التمساح وأفعى الأناكوندا، فئران الحقول وفئران المدينة، وجرذان الحيّ هذه، حيوان المدرّع، الضباع، الذئب أبو نظارة، الذي يقضي الليالي بالقراءة حتمًا، العقارب، العناكب، الشنشيلات والقضاعات، الصراصير، مع أنني عادة ما أرى تلك الأخيرة في النهار، ربما في الساعة التي يخلدون فيها للنوم، وكلب الآجام، وكم هو مزعج أن تصاب بالأرق في الأدغال، حيث لا شيء يمكن فعله... ولا حتى بالنسبة لكلب، والنمور، وآكلي النمل، أفراس النهر، بنات مقرض وخز الزان، الدببة القطبية، من كان يتوقع ذلك!

وهي التي لا ذنب لها كي تعيش في مكان يدوم فيه الليل ستة أشهر، والفراشات ذات الرأس الأحمر، الدببة الكسولة ورجال الشرطة، البوليفيين والكوريين، الحاخامات، الطَبّاعين على الآلات الكاتبة في مراكز الشرطة والبغايا والقوادين، مغنيات البارات، مدمني الكراك، سائقي سيارات الأجرة وكلاب السائق الروت وايلر، مع أن هذه الكلاب قد انتهت، الممرضات، كل مُوزعي طلبات متاجر البقالة، الأمهات والآباء، كلهم غرباء كما خلد الماء، الحشرات الليلية قانية اللون، نمر الثلوج، مع أنه أيضًا قد مات، وعاد الآن إلى قمة جبال الألتاي الذهبية. تلك هي، أو التي كانت، الحيوانات ذات العادات الليلية في حديقة (نوكتوراما) في المدينة، في حديقة الحيوانات هنا. بعد عشرين دقيقة من خروجي، وأثناء عودتي من نزهتي، حدثت الكارثة التي انتظرتها، كما كان متوقع لها. ففي حين كان رجال الشرطة يدخنون ويتبادلون النكات، ورجال «مركز السيطرة على الأمراض حيوانيّة المنشأ» يدفنون الكلاب، لإصلاح العمل البشع الذي قام به جامعو القمامة عند احراقها، انتَحَر سائق التاكسي في زنزانته. شنق نفسه باستخدام حزام. لا أحد يعرف كيف وصل هذا الحزام إلى الزنزانة، لأن السجناء لا يمكنهم الدخول به، لكنني أعرف. ومن ينظر إلى سروالي الفضفاض وهو على وشك السقوط، سيعرَف ذلك أيضًا.

اليوم، للمرة الأولى في الشهور الأخيرة، خرجت ليلًا من شقتي في شارع (غواراني) لأذهب إلى العمل، دون خطط للعودة. لم يعد هناك داعي لذلك. في الصباح أغلقت عيني والدي وفي الليل ذهبت كما اتفقت إلى مكتب شركة إدارة روزنبرغ للموارد البشرية. العنوان

على بعد خمس بنايات فقط من منزلي، في الطابق الثاني من أحد مباني شارع (جراثيا) الذي أعرفه منذ طفولتي، حيث مررت من أمامه مئات المرات عندما كنت في المدرسة الإعدادية. هو مبنى منخفض الارتفاع، من طابقين، من تلك المباني التقليدية في حيّ (بووم رتيرو)، في الأيام الخوالي. المبنى متهالك وتهدد مظلته بسحق المارة على الرصيف في الأيام الممطرة. في الطابق الأرضي كان هناك متجر للخرداوات، اعتادت أمي أن تشتري منه موادًا للحياكة وبكرات خيوط الغزل، ثم تحول بعد ذلك إلى ورشة صغيرة لصنع الملابس، ملك لأحد اليهود، ثم إلى محل حلاقة لأحد الإيطاليين الذي أعطى مكانه لخياط سوري مات بالسُكري، ثم ظل مغلقًا لسنوات (يبدو أن الابن لم يكن يسدد الضرائب)، حتى عاد لفتح أبوابه بعد أن تحوّل إلى مطعم للوجبات الخفيفة، يرتاده أبناء المنطقة الشمالية الشرقية الذين يعملون في البناء في الحيّ. عندما نظرت إلى الجدار المقابل، كنت على يقين من أنه، إذا قَشطتُ الطلاء الأخضر بظفري سأرى الطبقات السفلية، وأجد خربشة قمت بها عند عودتي من المدرسة ذات صباح، منذ أربعين عامًا. على معرفتي للمبنى الصغير، إلا أنني لم ألحظ أبدًا اليافطة المعدنية على السلم الجانبي، والتي تحمل اسم الشركة مكتوبًا بالبرتغالية والعبرية. بينما كنت أصعد الدرج ضاغطًا قدميّ بقوة، تساءلت فيما إذا كانت للصراصير عادات نهارية بدلًا من العادات الليلية. أو ربما كلها تعاني من الأرق مثلي، لأنها تبدو يقظة جدًا. وبما أن باب المكتب كان مواربًا، دفعته دون سابق تنبيه. في الصالة الصغيرة، ذات الجدران الخشبية والأعمدة المؤطَّرة، كان هناك عجوزان مرتديان سترات سوداء، يمسدان لحيتيهما وينظران إليّ

بتعبير فضولي، دون أيّ تعجب. هما، في الأغلب، بعمر أبي والدكتور غلاس، أو ربما أصغر سنًا، مع أنني لا أتذكر أنني رأيتهما في المنطقة من قبل. وضعا بجانبي كرسيًا تسمح وسادته الجلدية المليئة بالثقوب، بتشريح أحشائها الإسفنجية، ودعياني للجلوس. قبل أن يتفوها بأي شيء، أعلنتُ عن الخَبر: توفي أبي هذا الصباح، ولا أنوي، ولا أستطيع في الحقيقة، تحمل مسؤولية ديونه. ومع ذلك أردت معرفة ماهيّة التحويلات والودائع المتأخرة التي تم ذكرها في المكالمات الهاتفية. مرة أخرى ودون إطالة، قال لي الأطول (تعرفّتُ على صوته الأجش ما أن فتح فمه)، أنه لا داعي للقلق، لأن المشاكل قد تم حلها بالفعل. بطريقة غير مرغوب فيها ولكن تم حلها، قال وهو يعزيني. لا أعرف كيف كانا على علم بالأخبار. ثم أبلغني العجوز، أن شركة روزنبرغ (هما الأخوين روزنبرغ شخصيًا)، قد اعتنت بالموارد البشرية التي احتاجتها عائلتي خلال السنوات السبع والستين الأخيرة. منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، قال الأخ روزنبرغ الطويل، بينما يراقبنا الأخ روزنبرغ الأقصر بصمت. كان هذا وقت طويل، لكن باستخدام هذه الألفاظ «الاعتناء بالموارد»، قد تظن أن العمل كان صعبًا، وهذا ليس صحيحًا، تابع الرجل العجوز، أو أنه مهم جدًا وأعتقد أن هذا أقرب للواقع، لأنها في الواقع كانت خدمة أساسية، لم تعد كذلك للأسف، لأن من كان بحاجة إلى الخدمات، لم يعد بحاجة لاهتمامنا وإنما لاهتمامك أنتَ، لأنه عاد إلى رعاية العائلة، إلى يديك. بعد ذلك، ابتعد الأخ روزنبرغ القصير عن باب الحمّام، حيث كان مستندًا، اعتدل مكتسبًا سنتيمترين من الطول، وأضاف، أن مسؤولية إدارة الشركة هي اختيار الموارد البشرية ذات المعارف الضرورية، أي

المحترفين، لإدارة مبنى شارع (تلمود توراة) الذي يعود للعجوز، والأهم للعناية الشديدة بـ«مُستأجِرة الرقم 905» كما يطلقون عليها، أو بعبارة أخرى، بـ«مُستأجرة توكانتينس»، وبعد تغيير اسم الشارع بـ«مُستأجِرة تلمود توراة»، بطريقة لا تثير بأي شكل من الأشكال انتباه الفضوليين أو غريبي الأطوار، أو حتى انتباه الجيران. خلال السنوات السبع والستين الأخيرة، قام الأخوين روزنبرغ بمعجزات، قاموا حتى بالمستحيل لتلبية احتياجات مستأجرة الرقم 905 بما فيها التعاقد مع مدبرات للمنزل، ثم مع ممرضات مع مرور الوقت، وتحوّل الاحتياجات الطبية للمستأجرة إلى أكثر حساسية ودقة. كما تكفلا بحالات الطوارئ وصاحبا الدكتور غلاس، الدكتور غلاس المُفتَقد، خلال مراجعاته الدورية ومواقف أخرى غير متوقعة، كحالات طوارئ تحدث أحيانًا. الآن ومع موت الدكتور غلاس، لم يعد بإمكانهما فعل ذلك. لكن أكثر ما أقلقهما، كان توقف التحويلات المصرفية تمامًا، أثناء مرض العجوز في الآونة الأخيرة. لبضعة شهور، استخدم الأخوين روزنبرغ مواردهما الخاصة لتسديد مستحقات الممرضة المتعاقَد معها، والأهم، أنهما أودعا المبلغ الكافي لصيانة المنزل وشراء الطعام، وما إلى ذلك. إلى أن جاء يوم لم يستطيعا مواصلة الاستثمار شخصيًا في هذا الأمر، لأن أموالهما، القليلة، قد استنفدت. لا يعرفان كيف تدبرت المستأجرتان أمرهما منذ تلك اللحظة، وحتى ليلة النزهة الليلية في حديقة الحيوانات، لكنني كنتُ أعرف، أو أشتبه، لأن عرّاب الشاب المُوزّع وصاحب البقالة الكورية الصغيرة، قد اتهم ابن أخيه بعدم تسجيل البضائع التي يُسلّمها إلى السيدة إكس: كان الشاب يساعد قاطنتيّ منزل شارع (تلمود توراة). لحظتها عاد الأخ

روزنبرغ الطويل للحديث مرة أخرى، وأوضح أنه يتفهم أن مرض أبي العجوز قد أوصله إلى النقطة التي لم يعد يعي معها التزاماته تجاه مستأجرة الرقم 905، ومنعه ذلك من سداد المدفوعات اللازمة. كانت القصة كلها خطأً مروعًا من القَدر، قال الأخ روزنبرغ القصير، خطأ ليس له مثيل، فمنذ اللحظة التي وِلدت فيها مستأجرة الرقم 905، لم يكن من المتوقع أن تبق على قيد الحياة أكثر من شهور، ومع ذلك، تجاوزت السبعة وستين عامًا، سبعة وستين، مَن ذا الذي يمكنه التكهن، أن شخصًا مريضًا إلى هذه الدرجة، يمكنه أن يعيش كل هذا الوقت؟ بعد إغلاق بيت الدعارة، اشترى العجوز العقار، وزارها كل ليلة على مدار سنوات عديدة، أنت كنت طفلًا في ذلك الوقت، لكن أمك لم تفعل ذلك، أمك لم تزرها قط. أعطاها العجوز دروسًا، أثث المنزل، ملأه بأرفف من الكتب، ومع مرور الوقت، ورفض القَدر إنجاز مهمته، كلّفنا بالتعاقد مع مدبرات المنزل اللازمات. في البداية، لم يكُن يستمررنَ الكثير من الوقت، لم يتأقلمنَ مع العادات الليلية التي تستلزمها حالة مستأجِرة الرقم 905، لذلك، من حينها، وبسبب التعب والمشاكل المترتبة على تغيير المواقيت غير المرغوب فيه، بدأنا بالتعاقد مع متخصصات ذوات كفاءة. أظن أن التكلفة المرتفعة لهذا النوع من المتخصصات، أضعفت الموارد المالية لتجارة والدك، قال الأخ روزنبرغ الطويل. إن الممرضة الحالية هي الأعلى كلفة من بين كل من قبِلن العمل، والأفضل من حيث السيرة الذاتية، لم نفهم قط ما الذي حفزها لقبول العمل. بمرور الأعوام، توقف العجوز عن زيارة مستأجِرة الرقم 905. لم تطأ قدماه المنزل الكبير طوال عقدين من الزمان. صمت الأخوان بضع دقائق. بدا وكأنهما يراقبان درجة

استيعابي لكل ما انتهيا من قَصّه عليّ. رائحة البول النفاذة الآتية من الحمام ونتانة جوارب الأخوين المسنين جعلتني أشعر بالدوار. حينها أخبرني الأخ روزنبرغ الطويل، أن هذه اللحظة هي المرة الأولى التي يدركان فيها (بسبب تعبير الدهشة على وجهي) أنني لم أكن على عِلم بهذا السر العائلي. لكنه كان أمرًا مفهومًا، فعندما وُلِدتُ، كان والداي متقدمان بالعمر، وتلك قصة قديمة، قصة أخرى حزينة من قصص الحرب العالمية الثانية، قصة من أزمنة قديمة، أزمنة لم تعد موجودة، قصة من حيّ (بووم رتيرو) الذي تحوّل إلى دخان، بالإضافة إلى أن العجوز، لم يكن ميّالًا للحديث كثيرًا، أو لكشف أسراره.

مريض الأرق هو شخص مطرودًا بعنف من فراشه الدافئ، ومُلقى به في صحراء باردة ومضيئة. لا ينتمي إلى الليل ولا إلى النهار، بل للعتبة: إنه في منتصف الطريق. يتم جره نحو الجنون تحت ضوء النهار، لأن السير تحت الشمس يشوّش رؤيته، ويسبب له هلوسات. الضوء، بدلًا من توضيح الصورة، يطمس معالم ما لا يمكن رؤيته جيدًا. مثل الضوء الذي يؤثر على الصورة العائلية القديمة، التي تعرَّضت طويلًا للشمس وفقدت أصباغها. إن الماضي ليس سوى مجموع تشوّه أفكار وسوء فهم، مثل طلاء جدار مطعم الوجبات السريعة في الطابق الأرضي لشركة روزنبرغ لإدارة الموارد البشرية، ألوان تغطيها ألوان أخرى دون سابق كَشط، وتغطيها ألوان أخرى. لكن اللون الأصلي للجدار ما يزال موجودًا، هناك، تحت، مَخفيًا تحت الطبقات التي تلته، يتنفس، على قيد الحياة. يتناول عمال البناء البيرة بهدوء على دكّة المطعم، وأمام نظراتهم الذاهلة، غرزتُ ظفر أصبعي الإبهام في

طلاء الجدار وبدأت كشط الطلاء الأخضر: لم يعجب هذا بتاتًا عاملة الحسابات في المطعم. تحت الطلاء الأخضر المقشور، وجدتُ لونًا مائلًا للرمادي، ثم أصفر، ثم أبيض، ثم أخضر فاتحًا، ثم من جديد، أصفر وبعدها اللون الأزرق لطفولتي، اللون الأزرق ذاته الذي كان، حين كنت أمر من أمامه في المرحلة الإعدادية، منذ أربعين عامًا، دون أن أشك في مدى تعقيد الحياة عندما لا نستسلم لملل الحيوانات، لحيواتنا الرتيبة، عندما لا نتحمّل الوحدة أمام التلفزيون المفتوح. لا يزال هناك، تحت كل الطلاءات التالية عليه. إن عدم تحمل السكون هو بداية مصيبتنا. من فوق كل الألوان، تمر الشمس التي تضرب الحائط تمامًا، وتنزع الأشكال وتمحي كل شيء، مما يجعل الواقع غير محدد. عندما عادوا كومانتشي كواناه باركير إلى تكساس من محميتهم في أوكلاهوما، وجدوا فقط، بطاقة بريدية من ماضيهم، هكذا بدت مروج تكساس، تغطيها هياكل الجاموس البري العظمية التي قتلها الصيادون البيض، بطاقة بريدية أرسلها عدو ساخر من أزمنة أخرى، لأن السهول الشاسعة لم تعد وقتها أكثر من صورة متلاشية في الممر. في البقعة المقشَّرة من طلاء الجدار، كنت أبحث عن نافذة باتجاه (البووم رتيرو) من زمن الحرب العالمية الثانية، ربما ممر عبر الزمن كي أطلب تفسيرًا من الدكتور غلاس ومن أُمي المتوفية، لكن عمال البناء قاموا بطردي مدفوعين من قبل النادلة التي خلف نُضد المطعم. بعد أن قاموا بضربي بسبب تدميري الطلاء الجديد للواجهة، عدتُ إلى شارع (غواراني)، وعرفتُ على الفور، أنني لن أفتح ستائر المتجر مرة أخرى. ستبقى هكذا، مغلقة على ما في داخله، ماكينة عَد النقود، المقعد المقعر المنحوت بفعل مقعدة العجوز التي جلس

عليها طوال خمسة وستين عامًا، الأعلام الصفراء للنادي التروتسكي في شارع (جوزيه باولينو)، لنادي يوجنت، مُلصق من عام 1977 لفريق الكورينثيان، وفيه اللاعب باسيليو يبتسم، الأرفف المتربة وفيها عدد قليل من المنتجات، وحتى القط الأجرب، كل شيء سيبقى هنا إلى الأبد، محفوظ، مثل صندوق حِفظ رفاة قديسين من زمن منقَرض. ربما في أحد الأيام، سوف يطلق المقعد همسًا مكتومًا في ذكراه، وسوف تتذكر علامات ألواح الأرض الخشبية خطواته عليها. صعدتُ السلّم وعبرت بين رفات الجاموس في الصالة (كان النمل الأبيض المنتصر الوحيد في هذه المعركة الضارية على السجادة) ودخلت غرفة العجوز. للمزيد من حزني، كان ما يزال ساكنًا في الوضع ذاته الذي تركته عليه عند خروجي. لم يتحرك ولا حتى سنتيمتر واحد. استلقيت على الفراش بجانبه، مددت ذراعي وقارنت لون بشرتينا. لم تكن متشابهة. جلده كان أبيض على نحو متزايد، ترويه روافد زرقاء رقيقة. جلدي ما زال أسمر قاتم، ليس شفافًا، ليس بالإمكان الرؤية من خلاله أثر لدماء تتدفق. إنه أسود تقريبًا. ولا حتى نشبه بعضنا. جلد حشرة عُثة مائلة للحمرة. قارنت بين شَعرينا، شعره أبيض جدًا، وشَعري أحمر، سميك ومجعد مثل شَعر حشرة ليلية قانية اللون. مختلفان تمامًا. على طاولة الكومودينو بجانب الفِراش، هناك فنجان شاي نصف فارغ. لاحظتُ الهزة الطفيفة على سطح السائل، اهتزاز غير محسوس تقريبًا، تسببه الحافلات والسيارات التي تمر في الأسفل، وليس بسبب قطيع الجواميس الذي يلقي بنفسه في الهاوية في نهاية الشارع وينتحر من على الجرف، ويغرق في وسط المحيط الأطلسي مثل قوارض اللاموس النرويجية. أدركتُ أن هذه الحركة

الصغيرة في السائل، في قاع الفنجان الذي في انعكاسه يهتز منزلنا، يمكن أيضًا أن يكون نهاية أطلانطس، نهاية عالمي. انقراضه.

لم أنم منذ أسبوعين. أم ثلاثة؟ في مركز الشرطة، تبدد الدخان وتم إرسال جثمان السائق إلى معهد الطب الشرعي. ومع ذلك فإن رائحة اللحم المحترق ما زالت تتخلل الجو. لا تزال المخلوقة في الغرفة الخلفية. من بين الشهود، تم الإفراج عن موزع البقالة القاصر بمجرد أن سحب عرّابه، مالك البقالة، اتهامات السرقة، ووصلت عمته قادمة من بلدتها. لم يظهر أبواه من شدة خجلهما. لا أتخيل عقابًا أسوأ من النظرة التي استقبلته بها عمته عند الخروج، نظرة مليئة بالسخط تشمل كل أسبوع، يوم، ساعة، دقيقة وثانية من عقوبة مؤبدة. بعد انتحار السائق، تم تقييد السيدة إكس في زنزانتها كإجراء احترازي، ثم اقتادوها إلى مكتبي. ها هو الوحش متخف يرتدي القناع المتعب لامرأة مسنة. في هذا الجو، ذو الأبعاد البشرية، يبدو الوحش ضئيلًا، أصغر من صرصار. تراقب حركة مركز الشرطة، كما لو أن لا شيء هنا غريبًا بالنسبة لها. تصلي السيدة إكس، كما لو أن الرب لا يزال على استعداد لفهم كلمات حشرة، عليها أن تُخبره بها. يتحرك موظفو مركز الشرطة بحركة كاميرا بطيئة أمام المقعد الذي تجلس عليه، بجانب الإبريق وآلة القهوة التي تتدفق منه الرغوة دائمًا. مانِحة الجو طابعًا من الماضي والنهاية والتعب، الذي لم تستطع حتى نتانة الكلاب المشويّة أن تتغلب عليه. بالنسبة للسيدة إكس، الموظفين ملتصقين بشبكة عنكبوت. لا تتظاهر بالدهشة أمام أي شيء من هذا. إنها مسجونة الآن، لكن الأمر يبدو كما لو أنها هكذا

منذ ولادتها. لطالما قمتُ بنسخ أقوال المجرمين. كان عليّ أن أرفض، فأنا بحاجة إلى النوم. ها هم الوحوش. يتشابهون دائمًا ولا يتشابهون. بينما يتحرك الأخرون، يطلّون بلا حراك، مثل العناكب الكامنة. يفكرون، وأفكارهم هي الشيء الأكثر سرّية في العالم. حان الوقت لخلع الأقنعة عنهم. تبيّن أن إفادة فتى توزيع البقالة الكورية الصغيرة أساسية للغاية، لأنها كانت الوحيدة التي تحققت من صحة رواية السيدة إكس، والتي وفقها كان المنزل رقم 905 الواقع في شارع (تلمود توراة) مؤثثًا بالفعل. ولكن، عندما فتشه رجال الشرطة في الصباح التالي لأحداث نوكتوراما، تبين لهم أنه قد تم إفراغ المبنى أثناء الليل. لم تكن في المنزل أية آثار للمخلوقة ولا لأي شيء يثبت وجودها هناك. كما لا توجد سجلات عقارية ولا مصرفية تسمح بتقصي الشركة التي تديره أو مالكه. قام الأخوان روزنبرغ بعملهما بشكل جيد. أظن أن بيع الأثاث سيمكنهم من حل المشاكل المترتبة بسبب النفقات غير المتوقعة. وفقًا لإفادة السائق، عندما رآها للمرة الأخيرة، كانت المخلوقة بالقرب من قفص نمر الثلوج. كان الحيوان، وفقًا للسائق، جاثيًا على قائمتيه الخلفيتين أمام القضبان. ينظران إلى بعضهما وجهًا لوجه. حينها أطلقت المخلوقة خِوارًا حادًا زاد بشكل تدريجي، حتى أصبح قويًا بما يكفي لإسقاط كلاب الروت وايلر، التي هبطَت في سجود عميق، تئن وتتلوى من شدة الألم. فقامت المخلوقة، دون أن تتحرك من مكانها، بتنويع صوتها، كما لو كانت تضبط آلة [موسيقية] داخلية، وفي تلك الكتلة الصوتية الغامضة، تعرَّف السائق تدريجيًا على لحن رقيق راح يتشكل نغمة وراء نغمة، ويصبح أكثر وضوحًا، فهم أن المَخلوقة كانت تغني. وفقًا لبقية إفادته،

أكد السائق أن ذلك كان تمجيدًا لمقطوعته الموسيقية، وحينها ظل صامتًا. والآن، ليس لديه ما يقوله، لأنه ميت. على كلماته المُربكة، أفادت السيدة إكس بأقوال مشابهة، وأضافت، أن نمر الثلوج، وعند سماعه صوت المخلوقة، انحنى على قائمتيه المتبقيتين واستلقى على الأرض أمامها. في هذه اللحظة، اشتد المطر الذي عاث دمارًا في جميع أنحاء المدينة في تلك الليلة، واندفع الرعد والبرق. لم تسمع الشاهدة أي شيء بعد وهج عظيم. عندما عادت لوعيها، كانت المخلوقة ونمر الثلوج قد اختفيا. في اعترافها، أكدت المجرمة أنها لا تفهم كيف نجت المخلوقة المسكينة من جرعات البوتاسيوم التي أعطتها لها، كان ذلك مختلفًا عما حدث لضحاياها السابقين. يُشير سير التحقيق -وقدم لنا الانتربول العون في هذه النقطة- إلى أن عدد ضحايا السيدة إكس يتجاوز العشرين. وفقًا للشرطة البريطانية، فإن المرضى الميئوس من شفاءهم في مستشفى مانشستر، حيث كانت تعمل ممرضة الموت (هكذا أطلقت عليها الصحافة)، قد قُتلوا عن طريق تناولهم مواد تنظيف حارقة مخلوطة بالبوتاسيوم. ولا تفهم السيدة إكس بدورها، كيف أمكن للمخلوقة إصدار صوتًا مُنغّمًا إلى هذه الدرجة، في نهاية النزهة الليلية، نظرًا لأنها لم تعد تملك لسانًا. حين كانت نائمة على حجرها داخل المخبأ، فكرت السيدة إكس عدة مرات، أنها ماتت بالفعل منذ وقت، منذ أن تعرّفت عليها في الليلة الأولى لعملها في المنزل الكبير. عندما تم حبسها في زنزانتها، لم تُرد السيدة إكس شيئًا سوى العودة إلى الحياة في النهار. فقط هكذا، ربما، ستتوقف يداها عن الاهتزاز. الضوء الأول للنهار ينير الأوراق على المكتب، ويحرق جلد ذراعي المحمر. يبزغ النهار. أخرُج من الغرفة

وأدخل إلى الممر المؤدي إلى الغرفة الخلفية حيث المخلوقة. أتوقف أمام الباب المغلق وأسيطر على اليد التي تحمل المفتاح. في عتمة الداخل، أشعر برائحة زهور قوية تغمر المكان بأكمله. أسير كأعمى، قد أبصَر فجأة، حتى النوافذ المطلية باللون الأسود وأفتحها واحدة تلو الأخرى للسماح لضوء الشمس بالدخول، حينها أقول، أنظري عبر النافذة يا أُختاه، أنظري إلى الخارج، أُختي الصغيرة، واسمعي هنا، على الأرض الموسيقية، اسمعي الموسيقى البشرية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفهرس

1 - الطَبّاع : عادات ليلية . . . . . 9.
2 - عالم الحيوان : الصوت البشري . . . . . 39.
3 - الطَبّاع : مكالمات هاتفية . . . . . 89.
4 - عالم الحيوان : بورفيريا... أو اضطرابات وِراثية . . . . . 107.
5 - الطَبّاع : عُثة مائلة للحمرة . . . . . 137.
6 - عالم الحيوان : عِظام وشرايين . . . . . 157.
7 - الطَبّاع : مملكة الحيوان . . . . . 189.

telegram @soramnqraa

إنها رواية رائعة، ذكية وعميقة، تجمع في أسلوبها بين تفصيلية بروست وتعقيد جويس وسوداوية كافكا.

- د. محسن الرملي

يُظهر تيرون قوة أدبية عظيمة ، تماماً مثل سيزار آيرا في أفضل حالاته.

- صحيفة فولها، ساو باولو-البرازيل.

رواية جميلة تتأرجح بين الاجتماعي والغموض.

- صحيفة أو استاداو، ساوباولو- البرازيل.

9 789921 850086

دار الخان للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

@DarAlkhan_kw Info@daralkhan.com